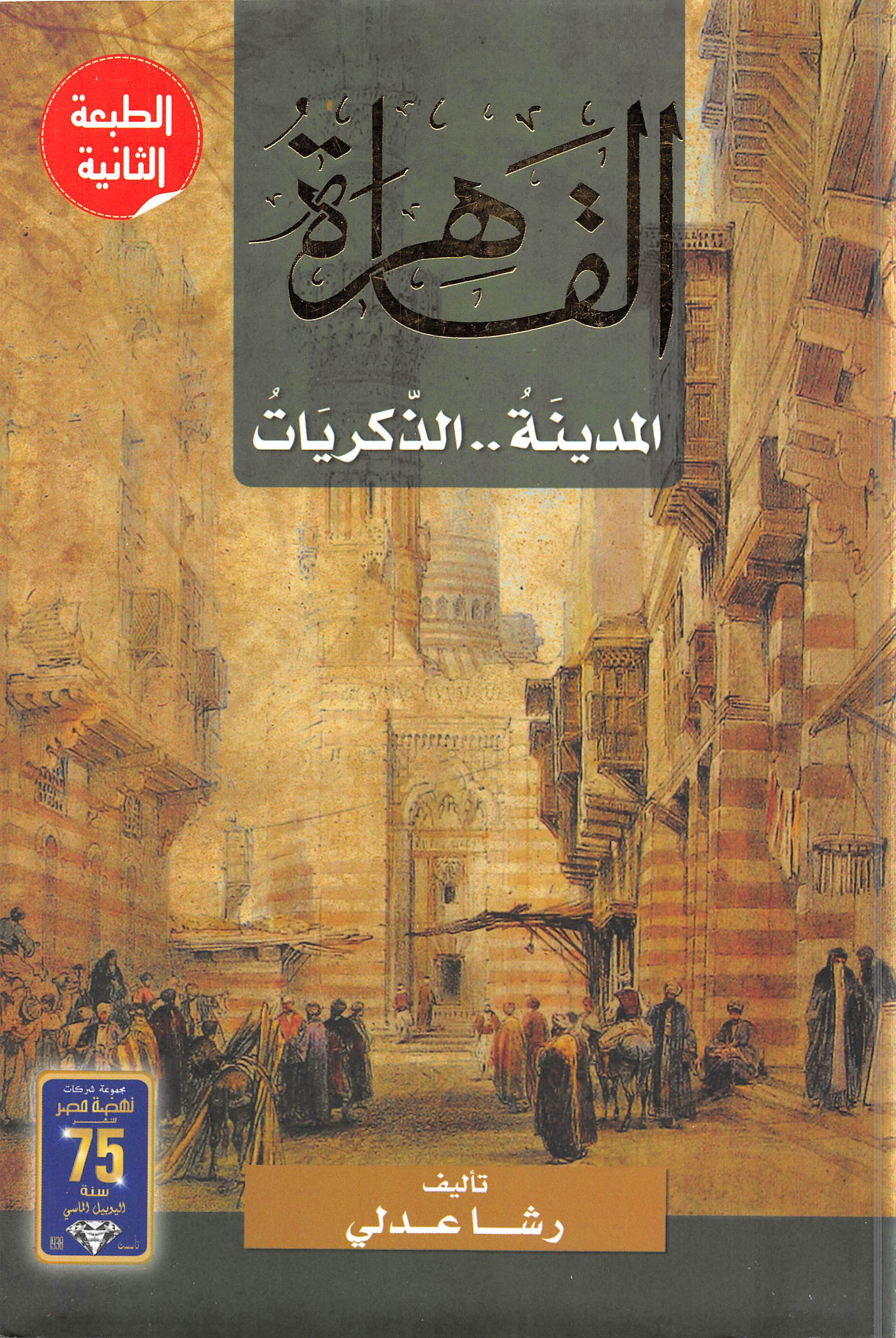


الطبعة
الثانية
القاهرة
المدينةَ.. الذّكريَاتُ
مجموعة شركات
نهضة مصر
للنشر
75
سنة
اليوبيل الماسي
تأسست
1938
تأليف
رشا عدلي



هناك مدن نسكنها وأخرى تسكننا.. مدن نقيم فيها وأخرى تقيم بداخلنا ..مدن عند مغادرتها إذا بنا لم نغادر سوى أنفسنا لفرط ما هي متوحدة معنا.. القاهرة بشمسها ونيلها.. بسمائها وأرضها.. بعاداتها وطقوسها.. بطرقاتها المتعرجة وبخطى العابرين فيها.. لم تكن يومًا سوى مدينة للدهشة والذهول.. مدينة تتحرش بك لتكتب عنها.. لترسمها وتصفها.

منذ قدوم الحملة الفرنسية على مصر توالت الأحداث ساخنة بشكل فارق في مصير البلاد، وزاد الأمر مع تولي محمد علي الحكم فيها، فنفض غبار من سبقوه في الحكم ليصنع وجهًا آخر لتلك المدينة البائسة بعد حكم المماليك الذي ساده الجهل والأمية لتشرع بعدها القاهرة أبوابها فى وجوه الفنانين والأدباء الذين قدموا إليها من كل حدب وصوب.. بين ضفتي هذا الكتاب تقبع ذكريات قرن ماض بكل ما حملته معها أيامه من أحداث وعادات وطقوس بريشة وكلمات أعظم فناني أوربا في ذلك الوقت وأكثر أدبائها شهرة و حيادية.

قالوا عنها :

«إنها تشتمل على عجائب أكثر من أي بلد آخر في الوجود وتبدو على أعمال أعظم مما يتصور مقارنة بأي بلد من البلاد»... *هيرودت*

«حقًا إن الشرق يبدأ من القاهرة».... *جوستاف فلوبير*

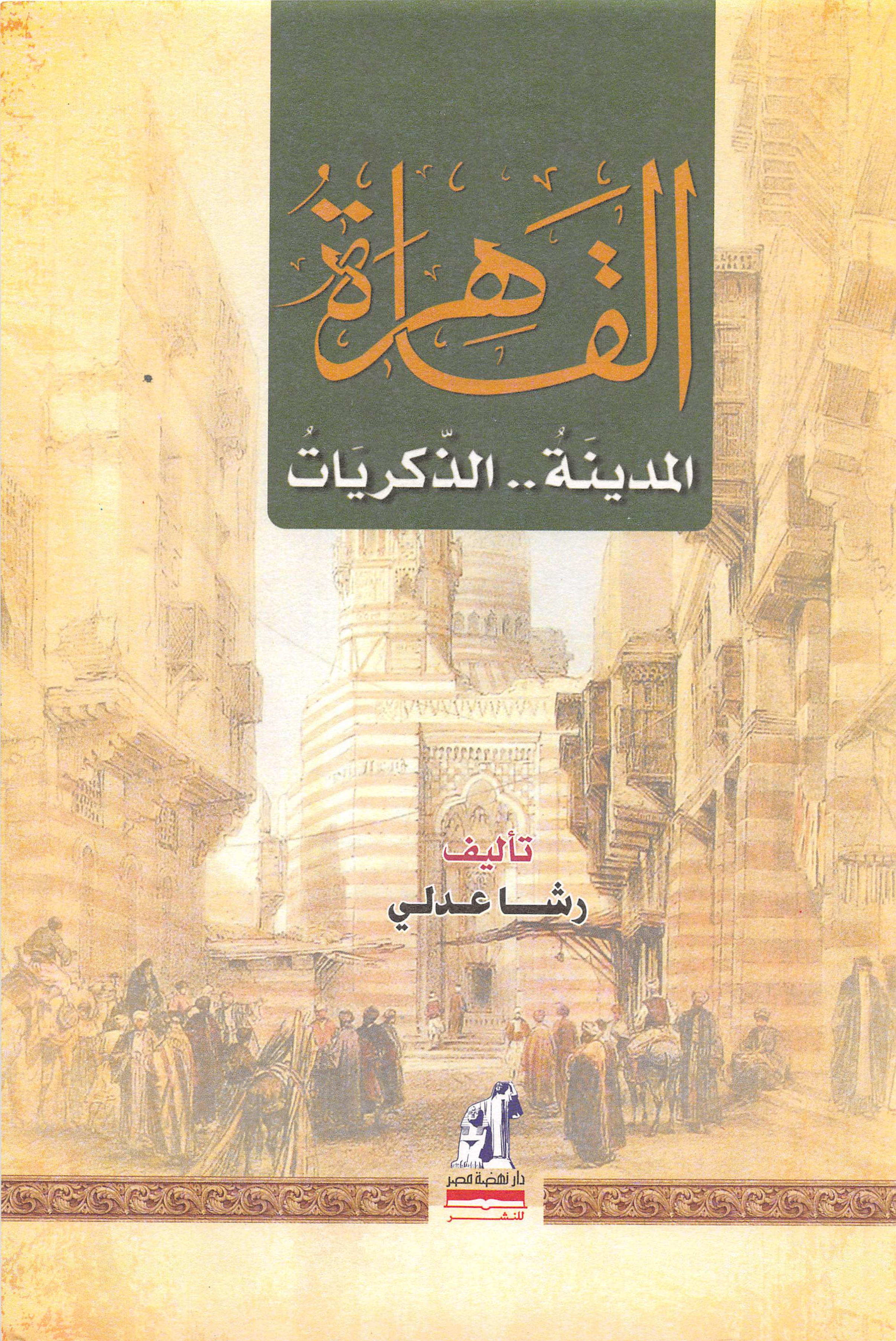
«في مصر قضيت أجمل السنوات، ففي أوربا الغيوم لا تجعلك تفكر في المشاريع التي تغير التاريخ، أما في مصر فإن الذي يحكم بإمكانه أن يغير التاريخ»... *نابليون*

الناشر





www.nahdetmisr.com



القاهرة
المدينةُ.. الذّكرياتُ
تأليف
رشا عدلي
دار نهضة مصر
للنشر

العنوان:

القاهرة

المدينة.. الذكريات

تأليف:

رشا عدلي

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 977-14-4488-3
رقم الإيداع: 2012/5992
الطبعة الثانية: يناير 2013



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

تليفون: 33466434 - 02 33472864
فاكس: 02 33462576
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

مُقدِّمة

قال هيرودوت أبو التاريخ منذ ما يقرب من ألفين وخمسمائة وخمسين عامًا: «إنها تشتمل على عجائب أكثر من أي بلد آخر في الوجود وتبدو على أعمال من أعظم مما يتصوره أحد، مقارنة بأي بلد من البلاد» ومنذ قديم الأزل لم تتوقف مصر عن إثارة إعجاب كل من تطأ قدمه أرضها.

تكمن أهمية هذا الكتاب في أنه يكشف - بالدراسة والتحليل - فترة زمنية مهمة في التاريخ المصري وهي تحديدًا القرن التاسع عشر «1800-1900»، وتعتبر تلك الفترة بمثابة طفرة في التقدم من جميع النواحي استهلها محمد علي باشا ببداية حكمه 1805، وعلى مدى القرن حدث كثير من الأحداث والتغيرات الجذرية في المجتمع المصري بعد حكم المماليك الذي ساده الظلام والذي استمر لسنوات طويلة، ارتفع فيها الجهل والتخلف لجبال شاهقة الارتفاع، ويكشف الكتاب الستار عن الدور الذي لعبه الفن الاستشراقي في إظهار جوانب الحياة في مصر في تلك الفترة من جميع النواحي؛ فتلك الحياة التي عاشها أجدادنا بكل ما تحمله معها من عادات وتقاليد كادت تختفي لولا تلك المواثيق والمراجع التي كتبها عنهم الكثير من الأدباء المستشرقين من بلدان الأرض كافة، وتأتي الصورة بريشة أعظم فناني أوربا في ذلك الوقت ليكتمل الشكل، فما من حدث مهم أو احتفال وعادات وتقاليد إلا وقد وصف بالريشة والقلم، وزيادة في التأكد لإتمام ذلك العمل بشكل حيادي تم الاستعانة بكتب ومراجع لمؤرخين مصريين وشخصيات

سياسية عايشت تلك الحقبة الزمنية وكتبت عنها سواء في مذكرات خاصة بها أو نصوص تحليلية لتلك الفترة المهمة في تاريخ مصر.. هذا، وعلى الرغم من ندرتها فقد وصلت حالة الرصد إلى ذروتها من عمالقة المؤرخين العرب أمثال ابن بطوطة وابن إياس والجبرتي لمصر في حكم الفاطميين، ثم تلاشت تدريجيًّا في فترة حكم المماليك والأتراك واقتصرت على عدد بسيط من الكتب يقتصر دورها على جمع النوادر، بينما فاتها تحليل ورصد الحياة المصرية تحت الحكم التركي وتلك الطفرة التي حدثت للمجتمع والشارع المصري كما في كتاب المؤرخ الرحالة والمؤرخ الإنجليزي دافيد لين والفرنسي برايس دافين، وكذلك ما سجله علماء الحملة الفرنسية في كتاب «وصف مصر»؛ لذلك لعب الاستشراق دوره الأكبر في الاحتفاظ بكل هذا الكم من التراث الذي نادرًا ما يتذكره أحد الآن ويعتبر مرجعًا أساسيًّا لكل دارس أو باحث أو من يمسه الحنين لماضيه، فإذا أردنا أن نعرف ما الذي كان يدور في الشوارع والمدن والميادين قبل مولدنا بمائة عام أو مائتين.. إذا أردنا أن نعرف أي هذه الميادين كان مساحة خاوية وأيها كان ميدانًا بكل ما يحمله معه من صخب وحياة.. وإذا أردنا أن نعرف كيف كان أجدادنا، وقتها، يقضون أوقاتهم - فلا يمكن أن نجد أي إجابات إلا برجوعنا لتلك المواثيق، ولعل القرن التاسع عشر كان العصر الذهبي للاستشراق الذي توافد فيه المستشرقون من كل أنحاء الأرض إلى مصر، وقد وضحت وناقشت تلك الأسباب في الفصول الأولى من الكتاب وإن كان العصر الذهبي للاستشراق قد تزامن مع حكم الأسرة العلوية أسرة محمد علي باشا فسلط العمل الضوء على فترة حكم كل منهم بكل ما له من إيجابيات وما عليه من سلبيات، والجزء الثاني من الكتاب أظهر التركيب الاجتماعي لسكان القاهرة في تلك الفترة الزمنية وناقش كل فئة في المجتمع المصري والدور الذي تقوم به، ثم توالت مظاهر الحياة في مصر في تلك الفترة من أزياء، فعادات وتقاليد وطقوس احتفالية خاصة، وأماكن ترفيه وتسلية اندثرت مع الوقت.. هذا كله يعرضه الكتاب من خلال كلمات ووصف مستشرقين أجانب ومصريين، بالإضافة لعرض أهم اللوحات التي أنجزت في هذا الصدد؛ ليتيح هذا العمل في النهاية نفض الأتربة عن قرنين من الزمان.

الباب الأول

(بـدايـة الاسـتـشـراق)



الفصل الأول

أسطورة الشرق

«حقًا، إن الشرق يبدأ من القاهرة»..

جوستاف فلوبير

لم يكن من العجيب أن يسطو الشرق على عقول المستشرقين بكل ما يمثلونه من فئات وبكل تلك الألقاب اللامعة التي تندرج تحت أسمائهم، ومن كل هذه البلدان البعيدة التي أتوا منها من كل حدب وصوب، وعلى القدر الكبير من اختلافاتهم كان هناك حلم واحد اتفقوا عليه، هو شد الرحال إلى سماء متدثرة بالنجوم وصحراء شاسعة مترامية الأطراف وشمس ذهبية محرقة، جاءوا يسبقهم خيالهم وتدثُّر أحلامهم برداء من المخمل يشبه كثيرًا ملمس بشرة نساء تلك البلاد، ولأن الفنان لا يثيره أكثر من خياله فقد وقعوا جميعهم في الفخ الذي نصبته لهم قصص ألف ليلة وليلة التي تهمس لهم بها كل ليلة شهرزاد في آذانهم فتزيدهم تصميماً على الرحيل لتلك البلاد الرائعة، حتى وإن كلفته تلك الرحلة ميراث عمره كله أو ربما العمر ذاته، فلا بأس بأن يضحي بكل شيء ويترك وراءه كل شيء ويذهب إليها، ولكن كيف وصلت تلك الحكايات لهؤلاء الفنانين؟

في البدء كتبت ألف ليلة وليلة بلغة فارسية، ثم ترجمت للعربية ونقلها من العربية للفرنسية المستشرق الفرنسي «أنطوان جالان» في عام 1704، ومنها إلى الكثير من اللغات الأجنبية وكانت تلك بمثابة الشرارة الأولى لتلك الشظية التي لم تخمد يومًا في عيون وعقول هؤلاء الفنانين، وقد قام بعدها «ليون ثورنتون» بتأليف كتابه الذي لاقى

شهرة واسعة في ذلك الوقت «النساء في عيون المستشرقين» شرح فيه جميع تفاصيل ذلك العالم الذي أخرجه الفنانون في لوحاتهم وانتشر ذلك الكتاب بشكل كبير وكان من النادر عدم العثور عليه في مكتبة كل فنان وربما كان من أهم عوامل الجذب لزيارة تلك البلاد، بعدها رسم الفرنسي «جان باتيست فانمور» الكثير من اللوحات التي احتوت على نقوش شرقية بعد زيارته للقسطنطينية وقد لاقت إعجاب الجمهور وسلبت لب الفنانين وأغرتهم أكثر بالسفر إلى الشرق وربما كانت حركة الاستشراق قد بدأت منذ أزمنة غابرة إلَّا أنها لم تصل إلى ذروتها إلا في القرن التاسع عشر، خاصة بعد الحملة الفرنسية على مصر وكتاب شاتوبريان «الطريق من باريس إلى أورشليم» وانتشاره بصورة كبيرة بين الأوساط الفنية وقتها.

والاستشراق حركة فنية واسعة لا يمكن ربطها ببلد أوربي معين للنزوح لبلد محدد في الشرق، فليس هناك جنسية له، فهو عبارة عن لقاء الفنان بدولة وشعب وبطقوس وعادات وعليه أن يخرجه بالصورة التي تحلو له فهو غير مقيد بشيء على الإطلاق؛ لذلك ظل الشرق بمثابة لغز حتى بعد إنتاج هذا الكم الوافر من الكتب واللوحات الفنية عنه، فكم من فنان تكسرت آماله وأحلامه العريضة في عيش حياة الملذات التي قرأ عنها في ألف ليلة وليلة ولم يجدها سوى مجرد دعابة وخيال ليس أكثر وما تبقى من ليالي الحريم والسلطان هو أطلال وشواهد قبور، فأخرج البعض منهم تلك الأعمال وغلفها بوشاح ألف ليلة وليلة بلياليها الساهرة ونسائها الجميلات وأسواقها العامرة وأزيائها المذهبة وموائدها المتخمة.. والبعض الآخر كان أكثر واقعية ونزاهة؛ فها هي لوحاتهم بمثابة واقع يمر أمامك بدون رتوش أو تضليل لتلك الشعوب وبكل ما تحمله معها من عادات وتقاليد وفي الوقت نفسه حرص على ألا ينقصها إبداع الفنان، تمامًا كما هي لوحات النمساوي مولير الواقعية لحد أنها تضاهي الحقيقة حتى وإن كانت في القبح ولوحات الألماني إدوارد فرديريك وليم التي في جنوحها تتحدى الخيال نفسه.

وبنصيحة قد أعطاها يومًا الفارس «جوبير» للكاتب «ماكسيم دو كومب»: «أن تحلم بالشرق دون أن يكون لك معرفة به، تمامًا كما لو أنك تصنع حساء الأرنب وليس هناك

أرنب.. فعليك بالذهاب إلى هناك حتى وإن كانت خيبة الأمل في انتظارك». ربما كانت تلك الكلمات تختصر المعنى كله؛ فالشرق كان هناك حيث يود الشاعر أن يحس، والرسام يرغب في النظر، وكانت الكلمات التي سطرتها يد فرومنتان إيجازًا لذلك المعنى؛ حيث يجمع بين الشرق الرومانتيكي الذي يحلم به الفنان والواقعي الذي يصطدم به أمامه، إلا أنه حتى في ذلك الاصطدام يجده الأجمل «الشرق شيء متفرد للغاية، كونه مجهولًا وجديدًا وكونه يوقظ أولًا أعظم المشاعر فينا، إنه يخاطب العيون ولا يخاطب العقل إلا قليلًا وله القدرة على إثارة الانفعال، إنه يفرض نفسه بكل حدة؛ لغرابة عاداته وأصالة نماذجه ووعورة آثاره، والسلسلة التي لا تبلى من ألوانه.. إني لا أتحدث هنا عن شرق خيالي بل أتحدث عن هذا البلد المغبر والمبيض والساطع شيئًا ما عندما يشع لونه، والكامد شيئًا ما عندما لا يوقظه أي تلوين مشع».

إن كان هناك من المدن قد خلقت ليكتب عنها ويرسم لها هؤلاء الفنانون فقد كانت القسطنطينية أكثر تلك البلاد خيالًا؛ تلك المدينة الساحرة على ضفاف البوسفور ترتفع مآذنها في السماء وتتكاثف أغصان الشجر بين ممرات بيوتها شرقية الطراز وشوارعها التي يعبر منها جميع جنسيات الأرض، والأهم من ذلك قصور السلطان وحريمه الخاص. ومن القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية كانت مدينة القاهرة التابعة لها في الولاية في ذلك الوقت؛ القاهرة المدينة التي تحمل أغوار الماضي هي بدون شك قبلة الاستشراق والتي تحمل على أرضها آنذاك هذا الخليط العجيب من أشكال وأصناف البشر ونيلها الممتد وهوائها العليل، والأهم من هذا وذاك أهراماتها أعجوبة الزمان.. القاهرة التي كتب عنها جوتييه الأديب الفرنسي يقول: «كم شيدنا منذ صبانا مدنًا من خيالنا كنا نتمنى لو شاهدناها في الواقع، غير أن حظنا لم يمنحنا أن نسكنها إلا في خيالنا وكانت لنا قاهرتنا التي نسجناها من عناصر ألف ليلة وليلة المتناثرة حول ميدان الأزبكية الذي صوره لنا ماريلا.. إنني مدين له برؤياي عن الشرق».



(Bazaar in the street leading to the Mosque El Moo-Ristan, Cairo David Roberts)

(سوق في الشارع مؤدية إلى مسجد الموريستان، القاهرة ديفيد روبرتس)

تأتي في المرتبة اللاحقة بلاد الشام والجزائر وتونس والمغرب، وربما حظيت الجزائر برصيد وافر من تلك اللوحات خاصة بعد الاحتلال الفرنسي لها، وكان يقصد بالشرق في ذلك الوقت كل المناطق الواقعة تحت الحكم العثماني بما فيها بلاد الإغريق، ولكن تظل مقولة الأديب الفرنسي جوستاف فلوبير هي الأصدق: «حقًّا إن الشرق يبدأ من القاهرة». عندما كان الفنان يخطط ويجمع معه ما خف وزنه وغلا ثمنه يعقد العزم على زيارة تلك البلاد تباعًا، لا تبرح خياله وقتها مدينة القاهرة، وقد نتجت عن تلك الرحلات الاستشراقية العديد من المؤلفات الأدبية للكثير من الأدباء الكبار أمثال لامارتين، نرفال، جوتييه،فلوبير، ديديه، ماكسيم، جاكومب، فيكتور هوجو وأسهمت في انتشار الثقافة من بيئة لأخرى مختلفة عنها تمامًا وأدت في الوقت نفسه لانتشار الترجمة والاطلاع على عادات

وتقاليد كثير من الشعوب، وكانت نواة لدراسة علوم اجتماعية جديدة؛ فالفنان نفسه كان مصدرًا لنقل تلك الثقافات المختلفة، وكثير من هؤلاء المستشرقين لم يكن باستطاعتهم التخلي عن ذلك العالم الذي وقعوا في عشقه؛ فمنهم من طالت إقامته فيه ومنهم من أقام فيه للأبد وأعلن إسلامه وتزوج من امرأة شرقية وفي النهاية يرجع كل منهم لموطنه، وقد انتمى جزء منه لدنيا الشرق وخلفت كتبه ومؤلفاته لدى القارئ ذلك الفضول لاقتفاء أثر كاتبه المفضل في تلك المدن بشوارعها وميادينها.

وقد أدى ذلك التغلغل لعدد من الفنانين إزاء رحلاتهم الاستشراقية إلى رفضهم منح الخصوصية لبلد عن آخر فأنتجوا نوعًا مختلفًا من الفن الاستشراقي عبارة عن لمحة عامة عن الشرق مختارة من مشاهدات الفنان خلال رحلاته، فليس بالضرورة رسم مشهد واحد من بلد واحد، ويجمع الفنان في ذلك النوع من اللوحات مشاهد؛ بعضها من مصر وبعضها الآخر من المغرب وإستانبول كما في لوحة رودودلف غيرنست الشهيرة بعنوان «حارس القصر»؛ في خلفية اللوحة رسم الفنان معبدًا هنديًّا، بينما يعتمر الحارس النوبي عمامة عربية ويلبس حذاء تركيًّا، ويعتمد ذلك النوع من الفن الاستشراقي على خيال الفنان وتأثير تلك البلدان عليه، ولكن في النهاية لا تعود تلك اللوحات بالنفع على المشاهد لفشله في الربط بينها وبين أماكن بعينها؛ لذلك لم تجد نجاحًا أو انتشارًا يذكر؛ لأنها تصيبك بتلك الدهشة المربكة في تحديد الزمان والمكان.

الفصل الثاني

أسماء تركت وراءها وميضًا

«الرحالة الحقيقيون هم من يرحلون حبًا في الترحال وحده بقلوب في خفة الريش وبتقبل لقدرهم المحتوم، مرددين دومًا: «هيا بنا» دون أن يتبينوا حافزهم الخفي في ولوج هذا السبيل»..

بودلير

كانت الرحلة لتلك البلاد أكثر صعوبة بل إنها تحدٍّ حقيقي لتحقيق الأحلام، ومجازفة كبيرة لما بها من الكثير من المخاطر كشبكة عنكبوتية تحيط بك من رياح وطرق وعرة وكثبان رملية وجبال شاهقة، بالإضافة لعصابات قطّاع الطرق والإصابة بالأمراض القاتلة، فمثلًا خلال رحلة نيبور في القرن الثامن عشر أصاب جميع أفراد الرحلة مرض الملاريا وماتوا جميعهم، هذا بالإضافة إلى أن تلك الرحلات تكلف الكثير من الأموال إن كانت على النفقة الخاصة وإن لم يكن الفنان يملك تلك الأموال كان عليه أن يملك تكليفًا حكوميًا أو إسنادًا دبلوماسيًا يؤهله للذهاب لتلك البلاد.. وكلفت «فونيني» رحلته إلى الشرق أن ضحى بجميع إرثه، ورحلة « شاتوبريان» كلفته خمسين ألف فرنك، ولم تقل عن هذا كذلك رحلة «لامارتين». كانت الرحلة في السابق وقبل اختراع السفن والقطارات تتم على ظهور الجياد سواء في قافلة كبيرة أو بمفردهم، يتبعون حدسهم وعليهم أن يسيروا في الصحراء الشاسعة يجلسون للراحة تحت ظل شجرة وارفة وتغمرهم السعادة عندما يشاهدون من بعيد أسوار المدينة فيهرعون للنزول في الخان «الفندق» أو يكون حظهم

سعيدًا إذا كان في استقبالهم بيت عربي كريم، وقد وصف الأديب لامارتين عند وصوله لفلسطين كيف تم استقباله كما لو كان ملكًا عظيمًا فيقول: «كان الشيخ في انتظاري بينما كنت أغتسل، في حين كان ابنه الصغير يمسك بمبخرة فضية وكان إخوته يلقون على ثيابنا بالعطور وكان بانتظارنا مائدة عظيمة وفي النهاية قدم لي هدية جوادين، ولكني اعتذرت عن عدم قبولهما»؛ إنه الكرم العربي الذي أخرجه الكثير من الرحالة في لوحاتهم وتحدث عنه كثير من الأدباء أمثال فيكتور هوجو الذي كتب يقول: «لم تكن يومًا حكمة كرم الضيافة حكمة عابثة، إنهم حقًّا يملكون هذا الشيء». واختلف الأمر كثيرًا بعد اختراع النقل البحري الذي أسهم في تسهيل مهمة هؤلاء الرحالة؛ فتوافد المئات من الفنانين الذين رحلوا لبلاد الشرق منذ منتصف القرن السابع عشر لبداية القرن العشرين، وقد تنوعت اللوحات ما بين فرشاة وأخرى كلٌّ تبع مزاج صاحبها وخلَّفوا وراءهم إرثًا كبيرًا بمثابة تراث لتلك البلاد، ولكن على الرغم من كثرة توافد هؤلاء الفنانين فإنه في النهاية لم يذكر منهم سوى قلة قليلة اشتهرت في إخراج تلك المظاهر بشكل مثير وجميل فانتشرت لوحاتهم وذاع صيتهم وليومنا هذا لا تزال لوحاتهم معلقة بكبرياء على حوائط أشهر المتاحف الفنية كمتحف اللوفر بباريس والمتحف الوطني بلندن ومتربوليتان بنيويورك. ومما يلفت الانتباه أن هؤلاء الفنانين لم يكتفوا فقط بتلك اللوحات ولكن رسموا الأحرف على الورق، هل لأن الرسم والكتابة وجهان لعملة واحدة، أم لأن تلك المساحة البيضاء من الورق التي تذرعها الفرشاة ذهابًا وإيابًا ليست بكافية لوصف كل ما رأته أعينهم؟

- **فيفيان دينون رسام فرنسي:** كان مع الحملة الفرنسية، وفور رجوعه لفرنسا بدأ في الرسم والكتابة معًا وقد حقق كتابه «رحلة في مصر العليا والسفلى خلال حملات الجنرال بونابرت» نجاحًا باهرًا وقد ترجم إلى عدة لغات وطبعت منه أربعون طبعة نفدت جميعها، ويرجع نجاح هذا الكتاب إلى أن فيفيان كان بمثابة مراسل حرب وشاهد عيان لكل ما حدث، فكان يرسم مخطوطات أولية ما بين طلقة بندقية وأخرى تارة مستخدمًا ركبة أحد الجنود كمنضدة، وتارة متسلقًا كتف أحدهم ليرى نقشًا أو تاجًا،وربما لاقى كتابه كل ذلك النجاح؛ لأنه كتب بالتفصيل والحياد

كل ما رآه بدون تأملات فلسفية أو اهتمام بناحية أدبية وبالرغم من أن رسوماته كانت أخف وأقل إبداعًا من تلك التي وضعت في كتاب «وصف مصر» فإن شهرته التي فاقت فناني هذا الكتاب جعلتهم يلجئون إليه لرسم غلاف وصف مصر، وهو عبارة عن صورة رمزية عن مصر لجسور تمتد من البحر المتوسط إلى شلالات ومعابد وأبو الهول ومسلات وحجر رشيد وتسير عربة نابليون في حشد من علماء وفنانين بشموخ وسط الجميع.

- **برايس دافين المؤرخ الفرنسي والكاتب والفنان 1807-1879:** ذلك الرجل الذي جاء إلى مصر منذ عهد محمد علي لنهاية عهد إسماعيل؛ تلك الفترة التي كانت من أثرى الفترات التاريخية في العصور الماضية وبعيونه الثاقبة المحايدة مارس الرسم بالألوان والرسم بالحبر معًا. في البدء التحق بالعمل الحكومي وعمل بالهندسة والتدريس وتدرج في الوظائف الحكومية لمدة تزيد على سبع سنوات، ثم قضى ما تبقى من عمره كرحالة في تلك البلاد السمراء من مدينة إلى أخرى ومن قرية إلى أخرى يلاحظ ويسجل ويرسم كل ما تقع عليه عيناه حتى ترك وراءه اثني عشر مجلدًا كبيرًا من لوحات وكلمات تسجل أدق تفاصيل حياة المجتمع المصري من كافة النواحي، وتحتفظ مكتبة باريس الوطنية بتلك الأعمال الخالدة.

- **الفنان الفرنسي ألفونس إتيان دينيه «1861-1930»:** كان فنانًا عالميًّا في رسم اللوحات وقد أشهر إسلامه وبدل اسمه إلى ناصر الدين وله أيضًا الكثير من المؤلفات لكتب في الإسلام عن الله ورسوله، والكثير من اللوحات عن الجزائر والمغرب.

- **الفنان النمساوي ليبولد كارل مولر «1834-1892»:** هو الأكثر شعبية بين الفنانين، وقع تحت سطوة الريف المصري وأقام علاقات صداقة مع هؤلاء البسطاء وفي لوحاته يمكننا أن نشعر بروح الريف وملامح تلك الطبقة البسيطة، من أشهر لوحاته: فتاة مصرية مع فرشاة، قرية بدو، امرأة قبطية، وقد أسس المدرسة النمساوية للاستشراق.

- **فرومينتان «1820-1879»:** الأديب الفرنسي اللامع الذي مارس الرسم في وقت

متأخر من ممارسته للأدب والكتابة «1820 - 1879» وفُتن بالصحراء كما لم يفتن بها أحد، زار البلاد العربية وهو بعد لم يمارس مهنة الرسم، ولكن تلك المشاهد ظلت تحتل عروش الذاكرة، ومحاولة منه أن يستعيدها مجددًا أمسك بالفرشاة ورسم المناظر الطبيعية في الجزائر ونيل مصر الذي شبهه بلون الشكولا وحازت أعماله العديد من الجوائز حتى أنعم عليه بلقب «ملك الصالون» وميدالية الشرف عن كتابه «الصحراء والساحل».

- **الفنان النمساوي لودفيغ دويتش «1855-1935»:** مستشرق نمساوي كان قد اصطحب فرشاته وألوانه ونزل بها لشوارع القاهرة يرسم كل ما يلهمه ذلك، وكان الأكثر إلهامًا له شوارع القاهرة بكل ما تحمله من صخب وفوضى وجمال وحيوية.. وفي أغلب الأوقات، كان يطلق على لوحاته أسماء الشوارع أو ربما يضع في مكان ما ببؤرة اللوحة اسم الشارع في برواز كبير، ومن أشهر لوحاته: بائع السحلب، شارع الزنانيري، بائع البرتقال،بائع العرقسوس، لعبة الشطرنج.

- **جان ليون جيروم «1826-1899»:** ما إن ننطق كلمة مستشرق حتى يتبادر إلى أذهاننا الفنان الفرنسي الأكثر شهرة بين المستشرقين جان ليون جيروم مؤسس مدرسة الاستشراق بالأكاديمية الفرنسية للفنون، وهو الفنان الأكثر عشقًا لمصر، على الرغم من أنه قضى عمره رحالة من بلد لآخر حتى عامه الثمانين، ولكن مصر وحدها كانت قد سلبت لبه فرسم مئات اللوحات لنيلها وآثارها ونسائها وأسواقها، لم يترك شيئًا يمر من أمامه هكذا مرور الكرام، وكانت له عين ثاقبة كمصور فوتوغرافي مهنته الأساسية التي تمنحه إتقان التفاصيل والعمل على خروج المشهد بشكل جميل ورائع؛ لذلك كان يلجأ أحيانًا للتصوير الفوتوغرافي ثم يقوم برسم تلك الصور بالفرشاة في الاستديو الخاص به؛ هذا الاستديو كان بمثابة مُتحف تعرض فيه أزياء وقطع أثاث وتحف عربية من التي جمعها أثناء رحلاته، وقد أسس جيروم القسم الاستشراقي في المدرسة الفرنسية للفنون الجميلة بباريس، وتتلمذ على يده الكثير من فناني فرنسا والدول الأوروبية الأخرى فنقل إليهم دون أن يدري عدوى حب الشرق، خاصة

مصر، وقد احتلت لوحاته الصدارة على مدى ثلاثين عامًا في معرض صالون باريس وكانت أولى زيارات جيروم لمصر عام 1854 وقد كتب بعدها مذكرات عن تلك الرحلة نشرها له صديقه مورو فوتييه، وكتب فيها قائلًا: «رحيلي إلى القاهرة.. إقامتي القصيرة في القسطنطينية فتحت شهيتي، كان الشرق هو حلمي الجميل، ربما كان أحد أجدادي من البوهيميين؛ لأني أميل إلى الترحال، ومولع بالتنقل، أرحل مع أصدقاء، أنا خامسهم، الجميع لا يحملون الكثير من المال، ولكنهم يفيضون نشاطًا وحيوية، الحياة المادية في مصر - في تلك الفترة - قليلة التكاليف، ولم تكن قد وقعت في براثن الغزو الأوربي بعد، نستأجر قاربًا شراعيًا، قضينا أربعة أيام على صفحة النيل، نصطاد ونرسم، في ترحالنا من دمياط إلى فيلة نعود إلى القاهرة حيث نقضي أربعة أشهر أخرى في أحد منازل سليمان باشا المؤجر لنا، وبصفتنا فرنسيين، فهو يستضيفنا في ود وترحاب، زمن الشباب السعيد والأمل والمستقبل، أمامنا الكثير من اللوحات، سواء منها ما سيحظى بنجاح كبير أو ضئيل، أو تحوز إعجاب الجمهور بدرجات متفاوتة، سوف أنتهي منها بعد هذه الإقامة»، وقد ضم فريق الرحلة التي قام بها للقاهرة بعض الصحفيين والمصورين من أصدقاء جيروم: ألبير جوبيل، ليون يونات، فامارس تيستاس، ريتشارد جوبي، وفردريك، ماسون الذي روى جانبًا من ذكريات هذه الرحلة في بعض مقالاته، وقد وصف جيروم قائلًا: (.. كأن جيروم ولد خاصة لهذه الرحلات النائية التي تتطلب بنيانًا قويًا وفكرًا حازمًا، يقف دائمًا دون كلل أو ملل. يقود القافلة بطريقة لا يمكن لأحد الاعتراض عليها، مع إشراقة كل صباح كان يتولى الإشراف على أدق الأمور، وتوزيع المهام، ثم يمضي ساعات طويلة: يدخن.. يصطاد.. يدون بعض ملاحظاته.. يفتش بعيون الفنان والكاتب وعالم الآثار.. وما يكاد يصل إلى المعسكر حتى يبدأ العمل، ولا يحول بينه وبين عمله مطر أو رياح، ثم ينظف الباليت وفرش الرسم.. ويا لها من صحبة رائعة حول مائدة، تحت خيمة!).

- **دافيد روبرتس «1796 - 1864»:** فنان بريطاني جاء لمصر عام 1840 وقد خلع زيه وارتدى الزي العربي ليحيا كشخصية عربية، فخلع القبعة ليعتمر العمامة وسكن في

الأحياء الشعبية واقتنى العبيد وأنتج مجلدًا ضخمًا يحتوي على رسومات ووصف تفصيلي لتلك الرحلة بعنوان «الأراضي المقدسة ومصر والنوبة». حقق ذلك العمل الشهرة الواسعة وقد وصف فيه القاهرة بأنها مدينة لا تماثلها مدينة أخرى بالرغم من ضيق الشوارع وازدحامها وفضول المارة، وكتب في ذلك قائلًا: «أخشى أن تطأني الإبل بأثقالها فأتحول إلى مومياء».

- **الفنان الفرنسي ديلاكروا «1798 - 1863»:** أحد عباقرة الفن التشكيلي ومؤسس المدرسة الرومانسية للفن، بدأت رحلته إلى شمال إفريقيا عام 1832 مع صديق له دبلوماسي وأتاحت له تلك الرحلة المزج بين التقاليد الكلاسيكية في الرسم وبين الاستشراقية الغرائبية، وقد رسم ديلاكروا كثيرًا من اللوحات عن رحلته للشرق كانت أجملها لوحة «نساء في الحمام» ويذكر أنه رسمها بعد زيارة له لحمام جزائري ومشاهدة كل تلك التفاصيل بأم عينه وقد قال عندما دهش من ذلك العالم الأنثوي الخاص: «إن سحر نساء تلك اللوحة ينبعث في أنه ألف تفصيل وتفصيل، غير أن الشغف الذي يثرنه يبدو نابعًا من جمال غامض ومجهول تمامًا». ووصفها رينوار قائلًا: إنه يشعر برائحة البخور تنبعث منها وكانت لوحته «نساء» من أجمل أعماله ليس في مجموعته الاستشراقية فحسب ولكن في أعماله على الإطلاق وتعلق في متحف اللوفر كتحفة أساسية ومن خلال كتاب نشر الوثائق التاريخية والفنية على مدى حياته نشر كتبًا استهلها بعبارة جميلة قائلًا: «كل شيء لم يقل بعد.. والإنسان لا يأتي متأخرًا أبدًا».

- **تيودور شاسيرو 1819:** الفرنسي الذي تأثر بلوحات ديلاكروا ودينيه، خاصة تلك البيئات العربية التي رسمها أساتذته فنراه وقد تفوق عليهم برسم النساء الشرقيات بجمالهن الأخاذ وهن يطللن بحياء من شرفات البيوت أو يجلسن في مجالس نسائية يمارسن طقوسهن الخاصة، ومن نساء العرب لحكامهم عندما تربعت لوحته «بورتريه حاكم قسطنطينية علي بن أحمد» على عرش اللوحات الفنية عندما علقت على جدران صالون باريس 1845 وحازت إعجاب الجميع.

- **الفنان الإيطالي باسينو ألبرتو «1846 - 1928»:** الذي اتسم فنه بتلك الرومانسية المفرطة حتى كأن التجول في لوحاته في حديقة لا يشغل مقاعدها إلا العشاق؛ لذلك كانت لوحاته هي الأغلى ثمنًا، كان يمتاز بوفرة الإنتاج الفني، وقد تدرب على أيدي عباقرة الرسم الفرنسيين، وكثرة ترحاله في الشرق الأوسط التي أخصبت خياله بكم وافر من الرؤى والمشاهد؛ لذلك كلما ذكرنا أعمدة الفنانين المستشرقين علينا ذكر اسمه.
- **ومن إيطاليا لأمريكا والفنان ذائع الصيت بريدجمان:** كان واحدًا من أكثر الفنانين المستشرقين إثارة للاهتمام فلم يرسم يومًا بنية كسب العيش، وبالرغم من ذلك كان يرسم يوميًّا وقد تأثر بالحياة الجزائرية بكافة تفاصيلها، وعرضت لوحاته في عدة متاحف عالمية.
- **جون فريدريك لويس.. عاش بالقاهرة «1842 - 1851»:** أبرع وأشهر المستشرقين البريطانيين وتعتبر لوحاته أكثر واقعية عن الشرق، فهي هادئة، حافظ فيها على التقاليد ومن أشهرها لوحة «الحريم» وأجملها لوحة «كاتب الرسائل في السوق».
- **الفنان الإيطالي فوبيه فابيه:** حضر إلى مصر في نهاية القرن التاسع عشر، تخصص في رسم مشاهد حفلات الزفاف وتشابهت لوحاته مع اسمه الذي يحمل جرسًا موسيقيًّا فجاءت معظمها لوحات للرقص الشرقي وأتقن حركة تحريك الأيدي والأجساد حتى ليهيأ لك أنك تسمع الألحان التي يتم الرقص على وقْعها، ومن أشهر لوحاته «موكب زفاف»، وامتازت لوحاته بفرشاة قوية وألوان صاخبة وكانت لوحته «عائلة عربية على عربة بحمار» وهي وسيلة المواصلات المتاحة في ذلك الوقت من أجمل لوحاته.
- **الكونت فارمان:** من أشهر رسامي فرنسا، وقد قارنه المؤرخ رينيه كاريه بفيفيان دينون فنان الحملة الفرنسية الشهير وقد زار مصر عام 1817 بعد أن جاءها في مهمة خاصة فكان مكلفًا من الملك لويس الثامن عشر بجمع آثار مصرية لتزويد متحف اللوفر بها، وقد تجول في البلاد حاملًا ريشته وقلمه فأخرج الكثير من الرسومات

المعروضة في متحف اللوفر، وألف كتابه الشهير «رحلة إلى الشرق» الذي أثار خيال الكثيرين من الأدباء والفنانين لزيارة تلك البلاد بعد أن كتب فيه كل ما هو مثير للدهشة عنها.

- **نستور لوت رسام فرنسي جاء لمصر 1828:** ضمن بعثة شامبليون وقد استرعت الآثار المصرية انتباهه فنجده قد رسم الكثير من تلك الآثار والمعابد والمسلات ووضع مؤلَّفه «رسائل من مصر».

- **ربورت هاي:** أسكتلندي جاء إلى مصر «1828» وقد أعجب بأحياء القاهرة الشعبية والحياة الاجتماعية لهؤلاء البسطاء، تعلم العربية حتى يكون أكثر منهم قربًا، وألف كتابه «صور من القاهرة» رسم فيها شوارع وحارات القاهرة القديمة.

- **الفرنسي بروسبير ماريلا «1811-1847»:** الفنان الذي توغل في روح الشرق حتى اشتهر باسم ماريلا المصري، وكتب عن الحياة المصرية «مادة أحلامه المنشودة وحياته المثالية»، ومن أشهر لوحاته «مشهد من ميدان في القاهرة»، «منظر لبولاق»، «مقهى في بولاق»، «على مسجد باب الوزير» وكتب جوتييه الأديب الفرنسي عن لوحات ماريلا التي تأثر بها كثيرًا أنه كلما أدار نظره عنها شعر بحنين للشرق.

- **قسطنطين ماكوفسكي:** فنان روسي، رسم لوحته الأشهر والأجمل؛ تلك اللوحة التي تمثل طقسًا دينيًّا شهيرًا للقرن التاسع عشر وهي «نقل السجاد الشريف من القاهرة» التي رسمها عام 1876 والمقصود بها نقل كسوة الكعبة المشرفة في موكب المحمل وهي من أجمل اللوحات التي رسمت للوحة استشراقية توضح حدثًا مهمًّا للبلدان العربية، وأفاض الفنان على اللوحة بأدق التفاصيل وكان توزيع الضوء والظل بها أبرع ما يكون، ومن يشاهد تلك اللوحة يشعر وكأن هذا الموكب يمر أمامه بكل ما يحمله معه من صخب وجمال.

- **ماييه ودوزا:** زارا مصر بصحبة البارون تايلور الأديب الفرنسي وقاما برسم الكثير من الصور عن مصر، زينت قصور أثرياء فرنسا وأوربا ومتاحف عالمية.

- **جون جرين وفرانسيس فريث:** مصوران إنجليزيان وصلا إلى مصر في أوائل القرن التاسع عشر وأحدثت الصور التي أخذاها ضجة كبيرة في لندن، وقد ألف فرانسيس فريث كتابه في جزأين عن رحلته في مصر وفلسطين خلال (1856 - 1859).

- **هنري كامه:** وضع هنري كامه ألبومًا مصورًا عن وادي النيل يعد مرشدًا ممتازًا عن مَصر ونشر رحلته في باريس عام 1862.

- **فيليب جوزيف ماشرو:** الفنان الشاب سكرتير فيفيان دينون، والذي أصبح يقدم عروضه المسرحية على خشبة المسرح بالموسكي ثم أصبح المسئول عن تدريس الرسم بمدرسة الفرسان بالجيزة.

- **مانديه داجير:** مخترع لآلة تصوير ومصور فرنسي قدم إلى مصر عام 1839 مع زميله خوراس فرنيه ونجح في التقاط أقدم صور فوتوغرافية لمشهد الحريم في قصر رأس التين وقد حاول جون جرين أن يحذو حذو زميله الفرنسي فنشر عام 1854 مجموعة من الصور بلغت المائة بعنوان «النيل وآثاره ومناظره» استطلاعات فوتوغرافية طبعت، ثم نشر ما كتبه في عام 1855 عن حفائر طبيعية ونصوص هيروغليفية ووثائق لم يسبق نشرها.

كما شهد ذلك القرن ظاهرة غريبة للرحالة حيث زارت الرحالات الأوربيات تلك البلاد، منهن:

- **إليزا فاي:** زارت مصر في أواخر القرن الثامن عشر مع زوجها المحامي البريطاني ونشر كتابها بعد وفاتها بعنوان «رسائل من الهند».

- **سوزان فولكان:** جاءت لمصر بصحبة جماعة السان سيمون عام 1834 وعملت مع كلوت بك في التمريض، ولكنها تركت البلاد هربًا من الطاعون في ذلك الوقت ونشرت مذكراتها.

- **الليدي سارة هوج:** جاءت من أمريكا في رحلة إلى الشرق مع زوجها رجل الأعمال، زارت مصر عام 1836، اهتمت بتسجيل انطباعاتها عنها ونشرت رحلتها في

جزأين في نيويورك عام 1840 بعنوان «رسائل من العالم القديم» وربما كان من أشهرهن صوفي بول شقيقة المستشرق البريطاني الشهير إدوارد وليم لين. قررت بعد وفاة والدتها أن تصحب أخاها وزوجته وأبناءها لزيارة مصر. عاشت فيها سبع سنوات زارت خلالها حريم محمد علي، كما حصلت على معلومات وافرة عن الحياة الأسرية في المجتمعات الشرقية، نشرت رسائلها: امرأة إنجليزية من مصر (1844 - 1846) وترجع أهمية رسائلها إلى أنها أظهرت تعاطفًا مع نساء مصر، كما اتسمت رؤيتها بالموضوعية. وقد ساعدت صوفي شقيقها إدوارد لين في تدوين ملاحظاته عن مصر، كما شجعها هو بدوره كي تخوض تجربة الكتابة ووضع تحت تصرفها مجموعة ضخمة من مذكراته التي سمح لها بالاقتباس منها، ولقي مؤلَّفها قبولًا كبيرًا في لندن.

- **الكونتيسة دي جاسباران:** زارت مصر عام 1848 واستقبلها محمد علي وكانت تعادي تجارة الرقيق، وقد لجأت الكثيرات منهن للتخفي في صورة رجل ليمنحن أنفسهن فائضًا من الحرية ليتجولن في تلك البلاد دون أن يعترضهن أحد.
- **إميليا إدوارد:** وكتابها الشهير «ألف ميل صعودًا إلى النيل».

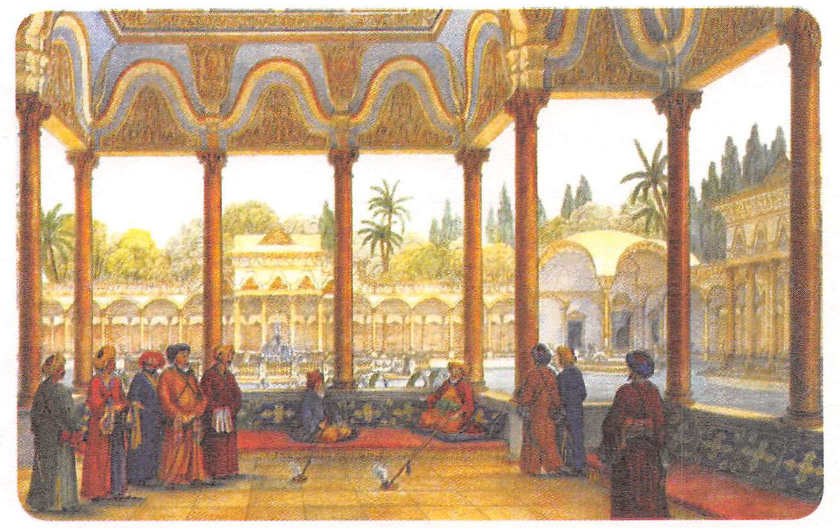
الفصل الثالث

مـا بيـن الحقيقـة والخيـال

هذا العدد الكبير من الأدباء والرسامين الذين زاروا الشرق في تلك الفترة الزمنية، وهذا الكم الكبير الذي أخلفوه وراءهم من أعمال خلدت تلك الفترة الزمنية المارقة، نجد منهم الكثيرين الذين جنح بهم خيالهم بعيدًا عن الواقع إلا أن تلك المؤلفات لأشهر كتاب وأدباء أوربا تعتبر مواثيق لا يمكن تزييفها وبمثابة مرآة حقيقية لإظهار الصورة بدون رتوش أو تضليل، فالأديب بوجه عام يراعي إظهار الحقائق في شكلها الصحيح، هذا في حالة وصفه للحياة في الشرق في ذلك الوقت أما عن أفكاره الخاصة ومزاجه العام فهي نظرة خاصة به لا يمكن قياسها على مدى واسع، فالبعض منهم له نظرة تشاؤمية يغلب عليها النقد اللاذع لعادات وتقاليد بائدة وجهل ومرض، إلا أنه في تسجيله لذلك لم يبخس حق إيجابيات ما يراه كشاهد عيان يكتب كل ما يراه وما على القارئ إلا أن يتفهم ذلك، فلم يعد الشرق بالنسبة لهم هو الدهشة والانبهار بل تعدى تلك المرحلة لأخرى أكثر جدية؛ إنها محاولة اكتشاف جديد للشرق القديم.

عندما زار الأديب الفرنسي جوتيه قصر الباشا محمد علي لم يجد هناك سوى رجل متواضع بملابس لا تختلف كثيرًا عن ملابس حاشيته يضع في رواق قصره طاولة للبلياردو، فكان عليه أن يتأكد من أن عالم ألف ليلة وليلة الذي منَّى نفسه بالعيش فيه تخلى عن مبارزة السيف والآن يمارس حكامه لعبة البلياردو فلم يخب أمله كثيرًا بل وجد في أشياء أخرى كعادات وتقاليد تلك الشعوب ملاذًا آخر بنكهة خاصة لم يتذوقها من قبل، ويذكر أن كلمة السلطان بكل ما يحمله وقعها من ثراء وفخامة على الآذان فكانت تأتي زيارته على رأس

قائمة المستشرقين، ولتحقيق تلك الرغبة كانوا يحرصون على مراسم تحية يوم الجمعة لرؤية السلطان وكان فضول وليم مورتون الكاتب البريطاني على أشده عندما وقف ليشاهد السلطان العثماني وهو ينتظره في هيبة عظيمة وبشكل كثيرًا ما قرأ عنه أو لمحه في لوحة فنية، وكتب في ذلك يقول: «شاهدت مرور السلطان في عربة متواضعة تتقدم من الطريق الهابط إلى الميناء كان عليه معطف مزرر حتى العنق، والأتراك يلبسون هذا النوع من المعاطف، والأمر الوحيد الذي يميز السلطان في لباسه هو النيشان الإمبراطوري وطربوشه».



(قصر شبرا - باسكال كوست) (Shubra pavilion by Pascal Coste) ▲

وقد أدى تنوع المؤلفات التي كتب معظمها في شكل مذكرات إلى الحيادية وإظهار الصور في شكل طبيعي غير مفتعل وغير مفترى عليه، أمام تلك الشفافية في الكتب التي ألفت في ذلك السياق لم يجد الفنان إلا أن يكون محايدًا بطبعه يرسم ما تراه عيناه، وربما يضيف إليه بعضًا من الخيال غير المغالى فيه؛ لأن جمهور تلك اللوحات ما هو إلا عاشق لعالم الشرق، وككل عاشق يسترق السمع لأخبار محبوبه فنراه يسعى جاهدًا للحصول على أحدث إصدارات الكتب التي خرجت في ذلك المضمار، وبالتبعية تقوده قدماه للمعارض التي تعلق على جدرانها لوحات شرقية، وهناك بإمكانه ببساطة أن يعقد مقارنة بين ما قرأه وما يراه أمامه وليس من السهل وقتها خداعه بلوحات ليس لها علاقة بذلك العالم

الذي قرأ عنه وحفظه عن ظهر قلب كشطحات بعض الفنانين سابقًا عند رسمهم «أبو الهول» على هيئة وحش كاسر، وتبلورت تلك الهيئة في أذهان الكثيرين فما إن تنطق كلمة «أبو الهول» حتى تتبادر إلى الأذهان صورة ذلك الوحش، حتى الحملة الفرنسية على مصر وكتاب «وصف مصر» الذي ضم عددًا كبيرًا من اللوحات للآثار المصرية بدون خداع أو تضليل، وفي كل الأحوال ليس من الجائز أن تحلل لوحات المستشرقين بشكل عام وافر؛ لاختلاف مدارسهم الفنية المندرجين منها واختلاف طريقة كل منهم في الرسم وفي الرؤى الخاصة بهم، واختلاف بيئاتهم واتجاهاتهم الدينية والفكرية، ولكن السمة العامة التي تميز تلك اللوحات هي الفرشاة العميقة الثابتة والألوان الغامقة الثقيلة الحارة كالذهبي لون الثراء ولون الصحراء الذي استعمله كثيرٌ من الفنانين لإخراج لوحاتهم بشكل ثري وجميل؛ فنجده استعمل بكثرة في زركشة الملابس والديكورات المصاحبة للوحة كالنقوش في الستائر والسجاد ثم يأتي البني المحروق وصولًا للأسود، وقد استخدم الفنان الألوان الفاتحة بحياء شديد لكي يظهر روح اللوحة فمزج فيما بينها دون أن يشعر المشاهد بتنافر كبير، كذلك لجأ الفنانون إلى تسليط الضوء الشديد على لوحاتهم حتى وإن كانت ليلًا، فهذا العالم الخفي أخيرًا كان له أن يسلط الضوء عليه وإن كان في مجرد لوحة تعلق على حائط، بالإضافة طبعًا إلى الاهتمام بأدق التفاصيل، فرأينا بوضوح موضة تلك العصور من الملابس كانت تُفَصَّل من طبقات فوق طبقات مع الإكثار من الحلي المكمل لها والديكورات العربية الإسلامية في المباني والبيوت التي رسمت بمنتهى الدقة في التصميم ومن المذهل أنه حتى الآن عند مضاهاة بعض اللوحات كلوحة «عطفة الحمام» و«بوابة المتولي» بتلك الأماكن في وقتنا هذا - نجدها وكأنها هي كما رسمها الفنان منذ حوالي مائتين من الأعوام، ولم يتجاهل الفنان النقوش على الجدران والأبواب التي نقشت بخط كوفي جميل لأسماء الله الحسنى وآيات قرآنية، كذلك فن الأرابيسك والمشربيات، كل تلك المشاهد رسمها الفنانون بأدق تفاصيلها فلم يكن من غير اللائق بعد ذلك ألا تمتلئ بالإضاءة القوية التي تبعث على البهجة والفرح، فليس هنا من مجال لغموض في توزيع الألوان فالألوان ساطعة بما يليق بلوحة جميلة رُسمت لعالم أجمل.

لذلك وجدت كل تلك اللوحات وكأنها رُسمت بريشة فنان واحد، حتى إن البصمة

الخاصة بكل فنان والتي من السهل تعرُّفها والتكهن بها فُقِدَتْ وسط هذا الكم من اللوحات التي تشابهت في ضرب الفرشاة وتوزيع الألوان والإضاءة عندما تخلى الفنان عما يميزه وشرع في رسم لوحات حرص على أن يبهر بها مشاهده الأوربي، فتخلى عن التأمل والغموض ووضعك وجهًا لوجه أمام صخب وحياة.

تلك الوفرة في اللوحات عن الشرق تؤكد لنا أنه بالرغم من الرؤية الخاصة لكل منها، وانجذاب بعضها للمكان، والبعض الآخر لعادات وتقاليد فإنه كان بحوزة كل منهم في النهاية مجموعة متكاملة ومتنوعة عن الحياة في الشرق، وفي بعض الأحيان لم يكتف الفنانون بالرسم فقط، فهناك أشياء لا تستطيع أن تصفها الفرشاة فلجئوا لحشد الأوراق بكلمات عن رحلاتهم للشرق كما فعل في وقت سابق بعض من الأدباء، ومن المعروف أن الحركة الأدبية الاستشراقية سبقت الحركة التشكيلية بأعوام من الزمان، فعندما وصف هؤلاء الأدباء المناظر الطبيعية لتلك البلدان أظهروا جمال البوسفور ونهر النيل والصحراء الشاسعة والبساتين العامرة، فانهالت مئات اللوحات ترسم وتؤيد جمال تلك المشاهد وعندما كتبوا عن العادات والتقاليد والممارسات اليومية لهؤلاء الشعوب وجدنا كثيرًا من اللوحات تصف تلك المشاهد، كذلك أفاض الفنانون في مشاعر الاشتياق للمكان على لوحاتهم لذلك كتب جوتيه في تحليله للوحات ماريلا يقول: «في لوحاته وجدت وطني الحقيقي وشعرت بالحنين إليه كلما أدرت وجهي للناحية الأخرى» أليس في تلك المقولة أكبر الأثر في تأثير تلك اللوحات على مشاهديها؟ ومن جهة أخرى وجه كثير من النقاد والجمهور من العالم العربي النقد والاتهامات لهؤلاء الأدباء والفنانين على خروج أعمالهم بشكل مبالغ فيه لإظهار العالم الشرقي عالمًا مليئًا بالجهل والفقر والترف والخلاعة ولكن ما إن نلقي نظرة إلى الوراء ونبحث في الأوراق القديمة حتى نجد أن كل ما أثار الغضب هو حقيقة أظهرها الفنانون بدون رتوش، وعلينا الاعتراف بها، فعلى سبيل المثال كانت مصر بعد حكم المماليك دولة تعمها الفوضى والجهل، فبرزت هذه المظاهر بشكل كبير في نهاية القرن الثامن عشر حتى إن محاولات نابليون بونابرت للقضاء على تلك المظاهر لاقت رفضًا ومعاندة من أهل البلاد، حتى خيل إليهم أن التطعيمات ضد الأمراض والأوبئة المستوطنة

آنذاك والتي أمرهم بها ما هي إلا سموم للتخلص منهم، كذلك عندما أمرهم بجمع القمامة من الشوارع وكنس ومسح الحواري والأزقة يوميًا وعدم دفن الموتى في البيوت ودفنهم في مقابر خاصة حتى لا تتفشى الأوبئة والأمراض - كل ذلك لاقى الرفض التام، وإذا اعتبرنا أنه كان في المقام الأول من تلك الاتهامات قبح الأزقة والشوارع، وإظهار الحيوانات الضالة تتريض في الطرقات وقد كان هذا شيئًا مألوفًا وطبيعيًا وقتها، فقد كانت القمامة تشغل حيزًا كبيرًا من القاهرة، بل إن ربع مساحتها كان عبارة عن مقابر وخرابات، وإن حديقة الأزبكية كانت في موسم الفيضان مزهرة جميلة وبعد أن تجف المياه تتحول إلى بركة موحلة بمياه راكدة تلقى فيها القمامة والقاذورات لينتشر البعوض والحيوانات، وذهبت جهود محمد علي هباءً في جعل السكان يحرصون على نظافة مدينتهم، ولم يفلح في ذلك إلا الخديوي إسماعيل بسبب التطوير العمراني الذي قام به في البلاد، وتلك اللوحات التي لا تتعدى نسبتها الـ 1 ٪ كان هناك المئات من المشاهد جميلة وثرية، ومن أكثر التهم التي وجهت لهم كانت فيما يخص النساء في الشرق وتلك المشاهد من العري التي خرجت بها المرأة في بعض اللوحات، ولكن إذا نظرنا إلى تلك النوعية من النساء التي أظهرها الفنانون في لوحاتهم فسنجد أنها لمن كن يمارسن مهنًا تتيح لهن ارتداء تلك الملابس كممارسة الرقص أو الدعارة أو بعض من الجواري اللاتي قد أطلق سراحهن ولم يكففن عن أن يعِثْن في الأرض فسادًا.





▲ (The Almeh with Pipe by Jean-Leon Gerome. 1873)

(العالمة والغليون - جان ليون جيروم)



(orienta woman and her daughter by Narcisse Virgilio Diaz de la Peña)

(امرأة وابنتها في الزي الشرقي - نارسيس)

وتلك الفئة كانت تشكل عددًا كبيرًا وقتها وعندما ضاق الأهالي بهم طلبوا من محمد علي باشا استبعادهم لجنوب البلاد وتعهدوا بأنهم سوف يدفعون الضرائب نيابة عنهم، فلوحة «العالمة» و«العالمة مع غليون» تظهر فيها العالمة وهي تدخن الأرجيلة، وتلبس ما يشف من الملابس التي تناسب طبيعة أعمالها، ولوحة «سالومي» وكلنا نعرف أسطورة سالومي المرأة التي طلبت من عمها تقديم رأس يوحنا المعمدان على طبق من الفضة نظير تقديم رقصة له، وخرافة الأسطورة تتيح للفنان فرصة خروجها بذلك الشكل، وفي الوقت نفسه لم يخل كتاب لمستشرق من وصفه ارتداء نساء الشرق لتلك التلال من الملابس وعدم الظهور كاشفات الوجه، وأغلب اللوحات أخرجت لنا صورة المرأة الشرقية العادية وهي تسير في الشارع مختفية تحت تلال من الملابس، ولا تظهر وجهها كاللوحة الأجمل «امرأة شرقية وابنتها ترتديان الزي الشرقي الملائم لعادات وتقاليد البلاد».

وكان القسط الأكبر من الاتهامات من نصيب الفنان الاستشراقي الأكثر شهرة ليون جيروم عندما رسم الحمامات الشعبية بكل ما يدور بها من أجساد عارية، وتدخين نرجيلة

وشرب القهوة وبالرجوع إلى وصف تلك الحمامات من ديكورات وكل ما يحدث بها في كتب المؤرخين - يمكننا أن نؤكد أن ما رسم في تلك اللوحات حقيقة لا يمكن البت فيها؛ ربما ذلك العري في اللوحات أثار حفيظة وغيرة الشرقي فأخذ ينتقد أعمال هؤلاء الفنانين دون أن يعلم أن الفنان أخرج الحقيقة، وأيضًا من حقه الاحتفاظ بجنوح خياله وإلا لما خرج علينا جيروم وهو الفنان نفسه الذي أثارت لوحاته الكثير من الكراهية للفنانين المستشرقين بلوحات عن المساجد في مصر كلوحة «المؤذن ينادي للصلاة» و«في باحة مسجد» و«السجود» بكل ما تحمله معها تلك اللوحات من خشوع وتجلٍّ، وربما كان للوحات الحريم النصيب الأكبر من تلك اللوحات التي ثار حولها النقد والاتهامات لعدة أسباب، أهمها أن ذلك العالم الخفي أثار خيال كثير من الفنانين لعدم رؤيتهم إياه وهو ما جعل البعض يجنح بخياله، ولكن حتى في ذلك الجنوح ما هو أخلع مشهد تم رسمه رأيناه، فعادة تمثل تلك اللوحات مجموعة من الجواري يجلسن في شكل شبه دائري بثياب خفيفة حول مسبح أو يلتففن حول السلطان أو الباشا أو الذي يمتلكهن ويقمن بعرض مواهبهن في الرقص والغناء.



▲ (The Pasha and his Harem by Francis Gabriel Lepaulle)

(الباشا وحريمه ـ فرانسيس غبرائيل ليبول)

أليس ذلك عالم الجواري وحقيقة كل ما يحدث فيه؟ وربما لم تكن تلك اللوحات على جنوحها تماثل الحقيقة من فسوق ومجون، وقد أفردت ذلك العالم الغرائبي بوصف دقيق الأميرة جويدان هانم زوجة الخديوي عباس حلمي في مذكراتها، فقد عاشرت ذلك العالم عن قرب، السبب الثاني أن عالم الحريم هو الذي تتمحور حوله أكثر قصص ألف ليلة وليلة التي كانت مثار الأحاديث المتداولة في المجتمعات الأوربية؛ لذلك أجزل الفنان الجهد لتلك اللوحات حتى يخرجها في شكل يثير لب جمهوره الذي ينتظر لوحاته هناك على شوق، حتى العرقية والانحيازية لم يسلم منهما المستشرقون عندما اتهمهم البعض بأنهم أظهروا الجارية البيضاء تجلس باستعلاء وتقوم على خدمتها الجارية السوداء وربما إذا علمنا أن سعر الجواري البيضاوات ضعف الجواري السوداوات وتوكل الأعمال الخفيفة للجواري البيضاوات كتقديم القهوة أو إعداد مائدة الطعام، بينما السوداوات كن يقمن بالأعمال الشاقة حتى إن محمد علي أمر بعمل الجواري السوداوات في مصانع النسيج ومستشفى الولادة، وإن كانت تلك اللوحات فيها شيء من المغالاة فإن علينا الاعتراف بأن ذلك هو عالمنا الحقيقي شئنا أم أبينا، ونحن هنا لسنا بصدد الدفاع عن أحد وفي صفحات الكتاب سنقرأ وصفًا دقيقًا لكتَّاب ومؤرخين عن كافة أشكال الحياة في القرن التاسع عشر، ونضاهيه بلوحة استشراقية وسنجد وقتها إلى أي مدى كان التشابه.

الفصل الرابع

الحملة الفرنسية على مصر والعمل الاستشراقي الأكبر وصف مصر

«لم يحدث إطلاقًا لجيش ذاهب لغزو بلد أن يأخذ معه دائرة معارف حية»..

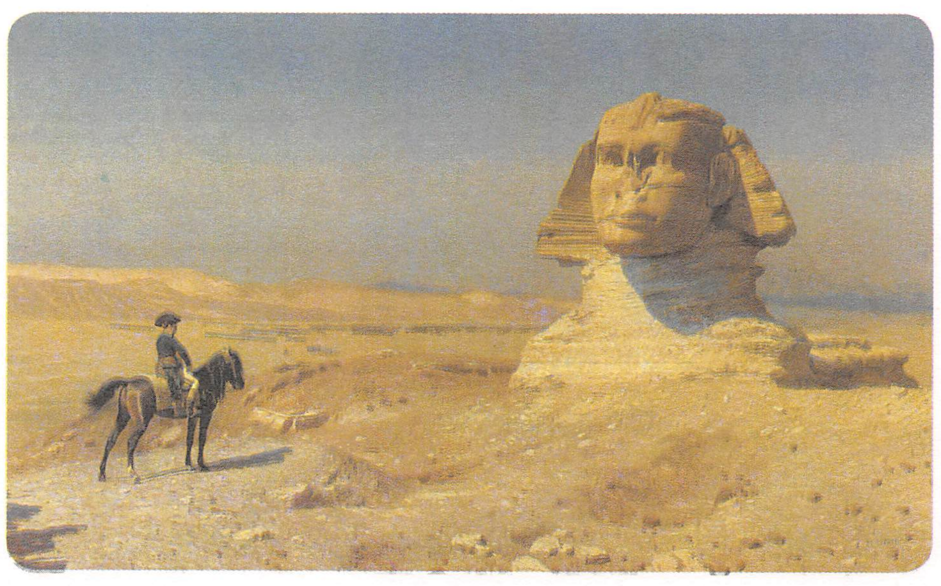
فرانسوا شارل

مما لا شك فيه أن دور الحملة الفرنسية على مصر كان له أكبر الأثر في توافد مجموعة كبيرة من عباقرة المستشرقين عليها عندما أعلن نابليون حملته على مصر 1798 وأخذ يعد العدة معه وضم معه أكثر من 900 عالم بشتى النواحي والمجالات العلمية المختلفة، وإن كان في رأس نابليون فكرة أخرى بالإضافة لاحتلال البلاد، ألا وهي إعادة اكتشاف ذلك البلد اكتشافًا علميًّا من مختلف الميادين، وعندما فشلت حملة نابليون رفض أن يخرج من مصر خالي الوفاض فأمر علماءه بالبدء فورًا في العمل والاكتشافات العلمية.

نابليون الذي حضر إلى مصر يحمل معه ماكينة طباعة؛ ذلك الاختراع الذي لم تكن عرفته مصر وقتها، ولا أحد ينكر الدور الذي لعبته تلك الماكينة للطباعة في انتشار الثقافة والمعرفة فيما بعد ذلك، جلب نابليون ماكينة الطباعة لمصر ليقينه بدور الطباعة الدعائية لنجاح حملته الاستعمارية، فحمل معه الماكينة التي تطبع جريدة «كوربيه ديلجنت» التي سوف تنقل أخبار الحملة لجنده وأهل باريس، وماكينة لجريدة «لاديكاد إيجيبسيان» التي

كانت بمثابة سجل يحتوي على أخبار الحملة واكتشافاتها العلمية، كما حمل معه مطبعة عربية لحملته الدعائية ومنشوراته في مصر، ثم قام بإنشاء مطبعة بميدان الأزبكية وقام علماء الحملة بصناعة الورق من القطن ولحاء النخيل والحبر، وتضاربت الأقوال فيما بعد في أمر تلك المطبعة؛ فهناك قول يؤكد أن بونابرت تركها في مصر وجددها محمد علي، وقول آخر يقول إنها أغلقت وانتقلت كل الماكينات والآلات مع الحملة المغادرة عبر البحار لفرنسا.

وكانت صحيفة «لوكوربيه» تصدر بصفة دورية بإشراف فرنسي لجنود الحملة حتى تخفف من غربة ووحشة الجنود، وقد أفردت عمودًا بها لأخبار «المجمع العلمي المصري» ثم أنشئت صحيفة خصيصًا له تحمل اسم «صحيفة الآداب والاقتصاد السياسي» وقد جمعت أعداد تلك الصحف في ثلاثة مجلدات وهي تحتوي على معلومات مهمة والبيانات التي جمعوها، وربما نعلم جيدًا الحملة الفرنسية على مصر، ولكن ما الشرارة الأولى لانطلاق تلك المحيطة بالاحتلال؟



▲ (Napoleon standing in front of the Sphinx by Jean Leon Gerome French)

(نابليون يقف أمام تمثال أبو الهول - جان ليون جيروم)

سبقت تلك الحملة بعدة سنوات جالية فرنسية صغيرة كانت تعيش في منازل متلاصقة بجوار حديقة الأزبكية ويغلق ليلًا بابها الخشبي عليهم بالترابيس، ويسمى حي الإفرنج وكذلك في مدينة الإسكندرية كان أفراد تلك الجالية يعيشون في منازل شبيهة بتلك في حي يسمى «الوكالة» وتغلق أبوابها الخشبية ليلًا، ويمارسون مهنة التجارة وكانوا يعرفون بتلك الطاقية السوداء المزينة بعمامة خفيفة من الحرير.

وقد زاد التبادل التجاري بين سكان مصر وفرنسا؛ فقد أحب الفرنسيون البن العربي والأرز والبخور والعاج وريش النعام وجميع المنحوتات الفرعونية المقلدة وورق البردي، في حين يحصل المصريون على جوخ إقليم لانجدوك وحرير ليون ومنسوجات بروفانس، ومنذ منتصف القرن السادس عشر وقع الفرنسيون تحت إغراء كل ما هو فرعوني فكان قبو السفن مخبأً للتماثيل والمنحوتات الفرعونية التي تباع هناك بأسعار خيالية، ويحتشد الجميع لرؤيتها في المتاجر وانتشر مسحوق يسمى المومياء وكان يباع في الصيدليات وعند العطار وهو عبارة عن الفائض من حرق مومياء، وهو الجسد الفرعوني المحفوظ منذ آلاف السنين ومحنط بمواد تمنعه من التحلل وتحفظه في هيئته الأولى، ذاع صيت هذا الدواء على أنه يشفي الكثير من الأمراض.

وفي عام 1735 كتب بينوا دي مانييه كتاب «وصف مصر» وأبرز فيه المعمار الإسلامي والفرعوني وشئون البلاد كافة، وقد سبق هذا الكتاب مجلدات «وصف مصر» التي ألفت بعده بما يزيد على ربع القرن، وتوالى طبع نسخ عديدة منه حتى قيل: «إن نهر النيل أصبح مألوفًا لدى العديد من الناس أكثر من نهر السين» وقبل حلول الثورة الفرنسية صدر كتابان عن مصر كل منهما أكثر تناقضًا من الآخر أحدهما لفوليني وعنوانه «الرحلة من مصر لسوريا»، والآخر لسافاري وعنوانه «خطابات من مصر» وقد أثرت في المثقفين والسياسيين الفرنسيين في ذلك الوقت بشكل كبير، وكتب سافاري الذي ذهب إلى مصر عام 1777 حتى 1779 ويجيد اللغة العربية وقد ترجم القرآن الكريم وألف كتابًا عن سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - كتب في أحد كتبه يقول: «الدلتا هذه الحديقة الشاسعة حيث لا تكل الأرض إطلاقًا من الإنتاج وتقوم طوال العام بتقديم محاصيل

الخضراوات والفواكه وفي شمال المدينة نجد أشجار الليمون والبرتقال والزهور تنمو في الحدائق اعتباطًا» وقد وزع هذا الكتاب على جنود حملة نابليون وهم بعرض البحر ليزيد من حماسهم لتلك البلاد البعيدة، بينما كتب فولينيو يقول: «إن تلك البلاد مجردة من أسطول بحري ومن مصانع، فيمكنك أن تتصور يا سيدي كيف ستكون أحوالها حين تصبح بين أيدٍ مستنيرة حينما يصبح هذا البلد الجميل بين يد مُحبة للفنون» إنه دعوة لاحتلال تلك البلاد بذريعة إعادة تشكيلها من جديد، وقد تدهورت حال الجالية الفرنسية في عهد المملوك علي بك 1768 بعدما استولى على السلطة وعامل تلك الجالية الفرنسية أسوأ ما يكون بفرض إتاوات وجزية عليهم، ووصل به الحال إلى أن يطلب لنفسه ساعة مرصعة بالألماس، ومرة أخرى طلب أقمشة كافية لكسوة جنوده وهو ما دفع الجالية الفرنسية بالقاهرة للرحيل إلى الإسكندرية حتى تركب أول باخرة مغادرة لبلادها في حالة تمادي العدوان عليها، وأدت الثورة الفرنسية لخلق نوع من الانقسام بين أفراد الجالية لاختلافهم في الرأي، كما سببت الفوضى العارمة التي عمَّت باريس إزاء الثورة المزيد من ابتزاز المماليك لهم ونعتهم بأنهم «ليس هناك من حاكم لهم»، وما كان من أمر تلك الجالية إلا أن بعثت التماسًا ولم يكن هذا الالتماس لإنقاذها من تلك المعاملة السيئة ولكن باقتراح فرض حصار بحري على مصر: فقد تحول التجار فجأة إلى خبراء في الخطط الحربية، وقاموا بتحديد عدد القطع الحربية ورسم الخطط المحبوكة لاحتلال ذلك البلد، أعقب ذلك الالتماس الذي لم يهتم به أحد التماس آخر أكثر صراحة ووضوحًا، وهو أن تحتل فرنسا مصر، مُوَقَّعٌ عليه من أفراد الجالية مؤكدين أن عدد ستة آلاف من المواطنين المصريين بإمكانهم طرد البكوات ولم يحصلوا أيضًا على أي رد، وأخيرًا كان في 14 فبراير 1798 تقرير من تاليران وزير العلاقات الخارجية رفعه إلى الحكومة يطلب منها احتلال مصر: «لقد اقتربت ساعة عقوبة المماليك على الإهانة والكرامة الوطنية التي أهينت» وقد كان عدد أفراد الجالية الفرنسية التي يتحدث عنها بأن كرامتها قد أهينت لا يتعدى المائة، وفي نهاية التقرير أفصح عن نواياه ومطامعه في أن تلك البلاد وافرة الثروات بموقعها الجغرافي الذي يجعل منها مركزًا للتجارة العالمية، وأنه بإمكان فرنسا استغلال مضيق السويس كما كان الأمر سابقًا.

ولكن، هل كان من الثورة الفرنسية التي تدعو إلى الحرية وقتها أن تستولي على بلد آخر وتحتله؟ فإن كان ذلك الاحتلال بنية انتشار الحضارة فلا بأس منه وفي تلك الحالة لا يسمى احتلالًا، وبهذه الذريعة استعد نابليون بونابرت بحملته لمصر وكان قد قرأ مسبقًا عدة كتب عن الشرق؛ منها كتاب «تاريخ العرب»، ثم كتاب سافاري وبعدها كتاب فوليني ولم يكتف بذلك بل التقى بهما وتناقش معهما في فكرة حملته على الشرق، وفي سرية تامة أعد العدة حتى إن الجنود الذين ركبوا السفن في 19 مايو 1798 أبحروا دون أن يعرفوا وجهتهم بعد، وبقوات عددها 54 ألفًا تجمعوا على متن 13 سفينة حربية كان من بينهم ما لا يقل عن 167 مدنيًا من العلماء في جميع التخصصات العلمية والفنية؛ من هندسة المناجم إلى الموسيقى وكان بينهم الأكبر سنًا والأكثر شهرة مثل جاسبار مونج عالم الرياضيات الذي وضع طريقة حديثة في الهندسة الوصفية، وكلود لوييه بيرتوليه عالم الكيمياء، وأستاذ علم الأجنة جيوفري سان هيلير، ومن ثم كتب فرانسوا شارل يقول: «لم يحدث إطلاقًا لجيش ذاهب لغزو بلد أن يأخذ معه دائرة معارف حية» وصل بونابرت للأراضي المصرية وألقى كلمته التي استهلها بقوله:

«بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه

من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية. السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته يعرف أهالي مصر جميعهم، أن من زمن مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية، ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي فحضر الآن ساعة عقوبتهم.. واحسرتاه! من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الإبازة والجراكسة يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر على كل شيء، فإنه قد قضى على انقضاء دولتهم: يا أيها المصريون، قد قيل لكم إنني ما زلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين وإنني أكثر من

المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى، وأحترم نبيه والقرآن العظيم،وقولوا أيضًا لهم إن جميع الناس متساوون عند الله، وإن الشيء الذي يفرقهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء حسن فيها من الجواري الحسان، والخيل العتاق، والمساكن المفرحة؟ فإن كانت الأرض المصرية التزامًا للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم».

وبخطابه الذي استهله نابليون بذكر الله وببعض الآيات القرآنية، ترى هل نجح نابليون في أن يحوز على حب الشعب المصري؟ وهل تلك الإجراءات التي شرع في اتخاذها كان قد قام بتنفيذها؟

وهل كان على هؤلاء المساكين أن يتفهموا تلك الإجراءات الصحية المختلفة؟ كالتطعيمات لوقف انتشار الأوبئة وجمع القمامة وكنس الشوارع ورشها بالماء وإنارتها ودفن الموتى في المقابر المخصصة لذلك بعدما كانوا يدفنوهم في البيوت التي يسكونها. ربما تقبل الشعب المصري تلك القوانين الجديدة التي شرعتها سياسة الحملة على مضض، ولكن كانت الطامة الكبرى عندما أمرهم نابليون بفتح البوابات الثقيلة التي يغلقون بها الأحياء ليلًا وعندما رفض الأهالي أمرت السلطات الفرنسية بكسرها وقام الأهالي بثورة القاهرة الأولى.



▲ (The Battle of aboukir by Antoine-Jean Gros. 1806)

(معركة أبو قير - أنطوان - جان جرو - 1806)

وبعدها كانت الكارثة الكبرى التي لم يغفرها التاريخ يومًا لتلك الحملة ولذلك الرجل وظلت لمدى عقود طويلة متربعة على عرش الذاكرة - وهي حادثة دخول الجنود مسجد الأزهر بخيولهم وأحذيتهم وإلقاء الكتب الدينية والقرآن الكريم على الأرض، وقد زال القناع الذي ارتداه نابليون عن وجهه وكشفت نواياه الحقيقية ووصلت كراهية المصريين له وللحملة الفرنسية إلى منتهاها بسبب تلك الأعمال القمعية التي قام بها حتى إنه في إحدى المرات صرح قائلًا: «كنا نقطع رءوس حوالي 30 شخصًا كل يوم»، وأخفق نابليون في حملته على الشرق وفشل في تكوين شرق أوسط جديد تحت الإمبراطورية الفرنسية بقيادة القائد الأعظم نابليون بونابرت، وقد أيقن ذلك عندما تحطم الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير على يد نلسون القائد الإنجليزي ولم يتبق من حطام السفن سوى سفينتين وأخيرًا عندما وجد حطام أسطوله يطفو على سطح البحر وتحمله الأمواج صرخ قائلًا: «لم يعد لدينا أسطول، إذن يجب أن نموت هنا أو نخرج عظماء مثل السابقين». وكان يقصد بذلك الاعتماد على ذكاء من نوع آخر؛ إنه ذكاء العلماء الذين كانوا قد شرعوا بالعمل وفقًا لثلاثة أهداف: أولًا ـ تقديم مساعدة عسكرية للبلاد، وثانيًا ـ اكتشاف أسرار البلاد وتقديمها للعالم وأخيرًا وكما قال جومار المهندس والجغرافي والأثري «نقل حضارة أوربا إلى شعب نصف متخلف ونصف متحضر» فهل ترانا وقتها كنا شعبًا نصف متحضر ونصف متخلف، نحن بناة الأهرامات التي سلبت لب العالم أجمع وعلى رأسهم فرنسا وشعبها وفنانوها، أم أن تلك الصراعات التي توالت على حكم مصر من حكام لم يرتجوا يومًا سوى ثواب الجلوس على كرسي العرش أدت لمزيد من الجهل والتخلف؟

وفور الشروع في العمل تم إنشاء معهد مصر تمامًا كمعهد فرنسا في بيتين للمماليك منهما بيت إبراهيم كتخدا السناري وظل المبنى مهملًا منذ انتهاء الحملة العلمية من أعمالها واكتشافاتها حتى أنشأ الدكتور والن قنصل بريطانيا في مصر الجمعية العلمية لتقوم بنفس الدور الذي كان يقوم به المجمع كما أسس الفنان والمؤرخ الفرنسي برايس دافين الجمعية الأدبية المصرية، ويتم إعادة تأسيس المجمع مرة أخرى بالإسكندرية في فترة حكم الخديوي سعيد باشا 6 مايو 1856 وتنضم له هاتان المؤسستان وقد ضم المجمع الجديد أغلبية أعضاء المجمع القديم، أهمهم جومار عضو لجنة الفنون وماريت بك عالم الآثار وكوليج

وماسبيرو ومحمود الفلكي الأخصائي في علم الفلك وعلي مشرَّفة عالم الرياضيات والدكتور علي باشا إبراهيم، ثم ينقل مقر المجمع مرة أخرى ليستقر في مبنى خاص به بالقاهرة، وقد دمر في حريق مؤخرًا وقضت النيران على أهم أبحاثه وكتبه ومنها العمل الاستشراقي الأكثر شهرة وأهمية كتاب «وصف مصر»، وخلال فترة الحملة الفرنسية كانت تسود أجواء العمل الحقيقية في ذلك المكان على قدم وساق حتى إنهم لم يمانعوا في استقبال بعض العلماء المصريين وإطلاعهم على تجاربهم واكتشافاتهم، وكتب الجبرتي الذي شهد تجربة علمية تجري في المجمع يقول: «ولهم فيها أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج غريبة لا تسعها عقول أمثالنا». إن كانت عقول العلماء مشغولة بالتجارب والاكتشافات فعقول القادة لا تفكر إلا في إرث الثروات بدون وجه حق، فكان عقل نابليون مشغولًا باحتلال مضيق السويس وهيمنة الجمهورية الفرنسية على البحر الأحمر، وفي إحدى الليالي الباردة وكانت ليلة عيد الميلاد 1798 ذهب بونابرت إلى السويس برفقة العديد من الجنرالات، على رأسهم ماري لوبير كبير مهندسي الطرق والجسور وعاين آثارًا كانت تربط النيل بالقناة منذ قرون عديدة وكتب بعد تلك الزيارة في مذكرات سان هيلين: «لقد خرج كافاريللي وهو أحد قواده من تلك الرحلة لمضيق السويس فاقدًا ساقه الخشبية».

على أية حال فقد كان يحدث ذلك له أسبوعيًا، فقد نابليون ثلث الجنود سواء في المعارك أو موتًا بمرض الطاعون الذي أصابهم بالرعب خصوصًا بعد موت كافاريللي مصابًا به، ورحل نابليون بعد أن مكث رجاله ثمانية وثلاثين شهرًا، وفقد فيها 13 ألفًا وخمسمائة وخمسين جنديًا كان العديد منهم ضحايا لمرض الطاعون في يافا. رحل نابليون قائلًا: «في مصر قضيت أجمل السنوات؛ ففي أوربا لا تجعلك الغيوم تفكر في المشاريع التي تغير التاريخ، أما في مصر فإن الذي يحكم بإمكانه أن يغير التاريخ»، فتراه قد أفلح في تغييره حقًا، ومن أكبر إنجازات الحملة كتاب «وصف مصر» الذي عمل على إخراجه الكثير من العلماء في شتى المجالات في 9 من المجلدات والكثير من الكتب الأخرى الأقل أهمية التي ألفها القادة والجنود ومن وقتها وقد أصبح الهوس العالمي وبخاصة فرنسا بكل ما هو مصري على أشده، وأصبحت الرحلة لتلك البلاد حلمًا يطمح إليه جميع فناني فرنسا على

الإطلاق؛ ذلك البلد الذي كان إلهامًا للفن والفنانين ومزارًا لجميع فناني العالم من مختلف بقاع الأرض ربما كانت تلك المشاهد التي رسمها الفنانون الذين اصطحبهم معه نابليون لتلك البلاد أشد واقعية وتأثيرًا في النفوس فقد قام ذلك الإنتاج الوفير بتغذية الخيال الفرنسي خاصة والأوربي عامة لعقود طويلة فلم يكن هناك داعٍ لزيارة الفنان تلك البلاد ليرسم عنها فأنطون جرو (1791-1824) كان الأكثر موهبةً بين هؤلاء الفنانين غير الرحالة، اشتهرت لوحاته التي رسمها بدون حتى أن يزور الشرق يومًا،بل كانت أقرب منها للحقيقة من لوحات كثير من الاستشراقيين فقد رسم لوحة «المصابون بالطاعون في يافا 1804» ولوحة «معركة أبو قير 1806» وهو لم يغادر بلاده يومًا.

أهم مصادر هذا الفصل:

1 - مصر ولع فرنسي، تأليف روبير سوليه.

2 - العجائب والآثار في التراجم والأخبار، الجبرتي.

3 - الحياة الاجتماعية في مصر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، د. سمير عمر إبراهيم.

الفصل الخامس

خفوت الشعلة الاستشراقية

تحدثنا مسبقًا عن بداية الاستشراق عندما شد الرحالة الأوربيون عزمهم السفر لبلاد الشرق الأوسط وكان ذلك منذ قديم الأزل بنية الرحلات الدينية للأراضي المقدسة بفلسطين ومصر، وبالرغم من صعوبة الرحلة والعوائق التي تقف في سبيلها فإنهم كانوا قد عقدوا عزمهم ومع مرور الوقت وبعد الحملة الفرنسية على مصر وانتشار ثقافة الاستشراق والتقدم في وسائل المواصلات البحرية لم تعد هناك أي موانع أمام هؤلاء المستشرقين لزيارة تلك البلاد والغوص في أسرارها حتى وصلت تلك الرحلات لذروتها منذ بداية القرن التاسع عشر لمنتصفه، ثم بدأت تقل تدريجيًا إلى أن ذهبت إلى التلاشي الأخير تمامًا مع حلول القرن العشرين؛ فلم تعد هناك حاجة لتلك الرحلات الاستشراقية.

فقد تخلى الشرق عن مظهره المغري لعيون وأذهان هؤلاء المستشرقين وانتشرت آلات التصوير الفوتوغرافي وأصبحت أكثر سهولة في الاستعمال وأخف حملًا. كما أقيمت المطابع في بلدان الشرق الأوسط وصدرت المجلات والجرائد مصورة تجوب أنحاء أوربا فخفت بريق اللوحات الفنية عندما أصبحت تلك البلدان البعيدة في متناول الجميع، ومع التطور الزمني والانفتاح الأوربي الذي اجتاح دول الشرق سواء عن طريق الحروب والاستعمار أو التبادل الثقافي؛ فإن رحلات المستشرقين العرب كان مرادفًا لها في بداية القرن الثامن عشر البعثات المصرية إلى أوربا تلك التي حرص والي مصر محمد علي عليها وبدأت عام 1813 وكانت أول بعثة تضم 28 طالبًا كان من بينهم رفاعة الطهطاوي كإمام للبعثة ومرشد ديني والذي اندهش من روعة تلك البلاد بكل ما تحمله من حضارة وفنون

وعادات وتقاليد بعيدة عنا، فنشر كتابه في ذلك بعنوان «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» وكانت آخر بعثة عام 1884، ويقدر عدد طلاب هذه البعثات بـ 319 طالبًا.

بجانب تلك البعثات كانت هناك المدرسة التي أقامها محمد علي بفرنسا وألحق بها مجموعة من الطلبة النابغين ووكل للدراسة لهم أكفأ المدرسين الأجانب وبهذه الطريقة انتشر الفكر الأوربي الحديث ونقل معهم هؤلاء الطلبة أزياء وعادات يومية لتلك الشعوب وجدت أنها أسهل وأكثر واقعية لمجاراة الأمور وأخذت في الانتشار رويدًا رويدًا حتى وصلت لذروتها في عهد الخديوي إسماعيل بمنتصف القرن التاسع عشر الذي أعاد تخطيط القاهرة ليجعل منها قطعة من باريس ونجح في ذلك، وتعد مقولته الشهيرة «لم تصبح بلادي الآن في الشرق لقد أصبحنا قطعة من أوربا» أكبر دليل على ذلك.

وبعدما تخلت القاهرة عن ردائها القديم واستسلمت لمصممي الأزياء الأجانب أن يحيكوا لها رداءها الجديد على أحدث موضات العالم في ذلك الوقت وبمظهرها الجديد الذي طال كل شيء حتى العادات والتقاليد لم تعد تغري الفنانين لتكلف عناء السفر للشرق ورسم تلك اللوحات بعدما أصبحت مصر قطعة من باريس، وعلى مدار المئة عام منذ بداية القرن التاسع عشر وإلى نهايته سنتحدث عن الاستشراق في فترة ولاية حكام أسرة الباشا محمد علي والي مصر الذي استهلها بتقلده الحكم عام 1805.

الباب الثاني

(العصر الذهبي للاستشراق)



الفصل الأول

«محمد علي باشا 1769-1848»

«ليست الوحشية الآسيوية مجردة من رجال شوامخ مثلما قد تعتقد حضارتنا ويجب التذكر أنها قد أنجبت العملاق الوحيد الذي يمكن لهذا القرن أن يقارنه ببونابرت هذا الرجل النابغة هو في الحقيقة تركي أو تتاري إنه محمد علي باشا الذي يمكن أن نقارنه بنابليون مثلما نقارن النمر بالأسد أو العقاب بالنسر»..

فيكتور هوجو

ذلك الجندي الألباني الذي ولد سنة 1769 بمدينة قولة اليونانية وقد كانت تابعة آنذاك للدولة العثمانية، وقبل أن يلتحق بالجيش كان يعمل بمحل للدخان ولم يخبئ تلك المعلومة يومًا بل كان يتباهى بذلك في الوقت الذي لم يذكر فيه يومًا عمره الحقيقي بل كان عكس الناس يضيف سنوات كثيرة لعمره، التحق بالأسطول العثماني البحري كضابط برتبة ملازم أول ثم أثبت كفاءته التي ساعدته للزواج ببنت حاكم قولة وينجب منها ولدين: إبراهيم الكبير وطوسون، وذهب للدفاع عن الأراضي المصرية من الاحتلال الفرنسي ثم تتحول الأراضي المصرية لصراع عثماني مملوكي ويتم تعيين محمد علي باشا واليًا على مصر «1805 - 1848»، ومنذ ذلك الحين وقد أخذ والي مصر الجديد في التخطيط لبناء مصر الحديثة بالرغم من كل التحديات التي واجهته من خصوم بالداخل والخارج والفوضى والجهل التي كانت تعم البلاد، فطن أنه للقضاء على كل ذلك عليه أن

يضع النواة الأساسية فقرر منذ البدء إنشاء جيش قوي لذلك كان يساق إليه جميع الشباب المصريين بدون النظر في أسباب أو التماسات عذرية، ولم تكن العقلية المصرية آنذاك تستوعب الحياة العسكرية لذا كان مجرد ذكر اسمها يثير الرعب في القلوب، ومع مرور الوقت ازدادت تلك العقول تشبثًا بكراهية العسكرية وخاصة أن عددًا كبيرًا من الشباب المجندين بعدما يشدون من القرى والنجوع ويساقون للتجنيد يذهبون في مهمات حربية طويلة لفتوحات محمد علي وحروبه التي لا تنتهي وفي أحيان كثيرة يغادرون بلا رجعة فلجأ بعض الشباب والرجال لإلحاق عاهات مستديمة بأنفسهم حتى يتسنى لهم عدم الالتحاق بالجيش والبعض الآخر يترك بيته وقريته هربًا من الالتحاق به حتى إنه كانت هناك بعض القرى خاوية تمامًا على عروشها بعد فرار الأسر بأكملها،ولكن كان قدرًا لا فرار منه، فأمر محمد علي ولأول مرة في مصر باستخراج أوراق رسمية لكل فرد يدرج فيها البيانات الخاصة به وبذلك كان من السهل ملاحقة الفارين، أما من قاموا بإلحاق عاهات مستديمة بأنفسهم فكان يلحقهم للعمل في المصانع الكثيرة التي عمل على إنشائها.



▲ (Consul Pasha by David Roberts 1839)

(اجتماع الباشا - دافيد روبرتس 1839)

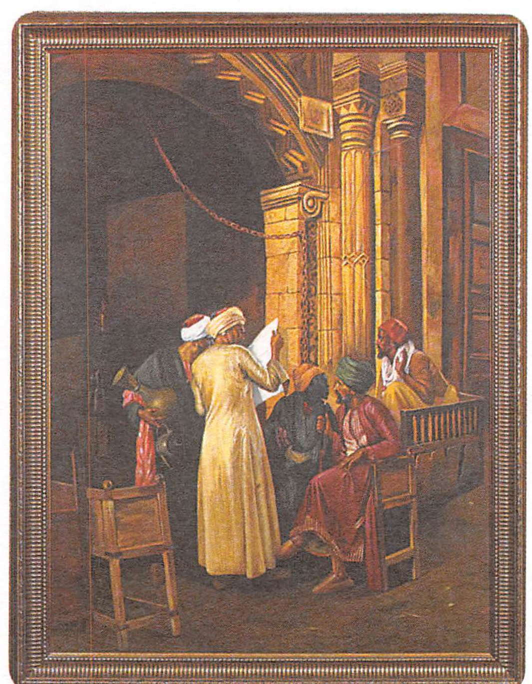
وليخطط محمد علي جهادية عسكرية كتلك الجيوش الأوربية الحديثة استعان بالأوربيين ليخططوا له جيشًا وطنيًا قويًا وسرعان ما تأكد من أنه ليس هناك من جيش قوي في بلد تنتشر به الأوبئة والأمراض فاستعان بجهود كلوت بك الفرنسي في تجهيز أول مستشفى في مصر لخدمة الجنود أولًا والشعب ثانيًا، ثم أنشأ مصانع للبارود والذخيرة لتسد حاجة الجيش، كما كان هؤلاء الجنود بحاجة لملابس وأحذية خاصة فافتتحت مصانع النسيج وورش الأحذية وتوالت المصانع تفتح تباعًا تمشيًا مع النظم الحديثة في تخطيط ذلك الوطن الجديد، وكان عمال هذه المصانع عادة من الفلاحين، كما أمر محمد علي بجمع المتسولين والشحاذين والشباب من القاهرة وضواحيها والمشوهين الذين أصيبوا بعاهات مستديمة في الحروب، واستعان بعدد كبير من النساء والعبيد السود في مصانع غزل القطن.

هذا وكان العاملون يتدربون لمدة ساعتين يوميًا على أيدي الخبراء الأوربيين في الوقت نفسه الذي يبعث فيه بعثات تعليمية لتعلم الصناعات في الخارج، اهتم محمد علي بأمن البلاد الذي كان في حالة يرثى لها عند توليه الحكم وحولها للبلد الأكثر أمانًا في العالم وأكد ذلك الرحالة الإنجليزي مادن عند زيارته لمصر قائلًا: «إنه لا يعرف بلدًا في أوربا يكون فيه المسافر أكثر أمانًا منه في مصر» ولا شك أن محمد علي هو صاحب ذلك التأثير إذ كان يصب جام غضبه على من تسول له نفسه بإشاعة عدم الأمان والخروج عن القانون، وقد علق قنصل إنجلترا في مصر 1813 على حالة الأمن قائلًا: «أخيرًا وقد حدثت حالة للطمأنينة على النفس والمال لأول مرة ومنذ أجيال عديدة وذلك لاتباعه دروب الشدة وإعدام كثير من الأشرار وتعليق جثثهم على جدران بوابة زويلة التي كان ينفذ في ساحتها عمليات الشنق العلني في أغلب الأحيان».

ويصف الجبرتي حالة الأمن قائلًا: «إن الوالي وأغا التبديل وكتخدا بك يطوفون ليلًا بالمدينة وكل من صادفوه اعتقلوه وحبسوه ويرجع الفضل في استقرار البلاد إلى جهود والي مصر محمد علي» وقد اهتم محمد علي بالشرطة وأقام عدة «قوقولات» أهمها وأكبرها في شارع الموسكي وكان ديوان القلعة «ديوان الخديوي» يشرف على الأمن في القاهرة

وفي كل منها ضابط مهمته الاستماع إلى شكوى السرقات وحوادث الاعتداء وكان من عمل الضابط الفحص على الموازيين والمكاييل. وذكر كمبل 1840 «أن الشرطة تتألف من بضع مئات من الأتـراك وأبناء العرب تسمى جاويش وهم مسلحون بسياط «كرابيج» مصنوعة من جلد أفراس البحر» وكان رجال الشرطة يتميزون بشارات متنوعة، كل حسب رتبته، ويشرف عليهم كتخدا وهو وكيل الباشا وقد أكثر الباشا من انتشار العسس خاصة في الليل كما عمل على استخدام البصاصين الذين كانوا يندسون بين الناس لمراقبة من يشك في سلوكهم، ومنع محمد علي حمل الأسلحة إلا لغير العاملين بالشرطة وكان كل شخص يسير ليلًا يكلف بحمل كشاف وإن لم يفعل يتعرض بالضرب ويصيح العسس «وحدوا الله» فيرد المارة «لا إله إلا الله» ولا يستثنى اليهود أو الأوربيون من تلك الحيلة.

ثم اتجه محمد علي إلى التطوير العمراني فأقام القصور والحدائق فقصره بشبرا لم يدع قطُّ خيال فنان أو أديب إلا وقد تحرش به لمغازلته لوصفه ورسمه وأمر ببناء حديقة الأزبكية فمن حق هذا الشعب التنزه أيضًا كما قام بتوسعات في الزراعة والتجارة وكان في كل المشروعات يلجأ لخبرات أوروبية لذلك توافد الأجانب لمصر، من بينهم الكثير من المستشرقين أتوا لمهام علمية وكان والي مصر يحسن استقبالهم بنفسه ويشجعهم على عملهم،



▲ (Gathering with the morning news by Ludwig Deutsh)
(مناقشة حول أخبار الصباح - لودفيغ دويتش)

وقد لاقى الأقباط في عصره معاملة حسنة فلم يكن يفرق بين مسيحي ومسلم كحكام المماليك من قبله فأخيرًا لم يكن على القبطي أو الأجنبي أن ينزل من على ظهر حمارته إن مر من أمام مسجد كما أنه كان يعاقب من يتعدى بالقول وينعت أي قبطي بكافر بل هو نفسه استعان بخدمات باغوص باشا القبطي الأرمني وبعد موته عين ابن أخته ذلك الفتى القبطي الأرمني آنذاك نوبار باشا الذي جاء من استنبول قبل وفاة خاله بعدة أشهر، وبعدها بالكثير من السنوات أشاد نوبار باشا بفترة حكم محمد علي في مذكراته التي تحدث بها عن مهامه في تولي الشئون السياسية للبلاد من حكم محمد علي إلى حفيده إسماعيل باشا. أقام محمد علي مدرسة المهندسخانة ومدرسة القصر العيني ومدرسة الألسن والعديد من المدارس التعليمية والحربية وأجبر الأهالي على تعليم أولادهم وكان التعليم مجانيًا بالإضافة لحصول هؤلاء الطلبة على راتب آخِرَ كل شهر، واهتم بنشر أخبار الأعمال التي يقوم بها فاتجه لإنشاء الجرائد وكانت أول جريدة مصرية هي جريدة «جرنال الخديوي» 1813 ويذكر أحد موظفي مطبعة بولاق التي كانت تطبع الجريدة أنه كان يقوم بطباعتها كل مرة مائة نسخة باللغتين العربية والتركية متضمنة أحوال البلاد السياسية والاقتصادية وقصص ونوادر ألف ليلة وليلة وفي 1828 صدر أول عدد من جريدة الوقائع المصرية وهي جريدة شاملة سياسية واقتصادية واجتماعية يذكر أن العاملين بها كانوا يطوفون أرجاء البلاد للحصول على أهم وأحدث الأخبار وكانت الجريدة توزع إجباريًا على الموظفين المصريين والأجانب الذين لا تقل رواتبهم عن 1000 قرش مقابل رسم اشتراك شهري قيمته 77 بارة وكذلك كان يتم توزيعها على طلبة المدارس والمشايخ والعلماء والقناصل ووصل الحد أنها وزعت على طلبة المدرسة المصرية بفرنسا، كما استعان محمد علي بعلماء أجانب لتخطيط مصر الحديثة ففتح الأبواب على مصراعيها لدخول المستشرقين وأصبح هؤلاء الرحالة يطوفون البلاد بدون أوراق رسمية أو تأشيرات، ويعتبر عصر محمد علي عصر الانفتاح على الحضارة الحديثة بعد عقود طويلة عاشتها مصر في الظلام.

كان محمد علي باشا يلفت النظر بذقنه البيضاء وعمامته الملتفة طبقات فوق رأسه وكان يمشي عاقدًا ذراعيه خلف ظهره وبخطوة عسكرية رزينة تشبه كثيرًا خطوة بونابرت..

له عينان ضيقتان تخبئان ذكاءً حادًّا وملامح يكسوها الحزن على وفاة أولاده، يجيد لعب الشطرنج والبلياردو وقد بدأ في تعلم القراءة والكتابة وهو في الخامسة والأربعين من عمره ويذكر أن التي قامت بذلك جارية من جواريه تجيد العربية تحدثًا وكتابة، وبهيئته تلك أثار الرعب تارة والفضول تارة أخرى في أعين المستشرقين فرسمه وكتب عنه الكثيرون منهم وهناك حادثة شائعة تداولتها الأوساط الفنية عن هذا الرجل لم تتأكد بعد مدى صحتها من كذبها وهي موت أحد الفنانين بالسكتة القلبية أثناء رسمه للباشا إحدى اللوحات على أثر صوت كان يصدر منه في حالة غضبه، صوت يشبه كثيرًا زئير الأسد فلم يتمالك الفنان نفسه وخر صريعًا، ومن الحوادث الطريفة عن هذا الرجل أنه وفور اختراع التصوير الفوتوغرافي سافر إلى مصر الرسامان فيرنيه وجوبيل مزودين بجهاز داجير ووقفا ذات يوم أمام قصر رأس التين ويحكي فيروي فسيكيه «ذهبنا للقصر في السابعة صباحًا بموكب من العربات كان كل شيء معدًّا مسبقًا ولا يتبقى سوى وضع الكليشية في الغرفة المظلمة وإظهار الصورة في الزئبق كان والي مصر تظهر عليه علامات القلق والانبهار كانت حدقة عينيه تدوران بسرعة رهيبة وأخيرًا صدر صوت كبريتة كيمائية بوميضها الفضي يقصد الفلاش وكان محمد علي واقفًا أمام الجهاز فقفز من مكانه وحرك حاجبيه البيضاوين الكثيفين وهو يصيح «إن هذا الجهاز عمل من الشيطان» ثم غادر المكان وهو يمسك بسيفه الذي لم يتركه لحظة واحدة وتعتبر تلك الحادثة أكبر دليل على تشجيع والي مصر لكل من أراد زيارتها من المستشرقين ولا يفرق في ذلك بين رجل وامرأة فقد استقبل الكونتيسة دي جسباران التي زارت مصر في نهاية عام 1848 وتناقشت معه في تجارة الرقيق التي كانت معادية لها ووعدها أن يعمل على إلغائها.

وبالرغم من المجد الذي صنعه محمد علي له فإنه كان كثير التواضع كريمًا مترفعًا عن الشهوات التي يقع في براثنها دومًا الأمراء والملوك يمتلك كل هذا الحنين لماضيه ولأهله وبيته فرعاياه المولودون في قولة معفون من الضرائب لأنه يدفعها نيابة عنهم للخزينة ولا يزال بيت أبيه الذي نشأ وتربى فيه موجودًا ليومنا هذا وكان يتوق كثيرًا لزيارته ولكن الحياة لم تمنحه فرصة لذلك، وكثيرًا ما أعلن بفخر أنه حفيد الإسكندر الأكبر، أليس هو

سليل تلك الأرض الإغريقية ويذكر أن محمد علي لم يتحدث العربية قط وظل متمسكًا بلغته الأم التركية إلى يوم مماته، وقد كتب فيكتور هوجو عن ذلك الرجل قائلًا: «ليست الوحشية الآسيوية مجردة من رجال شوامخ مثلما قد تعتقد حضارتنا ويجب التذكر أنها قد أنجبت العملاق الوحيد الذي يمكن لهذا القرن أن يقارنه ببونابرت هذا الرجل النابغة هو في الحقيقة تركي أو تتاري إنه محمد علي باشا الذي يمكن أن نقارنه بنابليون مثلما نقارن النمر بالأسد أو العقاب بالنسر» **وقد أعجب محمد علي بنابليون بونابرت أشد الإعجاب وبعقليته الحربية الفذة حتى إنه عند نفي بونابرت لجزيرة سانت هيلانة كان يخطط ليساعده على الهروب من تلك الجزيرة إلا أن تلك الخطة أثارت شكوك نابليون معتقدًا أنها ليست إلا مخططًا لقتله تدبره له إنجلترا، وحتى في تشبيه محمد علي بنابليون** بخس من حق محمد علي الذي عرضت عليه فرنسا في 1829 أن يستولي على ثلاثة بلدان تحت الوصاية الفرنسية «طرابلس وتونس والمغرب» ووعدته أن تقدم له مساعدة عسكرية وأذاع أنه لا يصلح لتلك المهمة لأن المسلمين لن يغفروا له يومًا هذا العمل، وأضاف قائلًا لقنصل فرنسا: «لو قمت بمثل هذا العمل سوف أفقد جميع ثمار أعمالي وأفقد الاعتبار لدى أمتي وديني» ولكن ذلك السلوك المهذب لم يمح تهمة ظلت ما نطق باسم محمد علي باشا حتى تطل برأسها بالرغم من مرور كل تلك السنوات.. إنها مذبحة المماليك التي انتشرت حولها الكثير من الأسباب كان أكثرها شهرة وسذاجة لانفراد محمد علي بالحكم وثارت الكثير من الأقاويل حول تلك الأسباب التي رحلت برحيل الرجل الذي صنعها ولكن كان الكثيرون يعلمون جيدًا أن محمد علي قام بتلك المذبحة إرضاء للباب العالي وفي صفقة قد عقدها مع السلطان العثماني في أن يتخلص من المماليك في مقابل أن يجلس محمد علي على كرسي العرش وتتوارثه من بعده أجيال أسرته ولكن حتى هذا القول لم نكن لنجزم به.

أهم مصادر هذا الفصل:

1 - الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة، د. سمير عمر إبراهيم.
2 - كل رجال الباشا، دكتور خالد فهمي.
3 - العجائب والآثار، الجبرتي.

الفصل الثاني

مـذبـحـة القلعـة

«الجمعة أول مارس 1811» المذبحة الأكثر شهرة في تاريخ القرن التاسع عشر.



▲ (Masacre de mamelucos en El Cairo ordenada por Mehmet Ali in 1811. by Horace Vernet)

(مذبحة المماليك 1811 . هورس فيرنت)

لم يجد الباشا توقيتًا لينصب فيه تلك المصيدة أنسب من ذلك اليوم، وهو الحفل الكبير الذي أعده لحصول ابنه طوسون على الباشوية، فلم تثر الدعوة الشك في نفوس المماليك الأذكياء على ذلك الترحيب المغالى به من رجل يكنُّ لهم العداء؛ فالدعوة كانت موجهة

لأعيان وأكابر البلد وليست حكرًا عليهم فقط، وجه محمد علي الدعوة لبكوات المماليك إلى حفلة بمناسبة حصول ابنه على الباشوية من الباب العالي بإستنبول، وأرسل السلطان التركي إلى مصر كبير الأغوات بقصره ليسلم طوسون براءة الباشوية وهدية عبارة عن سيف وخنجر مرصعين بالماس، وفي الجمعة أول مارس 1811 ارتدى الباشا الجديد ملابس اللقب، وتجمع أكابر البلد وأعيانها، وعرضت العساكر تشريفات البراءة، وكانت طائفة المماليك هي الأبهى في صورها حيث تأنق كل منهم بأحسن ما يملك وركب أحسن ما عنده من خيل، وتقلد أسلحته،وصعد المدعوون إلى القلعة حيث كان الوالي في استقبالهم ويخص المماليك بأحسن استقبال ويشرب معهم القهوة، ويناقشهم في بعض أمورهم وأخيرًا يضرب الصفير للانصراف، فيمتطي كل منهم صهوة فرسه ظنًّا منه أنه لا يزال في عمره بقية، وكان موكب الخروج يتقدمه فرقة الأدلة بقيادة شخص يُدعى أوزون علي، ثم الوالي، ثم أغا رئيس الانكشارية، والمحتسب وزير المالية، وخلفه عدد كبير من أعيان البلاد ثم الألبانيون بقيادة شخص يُدعى صالح فوج، وكان بعدهم من أعدت لهم العدة ونصب لهم الفخ المماليك بقيادة سليمان بك البواب، وخلف المماليك كان المشاة والفرسان وأرباب المناصب.

وسار الموكب جهة ميدان الرميلة في طريق معوج منحوت في الصخر حتى باب يسمى باب العزب، وفور أن اجتازته مقدمة الموكب أمر صالح فوج قائد الألبان بإغلاق الباب الحديدي الكبير ثم أعطى الأوامر ببدء إطلاق النار فتسلق الجنود جانبي الطريق وأخذوا مراكزهم من أعلى لإطلاق النيران، وتحصنت المؤخرة بينما وصل المماليك ليجدوا الباب مغلقًا فحاولوا أن يرجعوا من حيث أتوا فلم يستطيعوا؛ لأن الممر كان غاية في الضيق بالإضافة إلى أنهم كانوا يصطفون في صف طويل، وفجاءة فتح وابل النيران على تلك الأجساد المتأنقة من فوق ومن الأمام ومن أعلى، فنزلوا من فوق ظهور الجياد وشهروا السيوف ولكن في وجه من كان عليهم إشهارهم، فلم يكن عدو لمحاربته، فقط طلقات من النيران كانت تحصد أرواحهم الواحد تلو الآخر، ومما يذكر أن رأس شاهين بك في مقدمة المماليك كانت قد قطعت وأخذها من قطعها ليحصل على البقشيش من الباشا

الذي يحكى أنه كان يجلس يدخن الأرجيلة ويتابع الأحداث من مكان لا يراه منه أحد، بينما استطاع سليمان بك البواب أن يصل لجناح الحريم وأخذ يتوسل إليهن «أنا في عرض الحريم» وكان من الشائع وقتها أن من يطلب نجدة الحريم ينجد ولكن لم يكن أحد في استطاعته نجدته وإلا لاقى المصير نفسه، وتحولت القلعة إلى بركان من الدماء وأشلاء جثث بدون رءوس تلك التي اقتطعت ليراها الباشا وسحبت الأجساد بالحبال، ولم يرحم أحد في تلك المعركة حتى هؤلاء المساكين من خدم المماليك وأصدقائهم الذين تأنقوا وذهبوا معهم كنوع من التفاخر، ولم يكن الحال عليه خارج القلعة أحسن من داخلها، فور انتشار الخبر عمت الفوضى وانتشرت طائفة الأرناؤوطي الألبانية تنهب وتسلب في البيوت وخاصة بيوت المماليك التي لا حياة فيها بعد اليوم واستمر الحال كذلك لمدة ثلاثة أيام نزل بعدها الوالي بنفسه لإيقاف تلك الفوضى، وهناك قول لا أجزم صحته أن الوالي بعد تلك المعركة ذهب يبكي في حضن زوجته، فهل شعر بألم الضمير حقًّا أم أنها مجرد شائعة تم ترديدها؟! أثارت تلك الواقعة المستشرقين ممن زامنوها فرسمت لها عدة لوحات وكتب عنها الكثيرون كان أشهرهم الكاتب الفرنسي الشهير الذي عرف بقصص الفروسية إسكندر ديماس، فكتب يصف تلك المعركة بعدما أضاف إليها البعد الخيالي بنجاة اثنين من المماليك فرا على ظهور جيادهما، ووصف تفاصيل الهروب الطويل في سيناء لمدة خمسة عشر يومًا وقد خرج كتابه بنفس العنوان «خمسة عشر يومًا في سيناء».

أما عن نهاية محمد علي باشا فهي تشبه قدره في غرابتها، فقد أصابه مرض عقلي بعد كل تلك السنوات في الحكم كان لا يحكم بها ولا يخطط إلا بعقله، وربما قد أنهكه بالتفكير الكثير فقد كان كما قيل عنه أنه يخلد للنوم بوقت متأخر ومع ذلك يستيقظ عند الرابعة صباحًا كل يوم ويكتفي أثناء نومه باثنين فقط من الحاشية لحراسته، وفور استيقاظه يباشر أعماله التي لا تنتهي أبدًا، وقد حصل هذا الرجل على المجد الذي كان يرتجيه وبذل جهده في الوصول إليه وتردد وقتها أن ابنة محمد علي المقربة إلى قلبه حزنت أن أباها لم يعد يستطيع أن يستمتع بوجوده في الحرملك بعدما أنهك جسديًّا فصنعت له مجموعة من الأعشاب الطبية ليستعيد بها قوته، ولكنها بدلًا من ذلك كانت قد أنهكته عقليًّا، إنها شائعة مغرضة

لا أساس لها من الصحة، فهكذا دومًا كان قدر الأذكياء متَّقدي العقل الذي لا يتوقف أبدًا بهم عن التفكير، ونظرًا لحالة محمد علي الصحية خلفه ابنه إبراهيم في حكم البلاد ومنع الزيارة عن هذا الرجل العملاق وتركه وحيدًا لا صحبة له إلا الألم والحزن، ويذكر أنه بعد وفاته وبعد جنازته البسيطة التي كانت لا تليق بقدره على الإطلاق لم يسر وراءه إلا عدد قليل من الرجال لا يتعدون أصابع اليد الواحدة، كان سعيد باشا الوحيد من تلك الأسرة الذي تبع نعشه، ودفن بالمسجد الأنيق الذي بناه بالقلعة وكأنه لا يزال ينظر منه على أحوال تلك البلاد التي صنع مجدها يومًا، ويعتبر عهد محمد علي هو ذروة الانفتاح الأوربي فقد وصل عدد الشركات الأوربية التي تدير أعمالًا تجارية حرة من 16 إلى 44 شركة من عام 1822 - 1838 وازداد إيراد الجمارك من 6000 كيس إلى 54710.

أهم مصادر هذا الفصل:

1 - مذكرات الأميرة جويدان هانم (زوجة الخديوي عباس حلمي).
2 - مذكرات برايس دافين.

الفصل الثالث

إبراهيم باشا (1789-1848)



إبراهيم باشا ▲

تقلد إبراهيم حكم البلاد عام 1848م بفرمان من الباب العالي نظرًا لمرض محمد علي باشا والي مصر وقتها. كان إبراهيم جنديًّا وعسكريًّا جيدًا مثل أبيه، ولكنه كان يفتقد اللياقة والذوق، ويظهر ذلك بوضوح في أسلوب حياته الخاص والعام، ورغم ذلك لا يمكن أن نبخسه حقه في أنه كان قائدًا محنكًا لا تفوته صغيرة ولا كبيرة من فنون الحرب. كان يأمل أن يرتقي بمصر ويجعلها مثل الدول الأوربية وخاصة باريس التي سافر إليها للعلاج بمصاحبة نوبار باشا، وهناك قال له إنه يتمنى أن يجعل مصر مثل تلك البلاد، فهي لا تقل عنها في شيء، ولكن لم يسعفه القدر، فقد مات بعد توليه الحكم بسبعة أشهر فقط بعد إصابته بالتهاب رئوي حاد تمكن منه، وعندما علم محمد علي بموت ابنه حزن لفقده حزنًا شديدًا، وقال إنه كان يعلم أن إبراهيم سيسبقه للقبر وسيتولى عباس إدارة البلاد، ولكن لم يُفهم يومًا ماذا عنى محمد باشا بمثل تلك الكلمات وربما كان يهذي فقط.

الفصل الرابع

عباس باشا (1813-1854)



عباس باشا

عباس طوسون محمد علي باشا تولى حكم البلاد في «1848-1854»، وكان طوسون الابن الأحب إلى قلب محمد علي الذي مات، ليحزن محمد علي لفراقه حزنًا شديدًا، ويستولي عباس ابن طوسون على محبة جده الذي يحاول بقدر الإمكان أن يعوضه عن موت أبيه، وفي الوقت نفسه يعوض به نفسه عن حرمانه من ابنه، وكمن ولد وفي فمه ملعقة من ذهب ولد عباس فنشأ مدللًا على يد مربيه التركي ومجموعة من العبيد حريصين أشد الحرص على إرضائه، وعاش داخل تلك الشرنقة التي وضعه بها جده بعيدًا عن الاطلاع على أي ثقافة أو حتى معرفته بالتطورات التي يصنعها جده في البلاد.. وربما نلاحظ في تلك الواقعة التي سأقوم بسردها شخصية عباس باشا التي تفتقر إلى الكثير من الذوق واللياقة وتمتاز بالكثير من الأنانية: ذات يوم بمناسبة عيد الأضحى ذهب ليلقي على جده فروض التهنئة، فجلس على الديوان واضعًا ساقًا فوق أخرى،فسأله جده بغضب: بأي حق قد أبحت لنفسك

الحرية في الجلوس؟ فكان رده يشبه تمامًا بحق الرجل الذي يعرف شرف أجداده: ألست باشا ابن باشا وحفيد باشا، بينما أنت لا أجداد لك من الأشراف؟ فامتقع وجه محمد علي وأمره على الفور بالذهاب لجناحه، وفي اليوم التالي كان قد أصدر أوامره بذهابه إلى معسكر «إسلام آباد» على حدود الخانكة ليتلقى تربية وتعليما عسكريًّا وعين له مدرسًا يعلمه قواعد اللغة الفرنسية والتركية ومدرسًا للتاريخ والطبوغرافية الحربية، وقد كان للحادثة التي ألقاه فيها الحصان عن ظهره وهو أمام كتيبة عسكرية تدق طبولها إيذانًا بأن تؤدي له التحية العسكرية لركوب الخيل أثر كبير في كراهية لركوب الخيل، وعندما علم جده بأمر كراهية حفيده للحياة العسكرية أمر بأن يرجع إلى القاهرة ليتدرب على النظم الإدارية، وقد أبدى نفوره وكراهيته لكل ما هو أوربي وظهر نقده للأوربيين ولملابسهم في كل مناسبة، وعندما أمر السلطان العثماني بارتداء جميع كبيري موظفي الدولة الطربوش بلا عمامة والفراك والبنطلون والأحذية رفض نهائيًّا أن يلبسها ولكنه قد لبسها قمعًا عندما زار القسطنطينية لتسلم مقاليد الحكم، وقد أغلق على مصر خلال سنوات حكمه التي امتدت لأربع سنوات. كان حازمًا متسلطًا مشهورًا عنه أنه كان يأمر بحياكة أفواه من تتوق نفسه بالتدخين حتى أنه أمر بحياكة فم جارية عنده لارتكابها تلك الفعلة المشينة، ونظرًا لذلك الانغلاق ولكراهيته الأوربيين كان المستشرقون يجيئون ويذهبون بصمت حتى لا تقع لهم مصائب من ذلك الحاكم المعادي للتفتح ولكل ما هو أجنبي اعتقادًا بأن هؤلاء الفرنجة قد خدعوا جده في كثير من الأوقات فيجب عليه أن يحذرهم، وهو كان بتلك السياسة يفسد الأعمال التي أنجزها جده محمد علي باشا، وكانت لسوء الحظ زيارة الأديب الفرنسي فلوبير الأكثر رومانسية وصديقه الأديب الأكثر تخيلًا في عالم الأوهام ماكسيم ديكان في عهد ذلك الوالي الكاره لكل ما هو أوربي بصفة عامة وفرنسي بصفة خاصة، وقد كتب ماكسيم يقول: «إن لم نكن نحمل جواز مرور ثمينًا لما كان باستطاعتنا الإقامة هنا»؛ فقد كان ماكسيم مكلفًا من وزارة التربية والتعليم، واستطاع أن يحصل على بعثة بلا أجر لصديقه فلوبير، وما إن عاد ماكسيم لفرنسا حتى نشر كتابه «النيل وألبوم صور» بينما اكتفى فلوبير بكتابة نص صغير بعنوان «القارب الشراعي» وكان قد كتب

بعض المسودات لم تنشر إلا بعد وفاته بمساعدة بنت أخته وقد وصف فيها مستشفى القصر العيني الذي أنشأه كلوت بك في عهد محمد علي بصورة فجة عندما وصف العنابر التي امتلأت بمرضى الزهري من مماليك عباس. وفي نص آخر وصف عشيقة عباس سابقًا والتي أصبحت عاهرة فيما بعد وهي ترقص: «إنها شخصية همايونية عظيمة الثديين فتحتا أنفها مشقوقتان، عيناها رائعتان شديدتا الاتساع وعندما ترقص تظهر تراكمات كثيفة من اللحم فوق بطنها» وهناك قصة شهيرة لعباس مع هذه السيدة فقد كان قد أهداها أرجيلة ذهبية وبعد فترة عثر عليها بين يدي أحد البكوات يدخن بها فتذكر أن تلك الأرجيلة كان قد أهداها لعشيقته فاستدعاها وأمر بإغراقها في النيل، ولكن مع توسلاتها وإخبارها له أنها لم تضطر لبيع تلك الأرجيلة الذهبية إلا لحاجتها للمال أمر بالعفو عنها، وفقدت نصوص فلوبير رومانسيته الشهيرة فربما كان لحكم هذا الرجل تأثير على إخماد تلك الروح في أدب فلوبير وإحلال نوع آخر لم يكن معهودًا عنه.

وبالرغم من مظهر عباس المحافظ الشحيح فإنه في عام 1849م كانت ورش الأثاث الباريسية تقوم بصناعة الأثاث لقصور عباس العديدة، وفي العام نفسه جعل مدافعه تطلق ألف قذيفة ابتهاجًا بختان ابنه.

كان عباس يعاني مرضًا صدريًّا وكان الهواء الجاف أهم علاج له؛ لذلك نصحه الأطباء بالتريض في صحراء «الحصوة»، وسميت بذلك لأنها كانت تمتلئ بالحصى والرمل اللازم لمباني القاهرة وأعجبه المكان بعدما قضى فيه ليلته فاتخذ قرارًا بإعمار المنطقة وإطلاق اسمه «العباسية» عليها، وأصدر أمرًا بأن يتجه الأمراء والأعيان لإقامة القصور والديار واستهلها هو ببنائه قصره الفخم «الحصوة» الذي كان يلجأ إليه عند اعتلال صحته، وقد زاره في ذلك القصر المهندس الفرنسي ديلسيبس ليعرض عليه مشروع حفر قناة السويس وهو العام نفسه الذي قضى فيه نحبه، وقد وصف ديلسيبس هذا القصر قائلًا: «إن به عشرين ألف نافذة» وقد دبر له القدر ميتة شبيهة به فقد فاجأه الموت وهو لا يزال يتطلع لمشاريع كبيرة في 14 يوليو عام 1854 إثر إصابته بسكتة قلبية، ولم يكتشف أمر موته إلا بعدها بعدة ساعات، وكان هذا الموت في قصر الحصوة، وبالرغم من الشائعات التي

خرجت بعد ذلك عن كيفية موته تارة بأنه مات مسمومًا وأخرى بأن سعيد باشا قد كلف مملوكين بالإجهاز عليه أثناء نومه، فقد استُبعدت تلك الفكرة لكثرة الحراس بالقصر، وكان من الصعب مرورهما أو خروجهما منه دون أن يلاحظهما أحد، وقد أدلى الرجل المكلف بتغسيل الجسد أنه قد لمح بعض البقع السوداء على عنقه، بينما أكد الطبيب الذي كشف عليه لتحديد سبب الوفاة أنها جاءت طبيعية، وأراد أصحاب الحظوة لدى الباشا - وبخاصة سكرتيره وخازنداره - أن يكتما أمر موته، فنقلاه في عربة تجرها الجياد في كامل أناقته وحفظا السلام في البلاد باسمه إلى أن أعلنا وفاته من القلعة.

أهم مصادر هذا الفصل:

1 - مدينة القاهرة من محمد علي للخديوي إسماعيل، د. سمير عمر إبراهيم.

2 - مجموعة كتب عبد الرحمن الرافعي.

3 - مذكرات نوبار باشا.

الفصل الخامس

سعيد باشا (1822-1863)

«أتمنى أن أعرف أيَّ عرق بجسدي يضخ الدماء التركية حتى أقطعه وأجعله ينزف وأتخلص منه للأبد».

سعيد باشا

تولى سعيد باشا حكم البلاد بعد موت أخيه عباس باشا في 16 يوليو 1854م، وكان يشغل منصب رئيس البحرية بعد تعلمه فنونها، واستقبله الشعب بالترحيب والهتاف بعد فترة حكم عباس التي لاقى فيها الويلات حتى قال أحد المصريين سنة 1858م عن الأنوار التي أوقدت بمناسبة توليته الحكم: «إن الزيت الذي أوقدناه احتفالًا بجلوسه ندفع ثمنه دموعًا منذ أربع سنوات». وعند رجوع نوبار باشا من أوروبا مرة أخرى للأراضي المصرية وبالرغم من معاداته للوالي الجديد فإنه لاحظ الفرق بعد عودته



سعيد باشا

فكتب قائلًا: «ازداد عدد الأوربيين، كانت توجد حيوية أكثر حتى بين السكان من أهالي البلاد، كانت توجد رفاهية أكثر، وحياة في الخارج أكثر، اختفى مناخ الرعب والصمت الذي كان يثقل على البلاد في عهد عباس، كانوا يتحدثون بحرية ويقومون بالتنزه». وقد كان سعيد باشا ديمقراطيًّا بطبعه، بعث مجددًا الروح الوطنية في المصريين، وكانت له عبارة مأثورة هي: «إن دوام النظر بعين الرأفة إلى الرعايا هو ملتزم إرادتنا». وألقى خطبة بمناسبة تولي الحكم أشاد فيها بتاريخ مصر والمصريين معتبرًا نفسه مصريًّا، وجاء في نهايتها التزامه بحسن تعليم أبناء الشعب حتى يكون أفراده جديرين بخدمة وطنهم عوضًا عن الأجانب، وكان في تجاوزه عن الضرائب المتأخرة وأخذها بشكل نقدي وليس عينيًّا وإعفاء الشعب من الضرائب عن السلع الخارجية والداخلية ما أدى إلى رخص أسعارها في البلاد، ولم ينس الدور الذي أقامه جده في الجيش المصري فجمع العساكر والجنود وأغدق عليهم الأموال وعدَّل من مرتبات الضباط، فلم يعد الطريق إلى التجنيد بالشكل الذي كان يساق عليه الجنود بالقوة الإجبارية في عهد محمد علي، وأدت الحرب الأمريكية إلى ارتفاع أسعار القطن المصري بشكل لم يسبق له مثيل، مما أدى إلى رخاء البلاد.

وقد اهتم الوالي الجديد ببركة الأزبكية فركَّب ماكينة لرفع المياه من النيل عند بولاق لتوصيلها للقناة ليسد حاجة الناس من الماء طوال العام، وأمر المهندس موجيل بك بتنفيذ رصيف قصر النيل وأصدر أمرًا بمد خط للسكة الحديد إلى قصر النيل على أن تشتري الحكومة الأراضي التي سيتطلبها هذا المشروع، وزادت القصور بسبب ذلك الخط من شبرا إلى المهمشة، كما اشترى قصرًا بمنطقة شبرا كان قد بناه القنصل الفرنسي دلي بورت ووسَّعه وأضاف إليه قصرًا آخر باتجاه الجنوب، وقام بشراء قصر نازلي هانم ابنة محمد علي باشا في الزمالك وهدمه وألحق به معسكرات للجيش تسع تسعة آلاف جندي ومد لها خط سكة حديد من الجهة الشمالية لها لداخل القصر، وأقام محطة للسكة الحديد عند انتهاء خط السكة الحديد بين القاهرة والإسكندرية، في حين اتهمه برايس دافين بقلة الذوق في قصره الذي شيده على طراز الركوكو مسيو مونتو بمدينة المكس بالإسكندرية والإسراف في استعمال الزخرفة المذهبة في تصميمه.

وقد ألح عليه كلوت بك بتحويل مبنى ورش الخرنفش إلى مستشفى ملحق بالقصر العيني، وأرجع المدارس التعليمية بمراحلها المختلفة التي كان قد ألغاها عباس وتوسع في فتح المدارس للجاليات الأجنبية كالمدرسة الأمريكية التي افتتحت عام 1856م ومدرسة للبنات فتحتها طائفة الفرنسيسكان الإيطالية سنة 1859م، وأمر سليمان باشا الفرنساوي رئيس أركان الجيش في ذلك الوقت بإنشاء المدرسة الحربية 1855م وكان الكولونيل سيف، سابقًا سليمان باشا بعد إعلان إسلامه، من مواليد مدينة ليون الفرنسية قد جاء لمصر مع حملة نابليون وتدرج في المناصب، وعهد إليه محمد علي باشا بإنشاء الجيش المصري وطلب أن يتقاعد لبلوغه الرابعة والسبعين وعدم مقدرته على مواصلة العمل، وقد خصص له سعيد باشا معاشًا مناسبًا لزوجته وابنته فور وفاته، وقد أنشأ سليمان باشا مجموعة معمارية بمصر القديمة عبارة عن جامع وكتاب ومدفن ووضع على قبره شاهدان كتب عليهما نفس النص: «ها هنا مثوى أمير جليل بعد أن ساد منصبًا منذ شاع في سبيل الإسلام يا آل جهاد بجهاد قد زاد مصر انتعاشا فلذلك قالت العناية ارقد في جلال رحمتي»، ومن المعروف أن كولونيل سيف أعلن إسلامه وبدل اسمه بسليمان الفرنساوي، وتقديرًا له صنع له تمثالًا نصب بميدان سليمان باشا الشهير الذي أطلق على اسمه بمنطقة وسط البلد، وبعد ثورة يوليو انتقل من مكانه ليوضع في المتحف الحربي.

كما أمر سعيد باشا رفاعة بك الطهطاوي بإنشاء مدرسة للعلوم الأدبية بالقلعة في 1856م وأعاد افتتاح مدرسة القصر العيني 1856م بإشراف كلوت بك بعد عودته من هجرته ثم عين برجير بيه رئيسًا لها 1858م.

وبالرغم من أن سعيد باشا كان سخيًا في توزيع الهدايا من التراث الفرعوني فقد أسند إلى مارييت بك وظيفة مدير الآثار المصرية التي تولاها للمرة الأولى في مصر، وأخذ مارييت يناضل ضد التسيب في إهدار الآثار المصرية وكنوز الفراعنة وتصدى لسخاء الخديوي من ناحية أخرى، ووضع مارييت بك حجر أساس مشروع لطالما حلم بتحقيقه وهو إنشاء متحف يضم الآثار المصرية، افتتح للجمهور عام 1863م، في حي بولاق القديم بالقاهرة. كان الموقع في حالة يرثى لها؛ ساحل رملي تفيض عليه مياه النيل في أغلب الأوقات ويقيم مارييت بك وأسرته في مسكن بنفس البناء، وملحق بالبناء

مسجد قديم وتتراص الغرف في دهاليز طويلة، مكاتب للموظفين وقاعات لعرض الآثار وكانت الغرف الخمس المفتوحة للزوار سيئة الإضاءة. ويصف الفيكونت ديفوجيه (كاتب فرنسي) مارييت بك بأنه «شخصية عابسة صامتة، يرتدي الطربوش والبالطو الأبيض. حينما يقوم زائر بالمرور عبر الحديقة يرفع حاجبيه بطريقة متعجرفة تنم عن استيائه ويتابع المتطفل بعين غيور، وبعدما يزول اندهاشه يصطحب المشاهد ليريه أحجاره القديمة، وعلى أنغام صوته تنبعث الحياة في الأحجار القديمة وتنبعث الحياة في المومياوات المكفنة وتتحدث الآلهة». وبدأ مرض السكر يؤثر على نشاط عالم الآثار النشط الذي أقام صداقات وأزال الحواجز بين سكان القرى والفلاحين وأعضاء بعثته الاستكشافية حتى إنه عند استكشاف معبد أبيدوس التف سكان القرية حوله لرؤية سور كبير مزين بالنقوش والحفر، فاقترب رجل عربي كبير السن منه ليسأله: «كم عمرك حتى تتذكر موقعة كتلك، فأنا لم أغادر القرية طيلة العمر ولم أسمع عن وجوده إطلاقًا؟»، فأجاب مارييت: «عمرى ثلاثة آلاف سنة». فأجاب العجوز: «لابد أنك قديس لأنك تبدو شابًا بالرغم من عمرك هذا» واختار أوجست مارييت - الذي كان لا يزال يشغل وظيفته بمتحف اللوفر، ومع تذمر متحف اللوفر الذي كان أوجست مارييت لا يزال يشغل وظيفة به ووضعه أمام اختيارين؛ إما الاستمرار بالعمل في متحف اللوفر أو تركه للعمل بالمتحف المصري، وقع اختيار أوجست على المتحف المصري.

وبالرغم من كل تلك الإنجازات التي صنعها سعيد باشا فإنها لم تنف التهم التي وجهت إليه، فقد كتب الكثير من المؤرخين أو الذين عاشوا فترة حكمه أن تلك الشخصية هي من أقبح الشخصيات الحاكمة لمصر من أسرة محمد علي، وبالرغم من مساوئ عباس باشا فإن مساوئ سعيد كانت تفوقها أضعافًا؛ فهو شخصية نهمة محبة للشهوات غير السوية، وكانت مصالحه الشخصية تفوق ذلك الشكل الخارجي الذي أراد أن يظهر به في أنه لا يهمه سوى مصلحة البلاد. في إحدى المرات رد على نصيحة أبداها له سليمان باشا: «إن نصائحك طيبة جدًّا ولكني قبل كل شيء أريد أن ألهو ولا يعنيني ما بقي بعد ذلك، وليكن من بعدي الطوفان». وفي مقولة أخرى إثر شكوى عن عدم انتظام السكة الحديد: «إنني شديد الاهتمام بمواصلاتكم التجارية ولكن هذه السكة الحديدية ملكي، ولي أن أفعل بها ما أشاء». وتحولت بداية فترة حكمه للنقيض عند نهايتها فها هو يترك اهتمامه

بالجيش، فلم يدفع مرتبات الضباط والجنود، وتوقفت حركة الملاحة في البحر الأحمر لأنه لم يعد يمدها بالمال الكافي وأصبح ما يصرفه في يوم بمقدار ما يحتاج إليه إنفاق مصر كلها، وتضخمت المديونية في عهده لتفوق الـ 80 مليونًا، بينما كلف خزينة مصر خلال حكمه 400 مليون جنيه.

ومن المظاهر التي تدل على تبذيره أنه للاحتفال بعيد ميلاده ذات عام اصطحب معه 27 سفينة بخارية، كانت إحداها تحمل مسرحًا للتمثيل، وكرهه الشعب المصري حتى إنه أثناء مروره في محطة السكة الحديد في 15 يوليو 1858م لم يلتفت إليه أحد من أبناء شعبه، بينما تجمع حوله الأوربيون الذين كانوا يتملقونه، وعند وصوله للقلعة في نفس اليوم قذف الجمع المحتشد من ضباط الجيش عرائض في عربته فألقاها خارجًا وهو يجيبهم ببرود: «لن أصرف مرتبات قبل حلول شهر توت». وعندما تجرأ أحد القناصل وأبدى له بعض الملاحظات بسبب تأخير المرتبات رد قائلًا: «إنك حقًّا تدهشني. لقد تأخر أبي بمرتبات أربعين شهرًا ولم يتجرأ أحد أن يشكو. أنا أيضًا أرى أن أحكم بما يطيب لي». وكان يُعرف عن سعيد باشا ولعه بعلم التنجيم وجلسات تحضير الأرواح، وذكر ذلك نوبار باشا في مذكراته، ولكن عندما تنبأ له أحدهم بأن وفاته ستكون عام 1855م، صدر أمر بنقله إلى لاظوغلي وإلقائه في النيل أثناء الرحلة، هكذا كان الأمر عندما يصب جام غضبه على أحد. وفي إحدى المرات أمر بنقل عابدين باشا الموظف برتبة بكباشي في مصلحة صك النقود ليرأس فرقة موسيقية، بينما أمر بربط عدد من قادة بعض القبائل الصعيدية في فوهة المدفع وإطلاقه بهم، وكانت تلك القبائل اشتركت مع محمد علي في حرب الشام فأعفاها من الضرائب، ولم يعجب هذا الأمر سعيدًا وعندما طالبهم بدفع ضرائب رفضوا، فأمر بأن تكون تلك هي نهايتهم، وقد كان يحرص في فترة حكمه على كسب احترام الغرب وتفادي إغضابه على حساب المواطن المصري، ووصل ذلك الأمر إلى أن استنكره مهندس فرنسي جاء مصر بعقد عمل لحفر قناة السويس وبعث رسالة لأمه قائلًا: «قضيت خمسة أيام في الإسكندرية، إنها مدينة جميلة خاصة في الحي الأوربي، وتشهد المدينة طغيانًا شديد الوطأة، فالأوربيون يضربون العرب بطريقة خسيسة، ونرى كل إنسان تقريبًا يحمل سوطًا

في يده يضرب به بطريقة عشوائية، البذخ هنا يتجاوز الحدود، إنهم يتبرجون بطريقة مذهلة وبأحدث مبتكرات باريس». وفي تصرف أكثر حماقة في عام 1862م أرسل فرقة عسكرية سودانية إلى المكسيك لكي تحارب إلى جانب الحملة الفرنسية هناك، أي أنه تم انتشال مجموعة من الفلاحين ليذهبوا لآخر العالم للدفاع عن أراضٍ ليست لهم، وذاع صيته بلقب كان يطلق عليه «الباشا حامي النصارى والأوربيين».

وتوفي سعيد إثر أزمة قلبية،وجاء الخديوي إسماعيل لتولي الحكم من بعده. لقد كان هناك فرق كبير بين الخطبة التي ألقاها في بدء فترة حكمه وتلك المقولة التي أذاعها لأحد الأوربيين في نهاية عهده: «إن في الاستبداد ضمان القوانين وحياتها،فلو كنت أدفع بانتظام مرتبات الجيش والموظفين لطردوني من البلاد عندما تحين أول لحظة تضطرني فيها الظروف لتأجيل الدفع، فالأفضل هو التصرف كما نفعل، وفي الوقت نفسه نحظى برضا الشعب كلما دفعنا جزءًا من رواتب الموظفين المتأخرة».

الفصل السادس

الحادث الأكثر إثارة للأقاويل خلال ذلك القرن

إن حادث كوبري كفر الزيات هو الأكثر جدلًا ومثارًا للأقاويل ليس فقط للطريقة المأساوية التي حدث بها وتسببت في مقتل أحمد باشا ابن إبراهيم باشا، ولكن لأن ذلك الحادث أثار الكثير من الشبهات لأكثر من شخص في ذلك الوقت، منهم الوالي سعيد باشا وإسماعيل باشا ولي العهد ونوبار بك الذي كان قد عينه سعيد مدير مصلحة السكة الحديد وأنعم عليه بلقب «بك» فوقعت حادثة كفر الزيات وما لبث نوبار أن تولى المنصب، فاتجهت إليه أصابع الاتهام. وقد ذكر اثنان من المؤرخين تلك الحادثة، وهما إلياس الأيوبي وبرايس دافين وكانا على النقيض التام، وسأقوم بنقل تلك الواقعة وتحليلها كما ذكرها كلٌّ منهما. يقول برايس دافين: «إن موت أحمد باشا ابن إبراهيم باشا يثير شبهات حول سعيد. كان أحمد يبذل خيرًا جمًّا،كان جوادًا يهب هبات عظيمة ويدير أملاكه في اقتصاد ومات مأسوفًا عليه لأن ملكه كان يعد مصر بمصير أسعد مما استطاع أسلافه ولم يبد سعيد باشا أسفًا على موت أحمد باشا، بل قال في موته: «إن اليتامى الذين كان يعولهم سوف يبكونه». وتحوي إحدى الصحف الصادرة في مالطة يوم 18 يونيه مقالًا أثبت فيه أن موت أحمد باشا كان قد أمر به سعيد، وأقر لي مهندس إنجليزي أنه قبل وقوع الحادثة ببضعة أيام صدر أمر بالحفر حفرًا عميقًا عند أحد أعمدة القنطرة دون أن تستدعي ذلك حجة ظاهرة، فقد كان من الماء ما يحمل أشد السفن ولولا العمل الذي حفر هوة ابتلعت عربات القطار لتجاوزت العربة الثالثة التي كانت تقل أحمد باشا مستوى الماء

ونجا وارث العرش، وقبل وقوع الحادثة بعدة أشهر ومن المحتمل أن يكون هو الوقت الذي اختمرت فيه فكرة تلك المؤامرة الرائعة سرَّح سعيد باشا «جريم بك» مدير السكة الحديدية الإنجليزي وأحل محله نوبار بك وهو أرمني وقدم له الهدايا قبل وقوع الحادث وبعده». تلك كلمات برايس دافين الذي أشار إلى أن تدبير الحادث جاء متعمدًا من سعيد باشا ونوبار بك. بينما كتب إلياس الأيوبي: «وقعت حادثة كفر الزيات ونوبار في هذا المنصب فذهب فريق من الألسنة النمامة في تلك الأيام إلى أن الحادثة دبرت من ولي العهد الجديد إسماعيل ومدير السكة الحديدية لإزالة الأمير أحمد إبراهيم لمنعه من تولي العرش الرامية إليه مطامع إسماعيل، وذهب فريق آخر إلى أن الذي دبر تلك الحادثة هو سعيد نفسه للتخلص من أحمد باشا ابن أخيه وحليم باشا أخيه، ولسنا في حاجة إلى تكذيب الإشاعتين معًا بعد أن كذبهما التاريخ على لسان أشهر الثقات من الرواة، فعلاوة على أن سعيد وإسماعيل لم يكونا من الرجال الذين تقع في خلدهم تلك الواقعة الفظيعة قال سعيد بحزن عندما علم بتلك النميمة للادون ليون قنصل أمريكا آنذاك: «هل عبدك كلب لاقتراف هذا الجرم؟»». وقد كان نوبار آخر إنسان يطاوعه ضميره على المساعدة في اقترافها، ناهيك عن أنه كان قليل الاختلاط بإسماعيل، كما لم تكن علاقته قوية الصلة بسعيد. هذا ما جاء من تحليل للحادثة لاثنين كانا شاهدي عيان عليها، ونحن لا نملك أن نقطع الشك باليقين، ولكن شخصية نوبار باشا كانت تأبى أن تفعل تلك الفعلة المشينة، ففي قراءة في كتاب «نوبار باشا أمام التاريخ» لإسكندر هولنسكي ومذكرات نوبار باشا التي قام بتدوينها عن كل كبيرة وصغيرة خلال حياته السياسية وجمعها للنشر وكرمها لا يسعنا أن نصدق أن ذلك الرجل الذي قضى معظم حياته في العمل الوطني ومساعدة بسطاء الوطن من فلاحين وعمال ومساعيه لدى الحكومات الأجنبية لإلغاء الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة وقانون السخرة، يقدم على هذه الفعلة الشنيعة، وربما كان في عدم حضور الخديوي إسماعيل الحفل وتعلله بأن مرضًا ما أصابه شبهة في أن يكون هو من رتب تلك الفعلة، ولكن أخلاق إسماعيل ترفض مجرد التفكير بها وليس التخطيط لها، وانطوت الأيام وطوت في سجلها تلك الحادثة بأسرارها وبلغزها الكبير، ولكنها تركت

علامة استفهام كبيرة وراءها في تساؤل بأداة استفهامية من حرفين «هل» كان الحادث مدبرًا أم أنه كان قضاءً وقدرًا؟

أهم مصادر هذا الفصل:

1 – مذكرات برايس دافين.

2 – مذكرات نوبار باشا.

3 – مصر ولع فرنسي، روبير سوليه.

4 – لمحة عامة على مصر، كلود بك.

5 – تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل، إلياس الأيوبي.

6- voleny voyage en egypte en syrie pendant les ane.

الفصل السابع
توقيع عقد العمل الأكثر أهمية خلال القرن

ديلسيبس الذي عمل كقنصل فرنسا في مصر 1831 ثم خرج منها ليعود لبلاده ويرجع إليها مرة أخرى في عام 1854 حاملًا بين يديه أوراق مشروع تتوقف عليه حياته، عرف عنه ذكاؤه الشديد ولياقته مع الرجال والنساء، وحصل على ميدالية شرف على موقفه أثناء اجتياح داء الطاعون مصر، درس مشروع شق القناة الذي استعرضه مسبقًا قائد في جيش الحملة الفرنسية ونوقشت الدراسة وطبعت في كتاب وترجم المشروع باللغة العربية وتم عرضه على السلطان العثماني الذي بدوره طلب من ديلسيبس عرضه على والى مصر فهو الوحيد الذي كان بإمكانه الموافقة عليه، فأحبطت آماله لأنه كان يعلم تمامًا موقف عباس من تلك الأفكار الأوربية، ولكن خيبة أمله لم تطل كثيرًا فقد مات عباس وتولى من بعده الحكم صديق ديلسيبس منذ الطفولة سعيد باشا، وهناك واقعة طريفة سردها ديلسيبس بنفسه في مذكراته عندما أذاع أن سعيدًا كان فتى سمينًا ويحب الأكل، ففرض عليه محمد علي اتباع نظام غذائي قاسٍ وتمرينات شديدة، فكان يلجأ لديلسيبس ليعد له أطباق الطعام الشهية، ومن هنا توطدت العلاقة بينهما، ولكن تلك الواقعة لم تمنعه عند الذهاب لمقابلته من أن يرتدي ملابسه السوداء الأنيقة ويعلق الأوسمة والنياشين، فقد أصبح صديقه القديم في منصب يلزمه أن يقف أمامه بكامل احترامه ووقاره، وقدم له زوجًا من المسدسات هدية له، وأرسل لحماته التي كانت تربطه بها علاقة قوية رسالة يصف فيها ذلك اللقاء قائلًا: «خلال تلك الزيارة لم أتطرق إلى أي كلام عن المشروع؛ لأنني لم أكن قد درست شخصية سعيد الجديدة بعد، وعلى الرغم من أنه ليس بوسيم الشكل، فإنه يتمتع

بكثير من اللياقة والذوق وحب للأجانب، ويتحدث الفرنسية بطلاقة». وفي رحلة دعاه إليها سعيد باشا في صحراء ليبيا أقاما فيها بخيام يصفها ديلسيبس قائلًا: «إنها مصنوعة من خشب الأكاجو، والأباريق التي تقدم الشراب كانت من فضة بينما كانت الأواني من سيفر». وفي أحد الأيام وأثناء مراقبتهما غروب الشمس وفي جو شاعري أعلن ديلسيبس لسعيد عن مشروعه واستهل كلامه قائلًا: «إن مشروع الربط بين البحرين قد شغل تفكير كل الرجال العظام الذين حكموا مصر من سيزستوريس لمحمد علي ومن الإسكندر الأكبر لنابليون. إن الرجل الذي سيقوم بتنفيذ ذلك المشروع سيخلد التاريخ ذكراه للأبد» وأعقب قائلًا: «سيتم اختصار المسافة بين لندن وبومباي إلى النصف وتخفيض المسافة بين القسطنطينية والهند إلى الثلث» ولأنه كان أذكى من أن تفوته فائتة، فقد أجاب عن كل سؤال طرحه عليه سعيد الذي استدعى قواده على الفور وأمرهم بمناقشة وعرض المشروع عليهم، فلم يكن منهم إلا الموافقة، وفي هذا المكان الذي تحده الرمال من أربع جهات تحقق مشروع الحفر في الرمال بعدما قرر رجلان أحدهما كثير الذكاء والآخر لا يرتجي سوى ثواب الوصول للمجد وتخليد اسمه بعمل عظيم.



▲ (Delsseps ex plains to the Said Pasha Suez Canal Project)

(ديلسيبس يشرح لسعيد باشا مشروع قناة السويس)

تغيرت خريطة العالم وأعلن سعيد فور وصوله للقاهرة أمام حشد كبير أنه قرر إنشاء قناة السويس، وسيقوم مسيو ديلسيبس بإنشاء شركة لهذا الغرض وبامتيازات لصالح الشركة المالكة التي ستقوم بتنفيذ المشروع لمدة 99 عامًا بعدها يصبح المشروع لصالح مصر بالكامل، ولن تحصل مصر إلا على نصيب 15 بالمائة فقط من أرباح المشروع، على أن توفر كامل احتياجات حفر القناة على نفقتها الخاصة، وسريعًا أسست شركة عالمية بجنسية مصرية ومقرها باريس وعيّن ديلسيبس رئيسًا لها، واستلم سعيد بعد تلك الواقعة بأسبوع وسام؛ لموافقته على إقامة مثل ذلك العمل العظيم، وتوجهت بعثة بقيادة ديلسيبس والعالم الجغرافي «ولينا دي بلفان» الذي يعرف كيف هي جغرافية مصر والمهندس «موجيل» القائم بحفر الكباري والمنشآت المائية إلى مكان الحفر، وبعد ذلك التاريخ بعامين تحول المكان من صحراء جرداء لخلية نحل مزدحمة بالمهندسين والعلماء والنجارين وعمال الحفر من كل حدب وصوب، هؤلاء العمال الذين اقتيدوا إلى شق وحفر القناة من كافة القرى والنجوع؛ فقد أصدر سعيد باشا مرسومًا ينص على أن الحكومة المصرية متعهدة بأن توفر العاملين الذي يطلبهم المهندسون وفقًا لاحتياجات العمل، وخصصت لكل عامل أجرة ثلاثة قروش بينما يدفع للأطفال دون الثانية عشرة قرش واحد لليوم، وبإمكاننا أن نتخيل كيف كانت علاقة العمل بين مهندسين تخرَّجوا من مدرسة البولتكنيك وفنيين من مدارس الفنون والصنائع والطرق والجسور، وبين هؤلاء الأميين الذين انتزعوا من ديارهم لحفر طرقات لا يفهمون إلى أين تقود، وكان يحق للمصاب والمريض من هؤلاء العمال أن يحصل على نصف أجرته، وكانت طريقة الحفر تجري بشكل مهلك ومهين حتى إنهم لم يتزودوا بالمقاطف، فكانت ترفًا بالنسبة لهم فقد استبدلوها بتشبيك أيديهم خلف ظهورهم ليحملوا بها الطمي المتخلف عن الحفر ويسيروا لمسافات طويلة منحنيي الظهور، إلى أن يلقوا به أرضًا في المكان المخصص لذلك، وأخيرًا كان بإمكانهم إقامة ظهورهم مرة أخرى، وكان المشرف على العمل يقوم بضرب المقصر رجلًا كان أو امرأة، وقد كان معظمهم يلقون من شدة التعب في الأرض التي حفرت بعمق، لم يستطع هؤلاء الفلاحون البسطاء التدرب على طرق الحفر بالمجارف والروافع وعربات الحفر، لذلك ترك مشرفو العمل هؤلاء العمال

يعملون بالشكل الذي يجيدونه، ووصفهم أحد المسئولين بالشركة وهم يعملون قائلًا: «نعم إنهم يعملون ويترششون بالماء ويضحكون إلى أن تظهر أسنانهم الناصعة البياض التي يتطلع إلى مثلها الكثير من نسائنا الجميلات». ولكن هل هذا الوصف كان مطابقًا لحقيقة شعور العامل البسيط الذي أخذ في الفرار من مشقة العمل؟ ولجأت الحكومة لنشر إعلانات في المدن والقرى والنجوع تطلب عاملين لحفر القناة، ولكن هؤلاء الذين لا يجيدون القراءة وحتى إن أجادوها لم يكن لهم أن يذهبوا إلى النار بأقدامهم، وكان مصيرها الفشل؛ لذلك لجأ الوالي لإحضار الفلاحين بالقوة الجبرية. ويقول فوزان بك مسئول العمل بالشركة: «بدءًا من يناير 1862م حل نظام السخرة مكان الأسلوب السابق في استخدام العمال».

وتحقق المثل القائل «مصائب قوم عند قوم فوائد»، فقد اختارت الأكاديمية الفرنسية للفنون موضوع شق قناة السويس لمنح جائزتها الثانوية في الشعر ودخل المسابقة 172 وفاز بالجائزة هنري دي بورنييه عن نص شعري يقول فيه: «إلى العمل أيها العمال الذين تدفعكم فرنسا، شقوا للعالم هذا الطريق الجديد. آباؤكم الأبطال وصلوا إلى هناك، وصلوا إلى هنا، فكونوا حازمين مثل أولئك البواسل». تلك قصيدة شعرية تمدح المهندسين والعمال الذين دفعت بهم فرنسا، ولكن ماذا عن الفلاحين المساكين؟! هل ذكرهم أحد حتى بكلمة شكر؟! وقد تبنى قضيتهم نوبار باشا وكان وقتها يشغل منصب وزير خارجية الحكومة المصرية في عهد الخديوي إسماعيل وجعل القضاء على قانون السخرة شاغله الشاغل وطلب إعادة النظر في الاتفاقيات المعقودة، فكان من غير المعقول أن يتم الزج بعشرين ألف عامل بصفة مستمرة، حتى يصلوا في واقع الأمر إلى ستين ألفًا. ويقول نوبار في ذلك: «كان سكان مصر محكومًا عليهم بأن يعطوا الشركة بالمناوبة بين شهرين وثلاثة من وقتهم ومن عملهم ومن حياتهم بلا أي مرتب، لأنه بالرغم من دفع فرنك عن كل يوم عمل كانت الشركة تطردهم بلا أي مرتب، وكانوا يدفعون ثمن الغداء على حسابهم». وعقد نابليون الثالث بناءً على شكاوى نوبار باشا المتكررة لجنة لدراسة الموضوع، وأخيرًا صدر قرار برجوع هؤلاء العمال إلى بيوتهم وإحلال عمالة أوروبية بدلًا منهم بمرتبات خيالية تدفعها مصر وتوريد ماكينات حفر على أحدث تقنية للعمل ليعملوا هناك عليها، وبذلك القرار أسدلت الصفحة على أذلِّ نظام للعمل في التاريخ وهو نظام السخرة.



▲ (Suez Canal by Mahmoud Said Egyptian painter)

(قناة السويس ـ محمود سعيد)

وهناك في مدن القناة أنشئت ثكنات حية ومطاعم ومقاهٍ ومعدات الحفر الحديثة، وأصبحت لا تتوقف عن العمل ليل نهار، وأصبح من المعتاد سماع اللهجات المختلفة على اختلاف الشعوب التي وفدت لتحفر القناة مع غناء وإنشاد العمال المصريين تارة وتذمرهم وتأففهم تارة أخرى. وأصبحت مدينة الإسماعيلية هي المقر الرئيسي للشركة؛ مدينة جميلة أطلق عليها فينسيا الصحراء، بني بها الكثير من الفنادق والحدائق وكانت الإدارة العامة للشركة تقيم حفلات موسيقية وثقافية للترفيه عن المهندسين والموظفين، وكانت سنوات حكم سعيد قد لاقت إقبالًا كبيرًا من الأوربيين للوفود على البلاد، سواء للعمل أو للسياحة، وأثنى الكثير من المستشرقين على فترة حكمه لإزالته جميع العقبات أمام العيش في البلاد بحرية عكس عباس باشا الذي سبقه في الحكم.

أهم مصادر هذا الفصل:

1 - مصر ولع فرنسي، روبير سوليه.

2 - مذكرات نوبار باشا.

3 - باريسي في القاهرة، كارل دي بيرير.

الفصل الثامن

الخديوي إسماعيل (1830-1895)

«لم تعد بلادي الآن في إفريقيا لقد أصبحنا قطعة من أوربا».

الخديوي إسماعيل



الخديوي إسماعيل ▲

إن كانت هناك تحية مبجلة لحاكم من أسرة محمد علي من بعده فلن يستحقها وعن جدارة إلا الخديوي إسماعيل في بناء مصر حديثة من مختلف الميادين ثقافية حربية، طبية أو تعليمية،حتى وإن كان لام عليه الكثيرون في تحميله خزينة الدولة الكثير من الديون التي كانت السبب الرئيسي لاحتلال إنجلترا لمصر لعهود من الزمان إلا أننا لا يحق لنا أن نغفل دوره في بناء مصر حديثة تضاهي مدن ودول أوربا بشتى الميادين، وأعتقد أنه لو كان أتيحت له الفرصة ولو كان قد خلع من قبل السلطان العثماني بأوامر من إنجلترا وفرنسا لكان تدارك تلك المساوئ ونجا بمصر من ذلك، ونحن في هذا الكتاب لسنا بصدد مناقشة حكم إسماعيل، ولكن

سأحاول أن ألقي وميضًا من الضوء على تلك الشخصية التي كان لها دور كبير في حركة العمارة والفنون في ذلك الوقت وربما كان الوصف الذي ذكره المؤرخ إلياس الأيوبي في فترة حكم إسماعيل هو أقربها إلى الحقيقة «رأت مصر على مر القرون من مظاهر العظمة ومجاليها وأبهة الملك وجلاله، وفخفخة الرسميات وجمالها، ما لا تحسد معه قطرًا في الوجود على ما أحرز من ذلك، ولكنه لم تتوال تحت قبة سمائها الصافية وعلى ضفاف نيلها السعيد،سلسلة أعوام أخذت نصيبها الأوفر من الجلالة والمهابة، والبهجة والأبهة، والجمال والفخامة،مثل أعوام حكم إسماعيل الست عشرة سنة، فقد كان حلمًا في دائرة العصور لم يتحقق إلا في دائرة عصوره».

كما كتب عن فترة حكمه قنصل أمريكا في مصر ألبرت فارمان في كتابه مصر وكيف غدر بها «تختلف الآراء بالنسبة لمزايا وعيوب عهد إسماعيل باشا باختلاف مصادر المعلومات والمقاييس التي يحكم بها عليه، ولم يمدح شخص في بادئ الأمر بهذا الإفراط ثم ذم بعد ذلك بهذا القدر مثلما حدث مع إسماعيل، كانت الصحف الأوربية تمدح التطور الذي أحرزه هذا الرجل الذي لقبه بعضهم بنابليون الشرق حتى إنه عند زيارته لأوربا كان الملوك والأباطرة يتنافسون في منحه ألقاب الشرف، وحينما تغيرت الأحوال المالية صوَّب نحوه أفَّاقو الصحف نيران التشهير والطعن». كما أرجى قنصل أمريكا في مصر كلًّا من إنجلترا وفرنسا لخلع إسماعيل بحجة أن حكومته فاسدة مؤكدًا أن باستطاعتهما بتلك الحجة أن يخلعا شاه إيران أو أمير أفغانستان أو حتى السلطان العثماني بنفسه، ثم يدخلوا في عقول العالم أجمع تصديق تلك المقولة، ويتحدث عن الأمان الذي وجده في فترة حكم إسماعيل قائلًا: «كان المسيحي طوال فترة حكم إسماعيل يتمتع بكافة حقوقه كاملة وكان الأجنبي مهما كانت جنسيته أو ديانته يستطيع أن يجوب من البحر إلى أواسط إفريقيا في أمان تام، ولو أنه استمر خديوي دون تحدٍّ من سلطته لكان الأمر ذاته ولما قامت حادثة حريق الإسكندرية أو ثورة 1881 وثورة 1882 ولم يكن حكم عرابي باشا، ولما كانت لتقذف الإسكندرية بالقنابل لتخرب وتحرق، ولما اضطرت الحكومة المصرية أن تدفع 200 مليون دولار تعويضات إضافية إلى الدين الوطني، ولما كانت هناك معركة التل

الكبير التي ذبح فيها الأهالي العزل من السلاح، ولما نجحت ثورة المهدي في السودان، ولما هزم وقتل هكسى باشا في كردفان مع عشرة آلاف من الجنود المصريين، ولما أرسلت حملة مشئومة إلى أعالي النيل لإنقاذ غوردن باشا دون ضرورة تذكر، ولما فقدت مصر والسودان وغيرهما من الولايات الواقعة في أواسط إفريقيا، ولما أرسلت حملة من الجنود المصريين والإنجليز تكلفت مصاريف باهظة تحملتها الخزينة المصرية لاسترداد الأقاليم الضائعة» كل ذلك لم يكن له أن يحدث إذا لم ينف الخديوي إسماعيل ذلك الرجل الذي تقدمت البلاد خلال ست عشرة سنة من حكمه أكثر مما تقدمت في الخمسمائة سنة السابقة على حكمه.

وقد أسهب الكثيرون في وصف إسماعيل ولكن كان الأكثر دقة اللورد فورمان قنصل أمريكا في مصر كتب في مذكراته قائلًا: «كان يبلغ من العمر وقتها سبعة وأربعين عامًا قصير القامة عريض المنكبين ضخم الجثة ولون بشرته أكثر سمرة من لون بشرة الأوربيين، أما جفناه فكانا مرتخيين وجفنه الأيسر كان أكثر ارتخاءً من الأيمن وعندما تكون ملامحه ساكنة تبدو عيناه وكأنهما نصف مغلقتين، وكان حاجباه فاحمي اللون خشني الشعر وبارزين إلى الأمام، أما لحيته فكانت بنية اللون وكان للخديوي عادة التحدث وإحدى عينيه مغلقة ويمعن النظر بعين واحدة بأدق التفاصيل في هؤلاء الأشخاص الذين يتحدث معهم وفي طريقتهم وربما أفكارهم، كان حديثه ممتعًا ولبقًا يبتسم في كثير من الأحيان بوجه بشوش يبعث على الاطمئنان، وكان صوته هادئًا يبعث على السرور فائق الذكاء ولديه معلومات دقيقة حتى عن التفاصيل التي تخص حكومته وشئونه الخاصة الواسعة»، تقلد إسماعيل الحكم في 1863 وكان قد تخرج في مدرسة سان سير العسكرية بفرنسا وربما كان الحفيد الوحيد لمحمد علي الذي يشبهه كثيرًا في تلك العقلية العلمية التي تمتاز بذكاء وطموح لا حدود له على الرغم من اختلاف عقود الزمان التي قدما منها وفيها وبالرغم من ذلك أيضًا إذا قمنا بعقد مقارنة بين الخديوي إسماعيل ومحمد علي باشا ستكون لصالح محمد علي بلا منازع، يكفيه شرفًا أنه تقلد حكم البلاد لبطولته الحربية بالرغم من انحداره من أسرة بسيطة وجهله بالكتابة والقراءة التي تعلمها في سن متأخرة من عمره، واستطاع في وقت قصير أن يؤسس دولة بجيش قوي، بينما إسماعيل وقد انحدر من أسرة حاكمة وتعلم

بأفضل كليات العالم وأشرف على تعليمه رجال من صفوة المجتمع الباريسي وبالرغم من كل ذلك لا يضاهي عقلية محمد علي شديدة الذكاء، ولكنه خطا على درب جده لاعتلاء سلم المجد وكان يعلم تمامًا أن أولى درجات هذا السلم هي الارتقاء بالجيش تمامًا كما فعل جده بتكوين جيش قوي قبل عقود من الزمان، طلب إسماعيل من الحكومة الفرنسية إرسال بعثة عسكرية 1864 لتدريب وتنظيم المدارس الحربية على النظم الفرنسية فأرسلت بعثة من أربعة ضباط أشرفت على إعادة إنشاء المدرسة الحربية التي أعاد نقلها من قصر النيل إلى العباسية، وأتاحت الفرمانات التي منحها السلطان العثماني لإسماعيل على رفع عدد الجيش إلى 160 ألف شخص على أن يتمكن من ضم الكثيرين من الشباب الذين يمتازون بالذكاء والشجاعة للجيش المصري الحديث، عندما بدأ الخديوي حكمه كان في مصر 246 ميلًا من السكك الحديدية فأضاف إليها 960 ميلًا بلغت تكاليفها 60 مليون دولار، وكان بها 350 ميلًا من التلغرافات، أضاف لها 5600 ميل وكان بها 405.000 فدان من الأراضي الزراعية، وأضاف إليها 1.370.000 فدان زراعي وكان بها قنوات ري 44.000 أضاف لها 8400 ميل وقد بلغت تكلفة القناة الممتدة من القاهرة للإسماعيلية حوالي 50.000.000 من الفرنكات، كما أنشأ ميناء الإسكندرية والسويس حيث بلغت تكاليفهما 20 مليونًا من الدولارات هذا بالإضافة للأراضي الشاسعة التي أضافها للسودان والتي استولت عليها إنجلترا وأطلقت عليها بكل فخر «الإمبراطورية البريطانية الجديدة في السودان» ويؤكد فارمان إن البؤس والاضطهاد والتخلف كانت منتشرةً في جميع البلاد الواقعة تحت الحكم العثماني بما فيها تركيا نفسها عدا مصر وذلك بفضل الخديوي إسماعيل.

وفي 1864م عندما كان يزور المعرض العالمي بباريس اندهش من ولع الفرنسيين بكل ما هو مصري قديم، كان الجناح المصري تتراص أمامه الطوابير الحاشدة وكان هو يجلس بعلياء يدخن الأرجيلة الذهبية ويتكئ على أريكة عربية ويحاور الصحفيين والفنانين وقد استقبل الجمهور في مبنى من الطراز العربي مزخرف ببذخ، كانت الحوائط الخشبية مجلدة بخشب أُحضر من قصور القاهرة وتتدلى من السقف ستة من قناديل المساجد ويوجد نسخة من القرآن فخمة مجلدة بجلد ماعز أحمر اللون كان كل شيء يصرخ بجمال الشرق

وفنونه، وخرجت الصحف في اليوم التالي تشيد بالجناح المصري وبالخديوي إسماعيل قائلة: «يتحدث إسماعيل باشا الفرنسية صحيحة تمامًا وبدون أي لكنة». وكتب تيوفيل جوتيه الكاتب الفرنسي: «حضور شرقي عذب ولابد أن يجد الزوار الراحة والهدوء والحيوية» وأمام الجناح الخاص بقناة السويس وقف ديلسيبس يشرح بنفسه المشروع على خريطة كبيرة ومنذ خروجه من هذا المعرض صمم أن يصنع من القاهرة باريس الشرق، وعمل كل جهده حتى يتحقق حلمه وخاصة أنه لم يعد هناك الكثير من الوقت على افتتاح حفل قناة السويس ذلك المشروع الضخم والذي دعا إليه ملوكًا وأمراء وشخصيات علمية وفنية بارزة كانت على رأسهم الإمبراطورة أوجيني التي استقبلته أثناء زيارته لافتتاح المعرض استقبالًا يليق به وبلقب خديوي الذي حصل عليه مؤخرًا من الباب العالي قامت سفن الأسطول البحري باستقبال المحروسة حين رست بميناء طولون 15 يونيه 1867 وأطلقت المدفعية نيرانها بلا انقطاع واستقبله البارون هوسمان حاكم السين مع كتيبة المشاة في محطة ليون لتحية الضيف واستقل خمس عربات هو وحاشيته قادته لقصر التويلري في حراسة حاملي السلاح بالحرس الوطني وفي قصر التويلري استقبلته الإمبراطورة الجميلة ومن حولها كبير فرسان القصر وكبير الحاشية القائد الأعلى للحرس الإمبراطوري ودعاه بعد ذلك الإمبراطور للغداء الملكي ثم حضر هو وأسرته الجناح المصري بالمعرض، في ذلك الوقت كانت باريس تضج بروح المعمار والتخطيط الجديد بفضل البارون هوسمان وهو سياسي قام بتجميل باريس وإحداث تغييرات أساسية فيها، ففكر أن القاهرة لا تقل جمالًا عن باريس، ونهر النيل أليس كثير الشبه بنهر السين؟ فماذا لو يشقه هكذا ويجعله يوصل ما بين أحياء القاهرة وتلك الكباري والمباني الأنيقة؟ لماذا لا يبني مثلها في مصر؟ وما ينقصه لكي يصنع من القاهرة مدينة تليق بتاريخها العظيم وتقف بكبرياء وشموخ تستقبل هؤلاء الملوك الوافدين لحفل افتتاح قناة السويس، وكانت تلك الفكرة هي انطلاقة الشرارة الأولى لإحداث التغييرات في عقل رجل صرح قائلًا: «إنه عاشق الحجارة والمونة»، فطلب من الإمبراطور رأسًا السماح له بتشكيل بعثة هندسية وفنية على أعلى مستوى لتخطيط القاهرة بقيادة هوسمان وبالفعل سمح الإمبراطور بذلك وتشكلت

بعثة على أحدث مستوى من مهندسين ونحاتين وفنانين ونجارين لتفصيل قاهرة جديدة وفي لقاء لهوسمان بنوبار سكرتير الخديوي قال له: «إن الخديوي يطلب مني أن أحضر المهندسين والفنانين من كل نوع، حسنًا بإمكاني أن أمده بهم ولكن هل لديكم في مصر رجل باستطاعته التحكم في كل ذلك الهرج والمرج؟». وها قد وصلت البعثة إلى القاهرة، فطلب الخديوي من ليبون الفرنسي إنارة القاهرة بالغاز بعد أن أنجز ذلك في الإسكندرية، وحصل فرنسي آخر هو كرديه على حق توزيع المياه في القاهرة وكان حي وسط البلد الذي كان يسمى بالإسماعيلية نسبة إلى بانيه أول المنتفعين بذلك، وقد قسمت الأراضي المهجورة الشاسعة الواقعة بين الأزبكية والقصور على ضفاف النيل ووهبت مجانًا بشرط إقامة مبانٍ حديثة يراعى فيها الجمال والفن ولا تقل تكلفتها عن ألفي جنيه وأخرجت تلك الفكرة المباني الحديثة بتصميمات الباروك وزخارف الركوكو على شرفاتها ومداخل مبانيها، وتمت مقابلة بين إسماعيل وباريه ديشان المهندس الفرنسي الذي أنشأ غابة بولونيا وتعاقد معه على منحه الفدادين العشرين التي تقع بقلب القاهرة ليصنع منها حديقة كغابة بولونيا بباريس ذلك المتنزه الكبير والجميل، وقد وافق ديشان وبدأ العمل فيها بعد ردم البركة التي كانت تتوسط الميناء ليصنع متنزهًا لا مثيل له بأسياج عالية من القضبان الحديدية المشغولة وعين الخديوي مسيو «باريليه» الفرنسي ناظرًا لها ولجميع المتنزهات الأخرى.



▲ حديقة الأزبكية

وحديقة الأزبكية كانت تعبرها طرق ممهدة بالرمل والحصى وتنيرها الفوانيس وتتكاثف أغصان الأشجار عاليًا، بينما تتوسطها بحيرة صناعية وجداول مائية وكشك للتصوير الفوتوغرافي وكشك للموسيقى يعزف موسيقى عسكرية وشرقية، ومسرح صغير تقدم فيه أعمال مسرحية قد جلب أثاثه وستائره من باريس وحجز أربع لوجات لافتتاحه للخديوي وحريمه. وفي وصف تلك الحديقة قال فورمان: « تقع حديقة الأزبكية بنافوراتها وجبلاياتها،ومغاراتها، وتحتل عشرين فدانًا أو يزيد كما تتخللها الطرقات الجميلة والشجيرات الصغيرة والأشجار العديدة النادرة التي جلب معظمها من الهند ومن بين تلك الأشجار « البنيان»، وهو نوع تتدلى فروعه إلى الأرض وتمتد أغصانها من باطن الأرض إلى التربة فتكون أصولًا جديدة، وإنك لتسمع صوت البط في مجاري المياه الصناعية وترى البجع الأبيض والأسود وهو يتهادى برشاقة على سطح البحيرات كما تشاهد قوارب النزهة الصغيرة تشق الماء ويمرح فيها الأطفال، ويتدفق إلى تلك الحديقة عصرًا ومساءً القاهريون من جميع الطبقات لكي يتنزهوا ويستمعوا إلى الموسيقى ويشاهدوا ألعاب الشعوذة، وبهذه الوسيلة يتيحون للأجنبي فرصة عجيبة لأن يشاهد خليطًا من الناس من كافة الأشكال والألوان والأجناس والديانات والذين يتكون منهم سكان القاهرة، كما يحيط بالقاهرة مبانٍ فخمة من بينها دار الأوبرا»، ولعله بهذا الوصف الشامل يعجز اللسان عن التعبير بعده.

كذلك أنشئت حديقة الحيوانات على مساحة كبيرة وجلب لها جميع أنواع الحيوانات من مختلف أنحاء العالم، أما بالنسبة للجوامع والمباني الأثرية فقد اكتفى بترميمها وبتجديد دهانها من الخارج، وقد كان توافد كل هؤلاء الفنانين والمعماريين نافذة أوربية، فالتغيير لم يكن من الخارج فقط، ولكنه كان داخليًّا أكثر منه خارجيًّا كان قد بدأها الخديوي نفسه عندما ظهر وهو يركب عربة مكشوفة تجرها خيول ترتدي لباسًا فرنسيًّا ويقودها سائقون بملابس رسمية ولم يعد القشمشجية الذين يسبقون العربات لإفساح الطريق وهم يمسكون بعصا طويلة ويصيحون حفاة القدمين بل أصبحوا يركبون الخيل ويسبقون العربة الملكية المذهبة وقد كتب قنصل فرنسا «إن نائب السلطان يتقارب بشكل

كبير من الجالية الأوربية وتخرج بناته وزوجاته في عربات مغلقة أو مفتوحة مثله ويسير الخدم خلفهن وترافقهن الوصيفات، يلبسن أحدث الأزياء»، كما تغيرت عادات الغذاء وأدخلت أطعمة جديدة على المائدة المصرية، وأصبح المصريون ينعسون بعد الظهيرة ويسهرون بالخارج مساء، بفضل المسارح والمتنزهات الجديدة. وانتشر الأوربيون في البلاد وبخاصة الجالية الفرنسية فكان عدد سكان مصر في منتصف القرن التاسع عشر حوالي خمسة ملايين نسمة من بينهم 150 ألف نسمة أوربي منهم ما لا يقل عن 15 ألف فرنسي. أنشئت المدارس الفرنسية كالفرير التي اشتهرت في عام 1865 عندما اجتاح وباء الكوليرا القاهرة، وفي الوقت الذي كان يفر فيه الجميع من البلاد قام الرهبان الفرنسيون بإقامة مستوصف لتقديم الخدمات الطبية المجانية بالتعاون مع راهبات مدارس الراعي الصالح والقلب المقدس، وكتبت جريدة إجيبسيان تصف المشهد قائلة: «كانت القاعات تشهد تجدد موتاها من المرضى مرتين كل أربع وعشرين ساعة»، ومات على إثر ذلك الوباء أعداد كبيرة من المصريين وخاصة الجنود الذين أرسلهم الخديوي للسودان.

انتشرت الفنون والثقافة بشكل كبير وشجع الخديوي على توافد أعداد كبيرة من الفنانين والأدباء من كافة بلدان الأرض ومنحهم الحرية اللازمة لخروج أعمالهم بشكل جيد، وقد أشاد الفنان الفرنسي جيروم بشخصية الخديوي إسماعيل بعد مقابلة معه، وبعث له ألبومًا من الصور الفوتوغرافية يضم كل الصور التي كان يلتقطها في تجوله بأنحاء البلاد.

في اتجاه آخر لإتاحة نيل المرأة المصرية قسطًا من التعليم والثقافة افتتحت زوجة الخديوي أول مدرسة للفتيات في مصر، وأشرفت عليها كبيرة الوصيفات بالقصر، وفي البدء لم تستمل تلك المدرسة عقول أهالي الفتيات لتعليم بناتهم، وتشجيعًا لها أرسلت بنات الخديوي وأقاربه وجواري القصر الملكي، لم يكن الوضع في القاهرة فقط الذي يجري على قدم وساق، فهناك في الإسكندرية والصعيد والإسماعيلية وبورسعيد والسويس كان الأمر سواء، واهتم الخديوي إسماعيل بتجديد وإنشاء خطوط السكك الحديدية وعيَّن نوبار باشا مديرًا لها، وكان هناك فرق بين حالة تلك المحطة في عهدي سعيد وعباس هذا

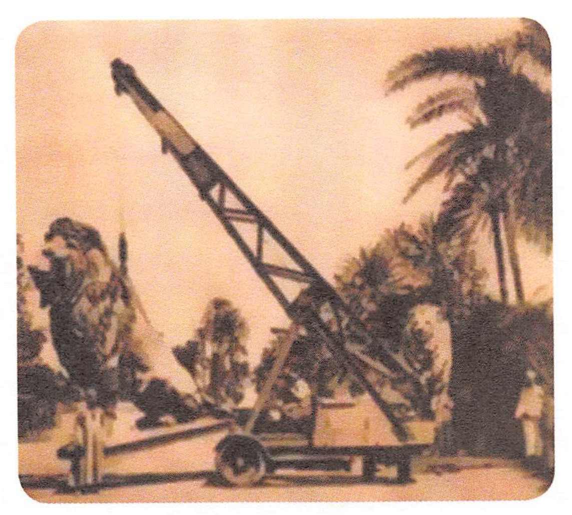
الذي ظل يتبع حدسه الخائب في ذلك الوقت الذي كان ينبهه أن يغلق معظم المدارس قائلًا: «ما حاجتنا لتفتيح عقول البشر؛ لأنهم بعد ذلك بسهولة بإمكانهم محاسبتنا؟». بينما في عهد إسماعيل وكأنه قفزة في ساحة الثقافة والتعليم فقد افتتح الكثير من المدارس وبعقد مقارنة بسيطة نجد أنه في نهاية عهد سعيد كان عدد المدارس 185 مدرسة فقط زاد خلال حكم إسماعيل إلى 1784، وكان عدد التلاميذ ما بين ثمانين ألفًا ومائة ألف طالب، واهتم بمستشفى القصر العيني الذي أنشأه جده محمد علي ولم يتوقف الأمر فقط على نشر المدارس، ولكن على نشر الثقافة والعلوم ويقول علي مبارك وزير المعارف وقتها والذي أعلن صراحة: «إن التعليم في عهدي عباس وسعيد يكاد يكون معدومًا». وتلك الشعلة التي تسري في عقل وجسد إسماعيل لإنماء الدولة في كافة المجالات جرأته ليطلب منه إنشاء كتبخانة خديوية كتلك التي في باريس فأذن له على الفور بإنشائها مرحبًا بالفكرة ومازالت دار الكتب تشغل مكانها الذي افتتحت فيه ليومنا هذا.

توالت الصحف والجرائد في صدورها تباعًا كانت أهمها جريدة الأهرام التي أنشأها بالإسكندرية إبراهيم وبشارة تكلا، والوطنية، وجريدة الأدب التي أنشأها علي يوسف، كذلك انتشر صدور الكثير من الصحف والجرائد الأجنبية وبخاصة الفرنسية، وكانت مجلة أبو نضارة لصاحبها يعقوب صنوع هي الأكثر سخرية من سياسة الخديوي وبخاصة في تقربه للأوربيين وصرفه ببذخ على إقامة الحفلات وبخاصة حفل زفاف أنجاله، وقد طور الخديوي خطوط البريد والتلغراف، وعند تشغيل التلغراف لأول مرة في مصر لم يصدق هؤلاء العاملون في المكاتب أن بإمكان أصواتهم إن تُوَصَّل عبر أسلاك كل تلك المسافات فكلفوا خزينة الدولة ما لا يقل عن 150 ألف جنيه بسبب اختبارهم ذلك الاختراع في كلام ليس له أي أهمية، وعندما علم الخديوي إسماعيل بذلك قرر ألا تستعمل التلغرافات إلا في الأهمية القصوى فقط وإلا سيتعرض الموظفون للعقوبة.

لم يكن الخديوي إسماعيل من محبي مدينة الإسكندرية؛ لأن نبوءة أحد العرَّافين كانت قد أخبرته يومًا أنه سيلقى حتفه بها، ولكن وبالرغم من ذلك لم يهملها، فالإسكندرية كانت في ذلك الوقت بمثابة مدينة عالمية تضم جميع طوائف الشعب وأجناس العالم،

لذلك أدخل عليها التطوير والتخطيط حتى إنه قد أمر بإدخال الغاز لإنارتها قبل القاهرة، ومن أشهر الحفلات الاجتماعية خلال تولية حكم إسماعيل حفل زفاف الأنجال الذي احتفل فيه الخديوي بزفاف أولاده الذكور الثلاثة وابنته، وقد تكلف الكثير من الأموال ويعتبر الحفل بمثابة أشهر أفراح القرن، وقد بدأ الاحتفال به يوم الأربعاء 15 يناير 1873 ولمدة أربعين يومًا متصلة علقت الزينات في سرايا الجزيرة والأحياء المحيطة، وسميت تلك المنطقة بالمنيرة كناية عن الزينات واللمبات التي أنارت شوارعها حتى غدا ليلها نهارًا، ورصت الموائد ودعي جميع أصناف الشعب ومختلف فئاته ووزعت عليهم الهدايا وأطلقت الألعاب النارية وقدم البهلوانات والحواة والراقصات عروضهم في كل شوارع المدينة وخرج شوار العرائس على هودج من ذهب تتقدمه الفرق الموسيقية وصفوف الفرسان بزي عربي بديع، ووضعت الهدايا في أسبتة مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب على مخدات من القطيفة مزركشة بالذهب والماس يغطيها شاش فاخر يمسك بها أربعة عساكر في كل عربة ويتبعهم ضباط بملابسهم الرسمية والسيوف مشهرة في أيديهم، وكانت الهدايا من الجواهر والألماس وأجملهم هدية مقدمة من الخديوي لأكبر أبنائه: سرير من الفضة الصب الخالصة يشبه كثيرًا الذي أهداه للإمبراطورة أوجيني أثناء إقامتها في مصر مطعَّم بماء الذهب وعواميده الأربعة الضخمة مرصعة بالماس والياقوت الأحمر النادر والزمرد، فقد كانت الضرائب التي أهلك بها الخديوي إسماعيل شعبه المسكين هي الأكثر مثارًا للأقاويل وسخط الأهالي وكانت أكثر تلك الضرائب غرابة هي الضريبة التي أمر بجمعها عند افتتاح كوبري قصر النيل، فكل فرد أو دابة عليها المرور من فوق الكوبرى يلزم لها دفع رسوم خاصة، والأغرب منها تلك الضريبة التي كان يحصلها على حصة الملح التي توزع على الأفراد وتسمى بضريبة الملح، كان الخديوي إسماعيل مولعًا بالقصور الفخمة والعيش المترف لذلك كان يبني القصر وقبل الانتقال للعيش فيه يكون قد أهداه أو باعه لأحدهم ويأمر ببناء غيره وربما من أشهر القصور في عهد إسماعيل قصر عابدين وقصر الجزيرة الذي بناه الخديوي إسماعيل وخصصه لاستقبال الوفود الملكية التي ستحضر افتتاح حفل القناة وعلى رأسهم الإمبراطورة أوجيني، وقد

صمم هذا القصر على النظام الأندلسي وأدخلت فيه العمارة الإسلامية ونحتت فيه التماثيل وعلقت على حوائطه رسومات بريش أمهر الفنانين الأوربيين، وكان قطعة فنية وقد تم جلب الأثاث والمفروشات من فرنسا خصيصًا له، كذلك أمر بإنشاء كوبري يصل ما بين الجزيرة والقاهرة بتكلفة تقدر بـ 113 ألف جنيه، فكان كوبري قصر النيل الذي أنشئ على نهر النيل بطول 406 أمتار وكان من أجمل جسور العالم في تصميم محامله من الحديد المنحوت ولأربع من السباع البرونزية التي تقبع بشهية الافتراس في مقدمة ونهاية الكوبري، وقد نحتت تلك الأسود بأنامل الفنان الفرنسي جاكمار ولقب إسماعيل باشا بسبب تلك السباع بلقب «أبو السباع».



▲ تمثالا كوبري قصر النيل أثناء تركيبهما

أمر إسماعيل باشا بإنشاء دار الأوبرا المصرية بتصميمها على نهج أوبرا إيطاليا وباريس، وقد قام بتصميمها المعماريان بيترو أوفسكاني وروتسبي وكان تصميمها غاية في الأناقة والفخامة، وقد خطط إسماعيل لافتتاحها بأوبرا عايدة، هذا العمل كان قد تأخر فقدمت أوبرا ريجيوليتو في الافتتاح الرسمي الذي حضره الخديوي والإمبراطورة أوجيني، وقد كتب أوجست مارييت عالم الآثار الشهير والفنان التشكيلي الذي كان مدير مدرسة بولوني سيرمير الفرنسية للرسم رسالة إلى شقيقه إدوارد يقول فيها: « تصور أنني وضعت

أوبرا... أوبرا كبيرة يقوم فيردي بوضع موسيقاها... إن نائب الملك - المقصود الخديوي إسماعيل - سينفق عليه نحو مليون.. لا تضحك.. هذا حقيقي». لقد قام مدير الآثار المصرية بوضع نص الأوبرا واستأنف مجددًا هواية الرسم حيث استعمل مرة أخرى الألوان المائية لرسم الأزياء والديكور والمجوهرات، وعايدة فتاة حبشية، وتدور أحداث قصتها على ضفاف النيل وأراد الخديوي أن يقوم بتلحين الموسيقى الموسيقار الإيطالي فيردي، فطلب منه ذلك، فرد قائلًا: «ليس من عاداتي تأليف قطع موسيقية للمناسبات». ومع إلحاح الخديوي وافق ولكن بشروط مالية لا تقل عن 150 ألف فرنك تدفع ذهبًا، وأعلن أنه ليس مضطرًّا للذهاب إلى القاهرة لمشاهدة البروفات، وذهب مارييت لفرنسا ليصمم الملابس والديكور بنفسه وكتب لأخيه شاكيًا: «أنا مؤلف العمل ولم أحصل على أي أموال إضافية، فقد اكتفى الخديوي بمنحي مرتبي كمدير للآثار، في حين أنني سأفلس بسبب نفقات الفندق الباريسي الذي أقيم فيه»، وبينما مارييت بفرنسا يجهز للإعداد للأوبرا تقوم الحرب السبعينية بين فرنسا وألمانيا 1870، ولم يستطع مارييت مغادرة البلاد، ولسوء الحظ كان العقد ينص على أنه إذا لم تعرض أوبرا عايدة في القاهرة في التوقيت المتفق عليه فيحق لفيردي عرضها على أي مسرح آخر، ولكن فيردي تجاهل هذا الشرط للظروف التي حدثت وقتها، وعندما قدمت على المسرح في وقت متأخر عن أحلام الخديوي بأن تشغل أوجيني الجميلة المقعد المجاور له وتكون على مقربة منه وهما يتمتعان بمشاهدة المسرحية حضر هو افتتاحها في وقت لاحق بمصاحبة الباشاوات والقناصل الذين لم يسع عقلهم أن يستوعب هذا الجمال وبهرت السيدات اللاتي كن يشاهدن العرض من خلف غلالة خفيفة من الدانتيلا. في نهاية العرض تم التهليل للخديوي ولفيردي أيضًا الذي منعته العقدة التي يعاني منها من ركوب السفن من حضور العرض، في حين أمر مارييت بألا يتم التفوه باسمه خوفًا من السخرية التي قد يلاقيها في حالة فشل العرض، ولكن بعد ذلك بسنوات ندم أشد الندم عندما لم يذكره أحد بخصوص ذلك العمل الذي كان يرتبط باسم رجل واحد وهو فيردي، ولكن مازالت نصوص ذلك العمل ووثائقه محفوظة بدار الأوبرا بباريس تحتفظ بحقه في هذا العمل اللافت للنظر.



▲ دار الأوبرا الخديوية

النحات الفرنسي أوجست بارتولدي الذي زار مصر مع الفنان الفرنسي جيروم 1855م، ووقع في غرام النحت الفرعوني كان يخطط لتمثال «مصر تنير الشرق»، وخلال زيارته لمصر في المرة الثانية عرض على الخديوي إسماعيل مشروع تمثال ضخم لفلاحة مصرية رافعة ذراعها وترتدي غطاء رأس فرعونيًا، ولكن الخديوي إسماعيل رفض فكرة غطاء الرأس الفرعوني وتوقف العمل بهذا المشروع وبعدها بعدة سنوات نصب تمثال الحرية الشهير بولاية نيويورك الأمريكية، بعدما اتجهت جهة صناعة التمثال صوب أمريكا ليكون هدية من فرنسا لها.

وإن كان الخديوي إسماعيل أنهك خزينة الدولة بكل تلك المظاهر، البعض منها بدون شك في صالح تنمية البلاد، فإن هذا لا ينفي مدى ولع الخديوي بالإنفاق ببذخ وبخاصة على الأجانب والأوربيين المحاط بهم، وقد قال مسيو جابريل شارم: «كان إسماعيل يغترف المال من الخزانة العامة بكلتا يديه ليس لأغراضه الشخصية فقط بل ليسد طمع الملتفين حوله، فكم من الإنجليز والإيطاليين والفرنسيين كانوا تعسروا في بلادهم ثم عم عليهم الرخاء والنعيم في مصر! لقد كان الخديوي باستمرار مستعدًا أن يهبهم المنح والمراكز والقصور

أو يعهد إليهم التوصيات على التوريدات ويربحون من تلك التجارة أرباحًا باهظة». وبالرغم من ذلك الرأي فإنَّ هناك واقعة ذكرها مسيو بتلر رئيس البلاط في القصر توضح أن الخديوي إسماعيل كان يفضل أبناء شعبه على الأوربيين وأنا أظهر عكس ذلك لكي يكسب ودهم واتقاء شرورهم، حكى بتلر قائلًا: «إن طاهر باشا الشمسي ناظر الخاصة في الخديوية كلف عدة محال تجارية بتقديم مناقصات لتقديم كل ما يلزم من مفروشات لجهاز الأميرات الأربع ووقع اختياره على محل باسكال الفرنساوي الذي يمتاز بجودة البضاعة ورخص ثمنها، وعند عرض الأمر على الخديوي إسماعيل سأله: «ألم يتقدم في هذه المناسبة محل مصري؟» فأجابه ناظر الخديوية: «نعم يا مولاي قد تقدم محل مدكور، ولكن الثمن الذي طلبه يزيد على محل باسكال بنسبة خمسة وعشرين بالمائة». فأجابه الخديوي: «اشتر جميع الأغراض من محل مدكور وادفع له الخمس والعشرين بالمائة الزائدة»، فاستغرب ناظر الخديوية، وأمام استغرابه أجابه الخديوي قائلًا: «يا طاهر باشا إن كانت المحلات المصرية لا تستفيد ولا تنتفع من أفراح أولادي فمن عساه أن يستفيد؟!».

وعلى عكس جده محمد علي الذي عمل على أن يستبعد المصريين من المناصب العليا من الحكم حتى لا يتمكنوا منها فيما بعد، وأن يكون الحكم من نصيب الأتراك، أما المصريون فإن دورهم ثانوي وحرص عباس وسعيد باشا على أن يحذوا حذو جدهما، فنجد أن الخديوي إسماعيل كانت الحكومة في عهده أكثر كوزموبوليتانية، فمماليك إسماعيل ومماليك أقاربه والأرمن والأتراك واليونانيون وقلة من المصريين أصبحوا يملئون المناصب الكبرى، وفي هذا كتب ألفريد فون كريمر صاحب كتاب «Egypten»: «إنه لمن السخف ألا نجد في وزارة شريف باشا مصريًّا واحدًا». بينما كتبت ليدي دف جوردون في كتابها «خطابات من مصر» عندما كانت متجهة للقلعة لحضورها افتتاح مراسم مجلس شورى النواب وأثناء حديثها مع بعض النواب وجدت أن معنوياتهم منخفضة، فسألتهم عن السبب وهم الآن يشاركون في حكم مصر، فردوا عليها قائلين: «من ذا الذي يعيش على ضفاف النيل ويستطيع قول أكثر من كلمة حاضر؟!».

توسع إسماعيل في عهده في إلحاق أعداد كبيرة من ضباط جيشه بالحاشية العسكرية،

وكان من بينهم من أعلنوا الثورة على ابنه توفيق في الثورة العرابية فيما بعد، ويعتبر ذلك دليلًا على روح التسامح التي كان يتمتع بها الخديوي إسماعيل، فالبلاط الخديوي أصبح يضم عددًا كبيرًا من الضباط المصريين بجانب الأتراك.

أسس الخديوي إسماعيل البلاط الملكي بمعناه الواسع، وكانت هناك محاولات لمحمد علي باشا وعباس وسعيد باشا لإنشاء بلاط ملكي، ولكنها كانت محاولات متواضعة، فالبلاط الملكي بكل ما تعنيه الكلمة من معنى كان الفضل في تأسيسه للخديوي إسماعيل، وكان البلاط يحمل السمة الأوربية في العموم، واقتبس النظام الفرنسي في كل كبيرة وصغيرة وقد استمر نظام البلاط وبروتوكوله إلى قيام ثورة يوليو 1952.

ومن أشهر ميزات بلاط إسماعيل الذي يحمل السمة الفرنسية حفلات « البال‍لو» وهي تمامًا الحفلات الراقصة التي كانت تقام في القصور الأوربية، وقد أقام أول باللو احتفاء بقدوم الإمبراطورة أوجيني لافتتاح حفل قناة السويس؛ حيث أقامت عدة حفلات في الإسماعيلية وفي قصر النيل وسرايا الجزيرة بالقاهرة وفي مجمع التجار الأجانب بالقاهرة ووصفت جريدة الوقائع المصرية هذه الحفلات: «وعلى ما بلغنا أن ذلك الباللو أقيم ليلًا وحضر المدعوون بملابسهم الرسمية وبنياشينهم».

وكان رجال التشريفات بملابسهم الرسمية يختارهم الخديوي بعناية فائقة، فيجب أن يتمتعوا بثقافة واسعة ووسامة كبيرة حتى يتسنى لهم استقبال الزائرات في الحفلات الرسمية ويقومون بتوصيلهن للمضيف بعد انحناءة بسيطة ويرجعون أدراجهم لاستقبال زائرة أخرى، وكان يسمح لهم بمراقصة السيدات في الباللو تحت مراقبة الخديوي.

وقد أدى التعامل مع الأوربيين في كافة المجالات التجارية آنذاك إلى تغير التاريخ القبطي الذي كانت مصر تعمل به إلى التاريخ الميلادي حتى لا يحدث خطأ ما في تدوين تاريخ بشكل أو بآخر، وبالرغم من المظاهر المبهجة التي طفت على السطح خلال حكم إسماعيل، فقد كان هناك الكثير من المصاعب التي شهدتها البلاد، فلم تكن الستة عشر عامًا خلال مدة حكم إسماعيل جميعها مناسبات سعيدة وأفراحًا وليالي ملاحًا، فقد تعرضت البلاد خلال تلك الأعوام لعدد كبير من الكوارث اختبر فيها الخديوي إسماعيل عن مدى

حبه لشعبه ووطنه، ففي الكوارث والمحن شمر هذا الرجل عن ساعديه لمساعدة الوطن، فخلال حكم إسماعيل خرج النيل عن أطواره المألوفة ونسبه المعقولة فسنة يفيض ماؤه زيادة كبيرة وسنة يقل ويشح، وفي كلتا الحالتين تتعرض البلاد لمجاعات وغلاء في الأسعار وكساد في البضائع، وبالرغم من إقامة الجسور التي أمر إسماعيل ببنائها في المدن والقرى منذ توليه الحكم فإن منسوب المياه كان أكبر بكثير من أن يصده شيء بل في أحيان كثيرة كانت قوة اندفاع الماء تؤدي إلى كسر تلك الحواجز، وكان الخديوي ينزل بنفسه ليتابع تلك الأمور وينظر في أحوال رعيته ويقوم على الفور بإصدار الأوامر بمساعدتهم وفك أزماتهم، ومن أكبر الحوادث التي تعرضت لها البلاد خلال حكم إسماعيل كان حريق الحمزاوي الشهير، والحمزاوي هو وكالة كبيرة ومستودع يشمل أجود أنواع البضائع وأثمنها من مفروشات وأقمشة. وفي إحدى ليالي صيف 1863 شبت نار هائلة، وقضت على السوق بأكملها وتجاسر الأهالي مع رجال الحفظ العام في إطفاء الحريق، وعلينا أن نتخيل مدى الجهد المبذول في مدينة لم تصل المياه بعد إلى صنابيرها ولا وجود لوحدة إطفاء حرائق مثل يومنا هذا، وأخيرًا كانت قد خمدت النيران وقدرت الخسائر بملايين الفرنكات، فمد الخديوي إسماعيل يد المساعدة من ماله الخاص للمتضررين وأقرضهم الكثير من الأموال بدون فوائد، وفي نفس العام حدث وباء عالمي للمواشي والخيول قضى على جميع المواشي بطريقة مروعة بالرغم من الاحتياطات التي اتخذتها الحكومة المصرية، فانقطعت اللحوم والسمن واللبن، فبعث الخديوي لإرسال شحنات من الألبان والمسلي من الأناضول، وأمر بتوزيعها مجانًا على المحتاجين، فتزاحموا على الوكالات ومواقع التوزيع واشتكى الأهالي من أن مذاق اللحوم والمواد المستوردة مختلف عن المذاق المصري الأصيل، كذلك استوردت آلات بخارية حديثة لري الأراضي الزراعية بدلًا من الثيران التي قضت نحبها تأثرًا بالمرض الذي انتشر في أرجاء البلاد، أما عن الوباء الأكثر رهبة وخوفًا وبطشًا فهو الكوليرا الذي تتتابع زياراته المتكررة على مصر خلال أعوام 1831، 1848، 1850، 1855، 1865، ولم يكن هذا الوباء معروفًا خلال زيارته الأولى للبلاد عام 1831م فترة حكم محمد علي، لذلك حصد الكثير من الأرواح وأشار مسيو ميمو

قنصل فرنسا العام وقتها على محمد علي بإنشاء «الانتدانتس سانتير» وهي إدارة صحية لمتابعة الأوبئة والعمل على عدم انتشارها، وأقامت الحجر الصحي في البلاد الساحلية مثل الإسكندرية والسويس والعريش ودمياط،وقررت مدة حجر للسفن القادمة عن طريق البحر حتى يتأكد أنها خالية من أي وباء،وعندما ظهر الوباء 1865م بمدينة مكة المكرمة أمر الخديوي بتقصي الحقائق، وبعث مندوبًا للتأكد من ذلك، وتلاشى الوباء من مكة بمغادرة الحجاج إياها، ولم يظهر على المسافرين بالسفن بفضل هواء البحر، إلا أنه إثر اختلاط العائدين بالشيالين خلال فترة الحجر الصحي انتقل المرض، وظهرت أول حالة في 11 يونيه 1865م في مدينة الإسكندرية ومنها لينتشر المرض في سائر أنحاء البلاد، ولمدة ستين يومًا قضى فيها 12429 شخصًا نحبهم متأثرين بإصابتهم، وقد لوحظ أن المرض في درجات الحرارة المرتفعة تكون ضحاياه أكثر من درجات الحرارة المنخفضة أو المعتدلة، وخلال مدة اجتياح الوباء البلاد تابع الخديوي حالات المرضى وعمل الأطباء والحجر الصحي بنفسه وأخيرًا ترك البلاد ذاهبًا إلى فيشي للعلاج بعدما أوكل مهمة الحفاظ على أمن البلاد لشريف باشا، بينما أوكل لنوبار باشا أمر الاهتمام الكلي بالقضاء على الوباء، ومن القرارات المهمة التي لا نستطيع إغفالها للخديوي إسماعيل قانون تحريم ومنع تجارة الرق بجميع أشكالها، كما وضع قوانين تحرم تلك التجارة ومنع بيع العبيد بين الأسر المصرية، وسمح لكل من أنجاله بالاكتفاء بزوجة واحدة مثالًا لإيقاف تعدد الزوجات والمحظيات من الجواري البيض.

وقد أدت عوامل سياسية ومالية ودسائس مفتعلة من أتراك وإنجليز بالخديوي إسماعيل إلى خلعه من قبل السلطان العثماني وتولية ابنه توفيق حكم البلاد، وربما شهد قصر عابدين في ذلك التاريخ على حزن طاغ عم جنباته بتلك البرقية التي استقبلها القصر في 26 يونيه 1879م من السلطان العثماني، كتب في مقدمتها «إلى إسماعيل باشا خديوي مصر سابقًا» لتأتي كلمة سابقًا وتقضي على أحلام وآمال عريضة لرجل اعتلى عرش البلاد لأكثر من ستة عشر عامًا، عمل خلالها بكل جد وصبر ومصابرة، ووقع رجال الخديوي في ورطة تسليم تلك البرقية إلى الخديوي، فمن يملك جرأة الذهاب بخبر مشئوم مثل ذلك. وأخيرًا كان

على شريف باشا كبير الوزراء وقتها تسليم البرقية للخديوي إسماعيل، وبخطى مترددة كان يقف أمامه، ويسلمه البرقية التي كان محتواها «فيما أن بقاءكم في منصب الخديوية لن ينجم عنه سوى مضاعفة الصعوبات الحالية وزيادتها خطورة، فجلالة مولانا السلطان قرر تعيين صاحب السعادة محمد توفيق باشا، وعليه أدعوك للتخلي عن شئون الحكم». ترى ما الإحساس الذي تملَّك الخديوي وقتها وهو يقرأ قرار عزله بنفسه؟ وأيًّا كانت قسوة وقع الخبر عليه، وبخبرة رجل محنك أخفى تلك المشاعر وأشاع الهدوء في نفسه وطلب بصوت خفيض من شريف باشا قائلًا: « ادع توفيق باشا حالًا» وفي قصر عابدين قابل توفيق الخديوي إسماعيل الذي أخذ يد ابنه ورفعها إلى شفتيه وقام بتقبيلها تعبيرًا عن الخضوع وكانت تلك إحدى العادات المتبعة وقتها ثم بصوت خفيض بعدما قبله على وجنتيه همس قائلًا: «أحييك بصفتك أفندينا وأتعشم ألا تنسى أنني والدك». وبعدها وفي أسرع وقت ومن داخل قلعة صلاح الدين - تلك التي شهدت الكثير من المحن والمفاجآت والكثير من الحفلات والمصائب - انطلقت المدافع بعدما أعلن توفيق باشا خديوي لمصر بدلًا من إسماعيل، ليقف يومها منتشيًا بما يليق بخديوي يستقبل المهنئين، بينما انزوى الخديوي إسماعيل باشا في ركن قصي بغرفة مكتبه؛ جلس يفكر وحيدًا ثم أخبر ابنه بأنه يريد مغادرة البلد يوم 30 يونيه وفضل أن يعيش ما تبقى له من عمر في الأستانة أو أزمير ولكن السلطان عبدالحميد الذي اعتلى العرش حديثًا ولم يكن ثبت أقدامه بعد، رفض طلبه كما أنه ألغى جميع الامتيازات التي مُنحت للخديوي إسماعيل، والتي دفع في مقابل الحصول عليها الكثير،وعلم ملك إيطاليا بما حدث للخديوي إسماعيل فوضع تحت تصرف ابن صديقه العزيز أحد القصور ورحب به في بلاده. وافق إسماعيل على دعوة الملك أمبرتو مرغمًا بالطبع، ويدل على ذلك الحديث الذي دار بينه وبين ألبرت فارمان قنصل أمريكا بالقاهرة آنذاك وكان الوحيد من بين قناصل الدول الذي ذهب لوداع إسماعيل فأخبره الخديوي السابق بأنه سيذهب للإقامة بالقسطنطينية فعرض عليه القنصل أن يذهب لإحدى الدول الأوربية فأجابه إسماعيل بثقة قائلًا: «نعم الدول الأوربية قد تكون ملائمة لي شخصيًّا ولكن بالنسبة لعائلتي وبالنسبة لعاداتنا وتقاليدنا فذلك من المستحيل». ويضيف ألبرت فارمان

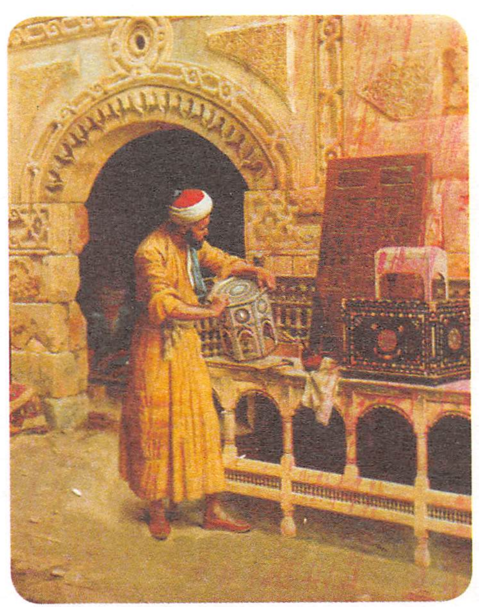
عن تلك الزيارة قائلًا: «كان من عادة الخديوي أن يصطحب زائريه لباب غرفة الاستقبال فقط، ولكنه في تلك المرة اصطحبني إلى الصالة ومنها للسلم وهنا لم أسمح له بالمضي أكثر من ذلك»، فنطق الخديوي إسماعيل بحزن قائلًا: «لم أعد خديوي على أي حال».

جمع إسماعيل لمغادرة البلاد من الجواهر ما خف وزنه وغلا سعره ومن حريمه من كانت الأقرب إلى قلبه، ويذكر أن الحريم اللاتي تخلى عنهن قد أقمن الحداد على فراقه وقمن بتحطيم كل ما طالته أيديهن من تحف ومرايا في القصور المقيمات فيها حزنًا على فراق الخديوي وكمدًا، لأنه لم يصطحبهن معه.. فهذا الرجل الكريم العطوف لم يكن من السهل على امرأة عاشرته يومًا أن تتقبل فكرة وداعها له والمضي قدمًا في حياتها بدونه، وفي صباح 30 يونيه غادر الخديوي إسماعيل القصر مستقلًّا القطار إلى المحطة بصحبة نسائه وجواريه وأبنائه حسن وحسين وفؤاد ملك مصر لاحقًا الذي كان لا يزال صبيًّا صغيرًا أما ابنه إبراهيم فقد كان في إنجلترا.. وبحاشية قليلة وأحزان كبيرة غادر إسماعيل وطلب ألا يكون وداعه بشكل رسمي؛ لذلك لم تخرج لوداعه أي هيئات رسمية، وعوضًا عن ذلك اكتظ رصيف المحطة بأهالي وسكان البلاد الذين أحبوا هذا الرجل كثيرًا، تراصوا يذرفون الدموع على رحيله، وعلى الجانب الآخر تعالى صراخ ونحيب حريمه، كان في وداعه خديوي مصر الجديد توفيق باشا فطوقه إسماعيل كثيرًا وأوصاه قائلًا: «كنت أود يا أعز البنين أن أزيل بعض المصاعب التي أخاف أن توجِد لك ارتباكًا، على أني واثق بحزمك وعزمك، أوصيك بأخواتك وسائر الآل برًّا، واتبع رأي ذوي شوراك وكن يا بني أسعد حالًا من أبيك»، ثم وبعينين تجهشان بالبكاء وجّه كلامه للحاضرين قائلًا: «إني وأنا تارك مصر أعهد بابني الخديوي توفيق إلى ولائكم وإخلاصكم» واستقل إسماعيل القطار ومن نافذته كان يطالع المدن والمباني والأهرامات وهي تتوارى عن عينيه؛ تلك الأماكن التي عمل على تزيينها كأجمل ما تكون. لقد ترك ذلك كله وراءه وذهب ليستقل يخته (المحروسة) محاطًا بكبار الجاليات الأجنبية التي كانت في انتظاره بميناء الإسكندرية، ورسم على وجهه تلك الابتسامة الحزينة مصافحًا المودعين إلى أن استأذن بعد ساعتين من طقوس الوداع المريرة لينفرد بنفسه في قمرته الخاصة ليجهش بالبكاء ولم تمض بعدها نصف

ساعة حتى رفع (المحروسة) مراسيه وغادر الميناء، غادر وعلى متنه رجل لطالما صنع لهذا الوطن الكثير، وأخيرًا كان (المحروسة) قد انطلق على وقع حزين لدوي المدافع فأطلقت طابية نابليون «كوم الناضورة» وطابية السفينة الإنجليزية «ريو برت» الراسية في الميناء وقتها المدافع تحيةً وإجلالًا له. كانت المياه تحمل رجلًا بعيدًا وكانت السماء تبدل شمسها ما بين شروق وغروب، فتصادف رحيله وقت غروب الشمس. ألم يكن ذلك يعني الكثير؟! ولدى وصوله نابولي طلب الخديوي الاحتفاظ باليخت (المحروسة) فقد كان يذكره بأيامه في البلد الذي أحبه كثيرًا، ولكن الحكومة العثمانية حذرته من ذلك وطلبت منه إعادة اليخت فورًا.. ومما يذكر أن يخت (المحروسة) كان قد أوكل الخديوي إسماعيل بصنعه لإحدى الشركات البريطانية وقد أتمت عملية بنائه في 1865م وتم الإبحار به من ميناء تايمز بلندن إلى ميناء الإسكندرية؛ حيث رسا هناك لمدة أربع سنوات، فبالرغم من تجهيزه للإقلاع في أي وقت لم يقلع الخديوي إسماعيل به إلا في 1869م في رحلته حول العالم التي دعا فيها الأمراء والملوك والشخصيات البارزة لحضور حفل القناة، ويعتبر (المحروسة) أول يخت عبر قناة السويس بعدما استقل الأمراء والملوك متنه، وعبر بهم للمرة الأولى مياه القناة، وقد أهدت الإمبراطورة أوجيني بيانو كان قد صُنع خصيصًا لها في ألمانيا لوضعه في بهو اليخت وليس هذا البيانو هو التحفة الوحيدة في اليخت الذي يعتبر متحفًا صغيرًا يضم أثمن وأغلى وأندر التحف والنفائس، فاللوحات الفنية بتوقيع أشهر الفنانين تتراص على حوائطه، والسجاجيد والنقوش الإسلامية تزينه، وقد أدخلت على (المحروسة) الكثير من التعديلات فهو لا يزال محتفظًا بهيئته الأولى التي صُنع عليها. ويعتبر (المحروسة) الشاهد الأكبر على أفراح ودموع من استقلوه يومًا، والغريبة أن هذا اليخت ولكأنه يثأر من راكبيه فيدخر لهم كل لحظات السعادة التي اقتنصوها على متنه لرحلات قادمة من العذاب إلى بلاد بعيدة لا عودة لها بدءًا من الخديوي إسماعيل ثم حفيده عباس حلمي الثاني وأخيرًا إليالملك فاروق الذي استقله لذات الرحلة التي قام بها قبله جده بأكثر من خمسة وسبعين عامًا عندما أقله إلى إيطاليا وكانت النهاية فيما بينهما مشتركة عندما عادا إلى البلاد مرة أخرى ولكن في هذه المرة جثتين هامدتين ليدفنا تحت ثراها.

أقام الخديوي إسماعيل في إيطاليا في قصر الفافوريتا هو وعائلته وبعدها ظل متنقلا من بلد لآخر ولكن حتى في تنقله ذلك لم يشبع ذلك الحنين القاسي لمصر وأخيرًا وافق السلطان على عودة الخديوي إسماعيل للعيش في الأستانة على خليج البوسفور فانتقل إليها سنة 1888م، وفي لقاء له بحفيده عباس الثاني الذي تقلَّد عرش البلاد بعد توفيق استأذن منه إسماعيل في العودة لمصر، ولكن حفيده لم يوافق على تحقيق رغبة جده إما لتخوف ما من جده وإما لعدم محبته له وأخيرًا لم يتحقق حلم إسماعيل بزيارة مصر مرة أخرى إلا وهو محمول على الأعناق جثة هامدة لجسد أهلكه وأعناه التفكير الكثير في أمور تلك البلاد، بعدما لقي ربه في أول مارس 1895م عن عمر ناهز خمسة وستين عامًا ودفن في مسجد الرفاعي وسط حشد كبير جاء في وداعه من أهالي البلد وحفيده الخديوي والأمراء أولاده وكبار الدولة.

وبنهاية فترة حكم إسماعيل كانت البلاد قد تغيرت من كافة النواحي والمظاهر، فبخلاف الشكل الخارجي الذي ظهرت عليه كان هناك الكثير من الصناعات في طريقها إلى الزوال فالترامواي حل محل الحمير في نقل الزبائن وبانقراض ركوب الحمير انقرضت صناعة السروج، وقل استعمال البلاط البلدي وحل محله البلاط الإفرنجي المصنوع من الأسمنت فأخذت صناعة الحصير تنقرض وحلت الطلمبة الحديثة محل السقا والسقائين، وانقرضت صناعة الدباغة، ولم تعد هناك حاجة للنسيج اليدوي؛ فقد انتشرت المنسوجات الأوربية.



▲ (The furniture maker by Ludwig Deutsh)

(صانع الأثاث ـ لودفيغ دويتش)

كما لم تعد هناك حاجة للصباغة لأن الأقمشة تأتي من أوربا مصبوغة، واختفت الأزياء العربية المزركشة فأصبح الجميع يلبسون ملابس أوربية ولم تعد هناك حاجة للمراكيب والأحذية المحلية بألوانها الحمراء والصفراء، حتى المشايخ استغنوا عنها للبس الأحذية الأوربية، وتوقف المنجد العربي عن العمل بعدما طلب منه الأهالي صناعة الأرائك والأثاث على طراز لوي كانز ولم يستطع صنعها وهو الذي يجهل حتى ماذا تعني، وأصبحت الأسواق خاوية على عروشها بعدما أغلقت معظم الدكاكين أو استبدلت بها بضائع أوربية وقد أدى ذلك كله في النهاية إلى عزوف عدد كبير من المستشرقين عن المجيء للبلاد بعدما اختفت أهم عوامل الجذب لهم؛ فها هي مقولة الخديوي إسماعيل التي ظل يرددها مؤكدًا: «لم تعد بلادي الآن في إفريقيا، لقد أصبحنا قطعة من أوربا» وحقًّا كل الشواهد وقتها كانت تدل على ذلك بعدما أصبحت تضاهي بلادهم رفاهية وفخامة، والآن وبعد قرنين من الزمان على بناء القاهرة الخديوية لا تزال مبانيها تطل علينا من خلف أروقة الزمن لتذكرنا بماضينا. كتب جون راسكن، الكاتب الإنجليزي والمهندس المعماري في كتابه «المصابيح السبعة في العمارة»: «إن المبنى المعماري باختلاف طُرزه يصبح مع مرور الزمن جميلًا بطريقة لم يتنبأ بها مبدعوه. ينبثق جمال المشهد الرائع بالتفاصيل التي لا تظهر إلا بمرور مئات من الأعوام على تشييد المبنى». ومع مضاهاة تلك المقولة بمباني القاهرة الخديوية نجد أنها حقيقة لا غبار عليها؛ فها هي المباني الخديوية تزداد عظمتها وجمالها كلما مر عليها الزمن.. ترى، هل كان الخديوي إسماعيل يعلم ذلك يومًا؟!

أهم مصادر هذا الفصل:

- «مصر الخديوي، تأليف لادون دي ليون - مدينة القاهرة من محمد علي للخديوي إسماعيل، تأليف الدكتور سمير عمر إبراهيم - حياة البلاط في مصر، بتلر - مذكرات نوبار باشا - مذكرات علي مبارك باشا - مذكرات شفيق باشا، الجزء الثاني - بعض وثائق تاريخية من حكم ساكني الجنان إسماعيل باشا وتوفيق باشا - تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل، إلياس الأيوبي - مصر وكيف غدر بها، تأليف ألبرت فارمان - مصر ولع فرنسي، روبير سوليه - الخديوي إسماعيل، سانتي».

الفصل التاسع

حفل أسطوري لحدث أسطوري

حفل افتتاح قناة السويس 17 نوفمبر 1896:

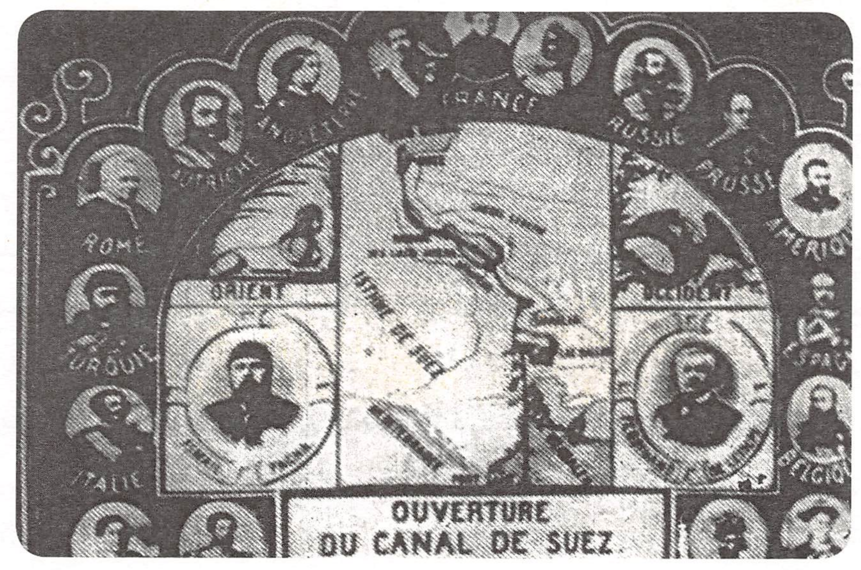


▲ (The Opening of The Suez Canal)

(افتتاح قناة السويس)

هذا الحفل الذي كان شبه أسطوري يشبه - إلى حد كبير - العمل الذي صُنع منه أجله، وقد رتب الخديوي إسماعيل الحفل بنفسه وأشرف على كل صغيرة وكبيرة به حتى إنه - كما ذكر نوبار باشا في مذكراته - قام بكتابة الدعوات للحفل بنفسه ولم يكتفِ بذلك فحسب بل قام برحلة حول العالم على متن يخته (المحروسة) ليسلم تلك الدعوات للملوك والحكام بنفسه أيضًا، والأدهى من ذلك أنه كان يخطط مواعيد الذهاب والإياب ومدة الإقامة في كل بلد بكل دقة ونظام، وعلق على ذلك قائلًا: «وكان حقًّا يتقن هذا الشيء». كان ذلك الحفل

الضخم كشهادة لتدعيم مركزه كعاهل يستحق الاستقلال بمصر وهذا الذي كان يسعى إليه وبعد كثير من اللقاءات والاجتماعات ومناقشات مع سكرتيره نوبار باشا والباب العالي حصل عليه أخيرًا في مقابل الكثير من الأموال التي قُدمت كهدايا ورشاوى ليوقع السلطان على ذلك الفرمان وإن لم يكن بشكل صريح، إلا أن المنح التي سنحت له أباحت له الحرية الكافية في حكم البلاد وبالأخص نظام التوريث الذي يتيح لأولاده فرصة الحكم من بعده فكان يدفع ولا يرجو أمام مدفوعاته إلا سبيل الوصول إلى المجد والارتقاء بذلك البلد الذي كان يشغل تفكيره ليل نهار والذي كان من حق تاريخه وجغرافيته أن يصبح بلدًا غير تابع لولاية أحد فلا يحق لبلد يحمل ترابها آثار أبطال خطو فوقها على مر الزمان أن يصبح ولاية عثمانية، وعلى الرغم من أن دعوات ذلك الحفل التي كتبها الخديوي وأرسلها بنفسه

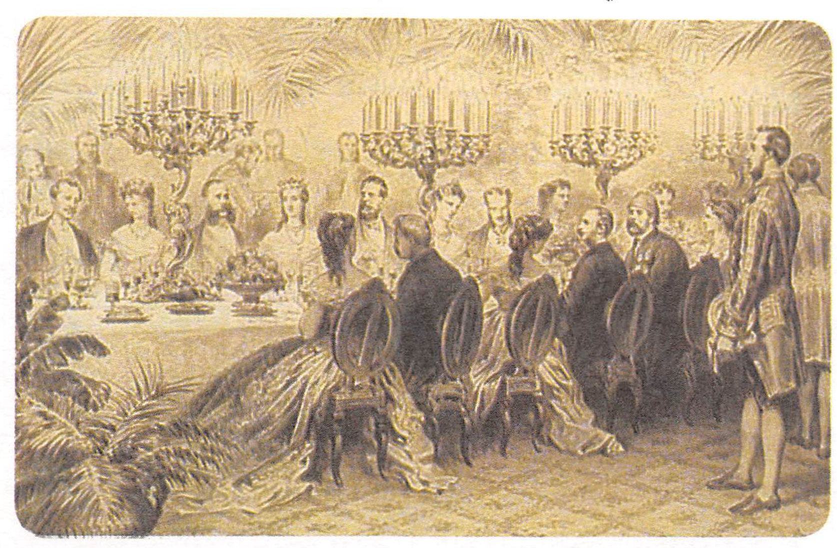


▲(دعوة حفل قناة السويس)

إلى ملوك أوربا فإنه لم يحضر سوى الإمبراطورة أوجيني زوجة الإمبراطور نابليون والإمبراطور فرانسو جوزيف إمبراطور النمسا، وأمير وأميرة هولندا، والأمير عبدالقادر إلى جانب سفراء وممثلي الدول وحضور حشد كبير من العلماء والفنانين وصل لقرابة الـ900 فرد، ومن بين وفود تلك الدول كان الوفد الفرنسي الأكثر عددًا وفاعلية، وفي

صباح أحد الأيام رست سفينة تحمل على متنها الوفد الفرنسي بالإسكندرية، وكان بين ركابها الأديب جوتييه الذي سخر من تلك القبعات والنظارات التي أعدت خصيصًا لمنع ضربات الشمس أو رمد العيون، ولسوء حظه لم يتمكن من حضور حفل الافتتاح بسبب سقوطه على الأرض وإصابته بكسر في ذراعه فاكتفى بأن يكتب عن مصر من شرفة غرفته بفندق شبرد فكتب يقول: «الأفندية يجلسون بزهو فوق ظهور حميرهم، والسقاة يحملون بظهور منحنية قِرب الماء المصنوعة من جلود التيس، والفلاحات تحملن الجِرار فوق الرءوس، وعروض الحواة والثعابين تقدَّم»، وكانت فرنسا والعالم أجمع يراقب معه الشعب المصري في ذلك التوقيت من خلال مقالاته اليومية التي تنشر في إحدى الجرائد الفرنسية وقد أعد مارييت بك مدير هيئة الآثار كتيبًا صغيرًا عن مصر والحضارة الفرعونية كما طلب منه الخديوي إسماعيل، بينما غادرت الإمبراطورة أوجيني فرنسا هي وحاشيتها التي لا تقل عن 30 فردًا؛ من كبيرة للوصيفات لمصممي أزياء ومصففي الشعر وفناني البلاط على متن باخرة الإيجل، توقفت أولًا في القسطنطينية واستقبلها السلطان عبدالعزيز بضيافة وكرم لا يوصف بالرغم من غضب السلطان على ذلك الحفل وعلى الخديوي إسماعيل وتحذيره له وإنذاره بأن الدعوات يجب أن تكون باسم السلطان لا باسمه هو؛ فالخديوي أولًا وأخيرًا كان نائبًا للسلطان، ولكن الخديوي إسماعيل تشبث برأيه وضرب بكلام السلطان عرض الحائط فكان من الأخير أن امتنع عن حضور الافتتاح، وأخيرًا توقفت الإيجل في ميناء الإسكندرية التي استعدت جاليتها الفرنسية التي كانت تقدر بخمسة آلاف نسمة وأعدوا لملكتهم الجميلة حفل استقبال يليق بها أولًا، وبحنينهم لوطنهم ثانيًا.. فمنذ أن أعلنت الصحف عن قدوم الإمبراطورة لحضور الحفل فتحت أبواب القنصلية الفرنسية وبنك دريفو وكافيه دو فرانس وفندق أبات لجمع تبرعات ومبالغ مالية لإعداد المدينة بشكل يليق بالإمبراطورة.. وفي صباح ذلك اليوم، أضاءت الفوانيس الشوارع وعلقت الأعلام ابتهاجًا لذلك المرور وتأنقت السيدات والرجال والأطفال وخرجوا جميعهم للاحتفال بقدوم أوجيني التي لم يكن منها إلا أنها مرت مرور الكرام على آمال وأحلام أبناء وطنها ولم تلتفت حتى باتجاههم عندما استقلت

القطار من الإسكندرية مباشرة للقاهرة.. واستدراكًا لهذا الخطأ أنهت الإمبراطورة زيارتها بالمرور على تلك المدينة التي تحمل حنين أبناء وطنها.



▲ (Royal Dinner Party)

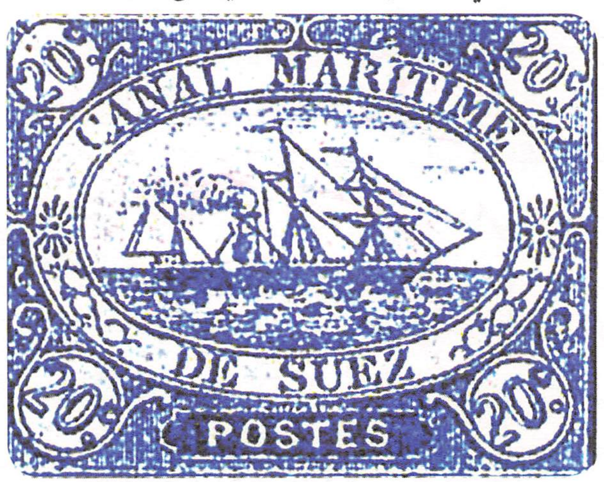
(حفلة عشاء ملكي)

وشهد صباح يوم 17 نوفمبر 1869 مرور أول أسطول كان في مقدمته السفينة إيجل تحمل الإمبراطورة تتبعها سفينة إمبراطور النمسا ويليها أربعون سفينة أخرى، ويحتشد الجمهور على الجانبين، وأطلقت المدافع طلقات التحية وسط تصفيق وتهليل الجمهور، وتقف أوجيني الجميلة تلوح بيديها برفقة ديلسيبس، ثم كان مشهد لا ينساه التاريخ يومًا عندما عبرت الإيجل قناة السويس؛ فها هي القبعات تتطاير والعناق يتبادل وتذرف الدموع ولكن أي دموع كانت هي: هل دموع الفرح أم دموع الشقاء؟ والألم لهؤلاء المساكين الذين نزعوا من بيوتهم لشق القناة بالسخرة ووقع منهم الكثيرون من شدة التعب والمشقة؛ وقعوا موتى في العمق الذي كانوا قد حفروه فإذا بهم لم يحفروه إلا ليدفنوا به، ترى، هل تذكرهم وقتها أحدهم؟!

اختصر تلك اللحظات الشائقة للافتتاح الفنان الفرنسي أوجين فرومنتان (1820-1876) واصفًا في المساء الإضاءة الزيتية في كل مكان وإطلاق الألعاب النارية أمام قصر

نائب الملك يقصد الخديوي.. الموائد المفتوحة، في كل مكان خيمة كبيرة لإطعام 500 شخص، وخيمة أخرى لثلاثمائة شخص.. مائدة الخديوي هي أفخمها وأكثرها طرافة.. الطعام باذخ، نبيذ فاخر وسمك شهي وحجال وبط بري، إطعام سبعة آلاف شخص في الصحراء، مزيج غريب بين بذخ شديد وفخامة غير مألوفة لا تصدق «ومما يذكر أن الخديوي تعاقد مع 500 طاهٍ من أشهر طهاة العالم وتم ضم أصناف غريبة وشهية من كافة المطابخ».

وفى 20 نوفمبر، تغيرت خريطة العالم عندما عبرت الإيجل قناة السويس ومنها للبحر الأحمر، انتهى الحفل بعدما سجله التاريخ وكتبه أكبر أدبائه ورسم لوحاته أكبر فناني العصر في ذلك الوقت، ومن أحداث ذلك الاحتفال جنوح سفينة الإمبراطور جوزيف إمبراطور النمسا إثر عاصفة هوجاء لدى مغادرته يافا ويتأخر عن الوصول، جنوح فرقاطة عند الكيلو 28 من القناة بين بورسعيد والقنطرة وكان يصعب إزاحتها وذهب الخديوي إسماعيل للموقع بمرافقة ألف بحار، ولكن في هدوء استسلمت الفرقاطة بعدما اغرورقت عيون الخديوي بالدموع،وأعلن المسيو ديلسيبس زفافه بكنيسة الإسماعيلية على لويز هيلين التي تصغره عن العمر بعمر، كما احتشد في المقصورة الأمامية كثير من علماء المسلمين وشيوخ الأزهر بجانب رجال الدين المسيحي، وكانت كلمة مرشد قصر التويلري بملابسه المبهرجة التي أثارت سخرية الجميع - وصفًا دقيقًا لما يحدث وقتها؛ إذ قال: «إن طرفي الكرة الأرضية يتقاربان وفي تقاربهما يتعارفان،



Timbre commémoratif du canal de Suez.

▲ (Stam of the Suez Canal)

(طابع بريد لقناة السويس)

وفى تعارفهما يهتز جميع البشر، يا أيها الغرب ويا أيها الشرق فلتتقاربا ولتتأملا ولتتعارفا ولتتصافحا».

كان افتتاح قناة السويس سلاحًا ذا حدين بالنسبة للحركة الاستشراقية في مصر، فكان لحضور هذا العدد الكبير من أعضاء الأكاديمية الفرنسية للفنون، وأدباء ورسامين ومصورين فوتوغرافيين وموسيقيين - دور كبير في إخراج ذلك الحدث بشكل مبهر خلده التاريخ؛ فجميع مظاهر الاحتفال سجلت في لوحات وصور فوتوغرافية ومقالات ونصوص كتابية وانطلق بعد تلك الرحلة الفنانون من كل حدب وصوب خاصة أن أكثرهم جاء على نفقته الخاصة ليسجل تلك المظاهر الاجتماعية والآثار التاريخية بالطريقة التي يتبعها بمهنته، وتلك الطفرة في الملاحة البحرية جعلت العالم يتقارب وتقل المسافات لأكثر من النصف؛ فالبريد الذي كان يصل في أشهر طويلة حان له أن يصل في أيام معدودة وأصبحت المجلات والجرائد تطوف أقطار الأرض بأحدث الأخبار تتصدر صفحاتها الرئيسة الصور الفوتوغرافية، واختراع آلة التصوير الفوتوغرافي كان له أكبر الأثر في انطفاء شعلة الاستشراق وربما كانت مصر هي أول من فكر فيها عند اختراع تلك الآلة عندما وقف أراجو عالم وسياسي فرنسي أمام جمهور كبير ليعلن ذلك الاختراع في 19 أغسطس 1839 بأكاديمية العلوم: «ليت كل إنسان يفكر في مدى الخسارة التي تجرعتها الحملة الفرنسية بأن هذا الاختراع لم يكن أحد مقتنياتها وقتها، فلو كان التصوير الفوتوغرافي معروفًا مسبقًا لكان هناك صور دقيقة للوحات الرمزية التي حرم العالم منها، هذه الصور الفوتوغرافية ستحل مكان اللوحات الفنية بكتاب (وصف مصر) وستتفوق على أعمال أكثر الرسامين مهارة»، وبالفعل في أقل من شهرين سافر لمصر الفنان هوراس فرنييه وهو من أشهر الرسامين وأمهرهم، وله الكثير من اللوحات تمثل معارك حربية منها لوحته الشهيرة «الاستيلاء على سيمالا بالجزائر» ويبلغ طولها 21 مترًا بصحبة فردريك فيسكيه مزودين بجهاز داجير زودهما به ليربيور عالم في البصريات وقد شرح لهما طريقة استعماله وكانت لهم القصة الطريفة مع والي مصر محمد علي التي تم ذكرها مسبقًا،هذا قبل 30 عامًا من افتتاح قناة السويس وعلينا أن نتخيل كيف وصل إليه الأمر بعد كل

تلك السنوات، أصبح عدد كبير من الرسامين والأدباء يحمل معه في رحلاته آلة تصوير فوتوغرافي يلتقط الصور ويقوم بتحميضها ثم رسمها في لوحات لاحقًا، تمامًا كما كان يفعل الفنان الشهير جيروم، أو يزود بها كتبه مثل الكاتب جيرار دي نرفال الذي كان الكثيرون يحتشدون حوله اعتقادًا منهم أن تلك الآلة التي يصطحبها معه في كل مكان آلة سحرية، وقد كانت تلك الآلة صعبة الاستعمال وسريعة العطب فكتب يقول: «لم ألتقط سوى ثلاث أو أربع صور فقط»، وفي وقت لاحق عندما زار ماكسيم دي كومب البلاد كانت الآلة أكثر تطورًا سنحت له أن يلتقط الكثير من الصور، وهكذا بإمكاننا أن نتخيل الدور الذي لعبته آلة التصوير الفوتوغرافي في إقصاء الحركة التشكيلية جانبًا خاصةً بعد إنتاج شركة توماس كوك أعدادًا وفيرة من اختراع الكاميرات الفوتوغرافية الأكثر حداثة، ووقتها لم تخل حقيبة مستشرق أو سائح منها وهو في طريقه للبلاد البعيدة الحارة، وبنهاية القرن أزاح التصوير الفوتوغرافي الفن التشكيلي من المكانة التي كان يحظى بها بل كان بمثابة نقطة النهاية لتلك الحركة التي استمرت عقودًا طويلة من الزمان.

أهم مصادر هذا الفصل:

1 - حياة البلاط في مصر، بتلر.

2 - مصر ولع فرنسي، روبير سوليه.

3 - رحلة إلى الشرق، لجيرار.

الفصل العاشر

غرام القرن وحديث خلف الأبواب المغلقة

«عيني ستظل معجبة بك للأبد».

الخديوي إسماعيل



▲ (Eugénie de Montijo, Maria Eugenia Palafox-Portacarreroy kirkpatrick, Empress of France)

(الإمبراطورة أوجيني إمبراطورة فرنسا)

ليس هناك من تأكيد أو نفي لتلك العلاقة التي تهامست الألسن بها من خلف الأبـواب المغلقة بين الخديوي إسماعيل والفاتنة أوجيني.. ربما أثار اهتمامه بحفل الافتتاح التي كانت ترأسه كثيرًا من علامات التساؤل والاستفهام، فإسماعيل - كما ذكرته الكثير من مذكرات من تعايشوا معه - يعشق العظمة والجمال ويتفنن في خلق كل ما يحيط به ليكون مثارًا للاندهاش والأقاويل وكما وصفته الأميرة جويدان زوجة الخديوي عباس حلمي هو حفيد الابن الأكبر لمحمـد علي باشا وقائد جيوشه الذي مـات تاركًا الولد لجده يدلِّلـه وينعمه وأصبح إسماعيل بطبعه

يبحث عن الترفيه والترف، واعتقد في نفسه أنه شيفاليه، أي فارس من فرسان العصور الوسطى، وهؤلاء الفرسان ليسوا فرسان حرب بل فرسان استعراضات على الواحد منهم أن يحب امرأة ذات أهمية خاصة يتفانى في حبها ويضحي في سبيلها بالغالي والرخيص، وتلك السيدة تكون على قدر كبير من الثراء والكبرياء وتظل ترفض رغباته.



▲ (Eugénie AVEC ISMAIL PACHA)

(أوجيني مع إسماعيل باشا)

وفي نظرها لم يجد الخديوي إسماعيل أمامه سوى الإمبراطورة أوجيني التي التقى بها في أول لقاء بدعوة على الغداء أقامها قصر التويلري عندما كان لا يزال طالبًا في كلية سان سير العسكرية، أمير شرقي وسيم في سنواته العشرين وامرأة تملك ترف الجمال وبراعة الإغراء حتى وإن لم تكن قد سعت لذلك، يليه بعد ذلك تلك اللقاءات الرسمية خلال فترة المعرض العالمي بباريس أو في زيارات الخديوي لفرنسا، ولأن إسماعيل يناقض بيت الشعر الذي يقول: «نعم أنا مشتاق وعندي لوعة ولكن مثلي لا يذاع له سر» فربما لم يكن مشتاقًا ولا عنده لوعة ويذاع له سر من جرَّاء تصرفاته التي تصل إلى حدود اللامعقول، أو ربما كان مشتاقًا وعنده لوعة وتذاع له أسرار وليس سرًّا واحدًا، بداية كان حفل افتتاح القناة الذي حرص إسماعيل على خروجه بهذا الشكل، ليس فقط لحضور أوجيني، فلم تقتصر تلك الدعوات التي تفرغ الخديوي بكتابتها وتوزيعها بنفسه على ملوك وأباطرة

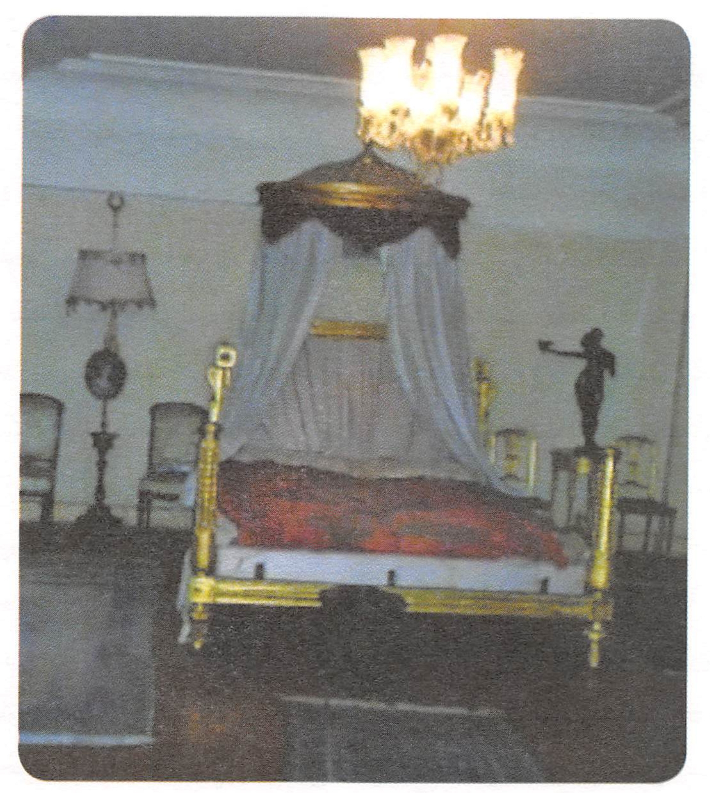
العالم ولكن كان إمبراطور فرنسا نابليون الثالث على رأس قائمة الحضور؛ لأن فرنسا هي المحرك الرئيسى في أمر قناة السويس منذ كان المشروع مجرد فكرة في رأس الفرنسي ديلسيبس إلى أن أصبح واقعًا ملموسًا، فعندما رفضت إنجلترا فكرة المشروع وعاندته بكل ما تملك من قوة تبنته فرنسا واعتذر نابليون عن عدم الحضور لانشغاله بأمور مهمة، وفي الوقت نفسه كان يتحتم عليه أن يحل بديلًا عن الإمبراطور ليمثل دولته وقتها على الإمبراطورة أوجيني أن تأتي بكل ما تحمله من جمال وكبرياء يليق بها وبدولتها، وتزامن تاريخ الاحتفال مع الجلسة الافتتاحية لمجلس الشيوخ والهيئة التشريعية وفي اجتماع نابليون بأعضائها صباح ذلك اليوم أعلن قائلًا: «إذا كانت الإمبراطورة لم تحضر اليوم افتتاح المجلسين فهذا لأنني حريص على وجودها في البلاد التي أشهرت فيها أسلحتنا فيما مضى لكي تعبِّر فرنسا عن تعاطفها مع عمل يعود إلى مثابرة الفرنسيين وإلى عبقريته» ورد على ذلك القول نوبار باشا لفيكتور دوري وزير التعليم الفرنسي ساخرًا: «لقد ذكر البيضة، لكنه لم يذكر الفرخة التي باضت البيضة».



▲ (قصر الجزيرة)

ولأن هذا الرجل الذي أعلن كثيرًا أنه عاشق للحجارة والمونة لم يتوان يومًا عن البناء والتعمير لتنتسب القاهرة الخديوية لاسمه على مر السنين - فكان حدث افتتاح قناة السويس تفريغًا لتلك الشحنات الزائدة عن الحد لولعه في البناء والتعمير لتخليد اسمه عاليًا، فخصص بناء قصر الجزيرة وكان قد شرع في بنائه مسبقًا لإقامة تلك الساحرة أوجيني، وبملوك وبأمراء حضور حفل الافتتاح، من بين القصور الأربعمائة التي بناها الخديوي كان هذا القصر أكثرها شهرة وجمالًا ومثارًا للأقاويل، وفي حقيقة الأمر كان ذلك القصر من أروع تلك القصور؛ فقد قام بتشييده المهندس الأكثر شهرة وبراعة مهندس القصور الخديوية «يوليوس فرانس» الذي بدأ في تشييده منذ عام 1863 حتى 1868 أي خمس سنوات متواصلة، وصمم القصر على الطراز الأندلسي كقصور غرناطة ولكن بأسلوب رومانسي جديد، وتعاون المهندس دي كوريل ديل روسو الذي صمم قصر عابدين لاحقًا في تصميم القصر، وقام المهندس باريبه دياشمب بتحويل الجزيرة إلى متنزه كبير يكون قصر الجزيرة داخل أروقته وقد صنعت جميع الأقواس المعمارية المستخدمة في القصر في ألمانيا من الحديد الزهر، ثم قام مهندسون ألمان بتجميعها وتركيبها في موقع البناء، كما قام مهندس التصاميم الداخلية الألماني الشهير كارل ديبتش في ورشته ببرلين بتصميم وتجميع الزخارف الداخلية بالقصر وقد نقلها في حاويات عملاقة أولًا عبر القطار من برلين إلى مدينة تريستي ثم تم شحنها من هناك إلى مدينة الإسكندرية، وقاعات القصر وردهاته وممراته مزينة بتلك الزخارف والنقوش، وتكلف بناء القصر 750 ألف جنيه ولم يدخل في تلك التكاليف مهمة هندسة المناظر الطبيعية المحيطة بالقصر وكانت تقدر وحدها بمبلغ كبير؛ لأنها استدعت تدعيم وتقوية ضفة نهر النيل المقابلة للقصر، بالإضافة إلى حماية القصر من خطر الفيضان.. وعندما تراكمت الديون على الخديوي إسماعيل حجز دائنون على ممتلكاته بما في ذلك سرايا الجزيرة ثم بيع القصر إلى سلسلة فندقية أطلقت عليه اسم قصر الجزيرة ولا يزال القصر بطرازه وأناقة مبانيه وكما قال مصممه في وصفه: «إنه بحق أجمل بناية من نوعها ذات طراز عربي حديث» ولا يزال القصر موجودًا حتى يومنا هذا «فندق ماريوت الزمالك» وبإمكاننا في زيارة له مشاهدة كل تلك الأوصاف الرائعة؛

حيث إن الشركة المالكة له تركت القصر كما هو وأطلقت على المبنى اسم «عمر الخيام» وفي ذلك المبنى لا يزال هناك لوحة كبيرة للإمبراطورة أوجيني تزين أحد المداخل الرئيسة للقصر وبجوارها لوحة أخرى لإمبراطور النمسا؛ تلك اللوحات لا تزال موجودة منذ علقت يومًا في البهو الرئيسي وتحول الجناح الخاص بإقامة الإمبراطورة لقاعة للاحتفالات تحمل اسمها.



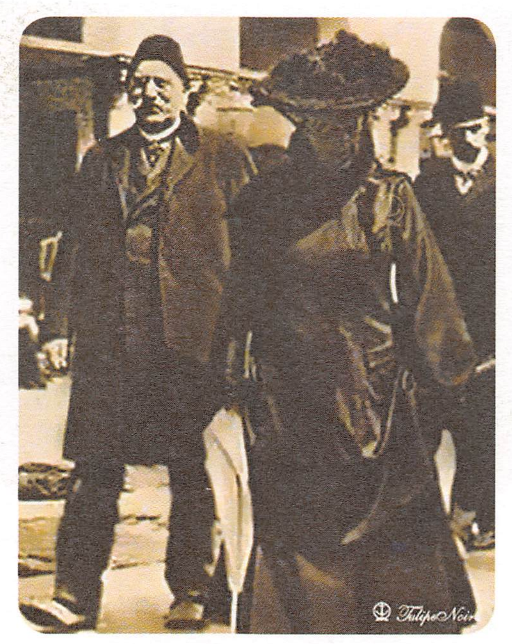
▲ (غرفة نوم الإمبراطورة أوجيني)

وقد وصفه في كتاب «مصر وكيف غدر بها» قنصل أمريكا عندما زار الخديوي فور وصوله من أمريكا: «وهيأ لي هذا الصباح مشاهدة أول منظر من مدينة القاهرة وكان القصر وهو بناء فخم وضخم من بين الممتلكات الخاصة للخديوي في ذلك الوقت، فقد أقيم أصلًا لإقامة الضيوف الذين حضروا لافتتاح القناة، كانت له شرفة رخامية ظُللت

بخميلة تحميهم من وهج الشمس وبإمكانهم أن يشاهدوا منها المشاهد العابرة التي تنطق بالفتنة الجارفة كما يستنشقون ذلك الجو الصحي الذي يمتاز به هذا الجو الممتع.. إن زائر ذلك المكان باستطاعته أن يملك وقت فراغ كافيًا، وباستطاعته الجلوس هنا لساعات وأيام»، ولم يكن بناء تلك السرايا الفخمة حكرًا على إقامة الإمبراطورة فقط بل صمم للملوك والرؤساء المدعوين لحفل الافتتاح وعندما تأكد الخديوي إسماعيل بنفسه من حضور أوجيني أمر وقتها بأن يفرش القصر ويزين بشكل ثري وجميل يليق به أولًا كخديوي لمصر وبها كإمبراطورة فرنسا، أثار اهتمام الخديوي إسماعيل وإشرافه بنفسه على فرش ذلك القصر ببذخ، كثيرًا من الأقاويل حتى إن الستارة الواحدة تكلفت أكثر من ألف جنيه وقتها واستوردت حجرة نوم الإمبراطورة من أشهر صانعي أثاث فرنسا.

هذا البذخ المغالى فيه ما هو إلا صفة من صفات الخديوي وقد كانت سببًا في إزاحته من الحكم بعد ذلك، كان الكرز هو فاكهة أوجيني المفضلة فقام الخديوي باستيرادها خصيصًا لها وأمر بزراعتها تحت نافذة غرفة نومها مباشرة.. وفي واقعة تسبق تلك الزيارة بعدة سنوات وعند حضور إسماعيل افتتاح الجناح المصري بالمعرض العالمي بباريس أعجبت أوجيني بمجوهرات إحدى الأميرات الفرعونية شاهدتها أثناء تجولها في الجناح الفرعوني في المعرض بقيادة مدير الآثار المصرية مارييت بك فأعلنت أمام الخديوي أن تلك المجموعة تعجبها وتريد الاحتفاظ بها وكان رد الخديوي وقتها غاية في الغرابة عندما اعتذر قائلًا: «إن تلك المجموعة ليست ملكًا لي ولا أستطيع التصرف فيها»، ولكي يخرج من الموقف بشكل أنيق أضاف: « لكِ أن تسألي مارييت بك في ذلك وإن وافق فهي لك» ياللعجب! حقًّا؛ فالخديوي إسماعيل الذي دفع الكثير للحصول على لقب يليق به، وأخيرًا ومن مجموعة ألقاب كثيرة وقع اختياره على لقب خديوي وهو يعني الرب أو الإله بالتركية - هو نفسه الذي دفع أكثر وأكثر حتى يستقل بالبلاد عن الحماية العثمانية وأمام إغراء وجمال أوجيني تخلى عن دور الشيفاليه الذي يضحي بكل ما يملك في سبيل إسعاد حبيبته هذا إن كان قد أحبها حقًّا.. فرفض طلبها بكل تواضع عندما أبلغها بأن تلك الآثار ليست ملكًا له ولا يحق له التصرف فيها، وهو الذي كان بإمكانه أن يهديها ثروات

مصر جميعها لكنه رفض طلبها؛ لإيمانه بأن تلك الثروة - مهما وصل نفوذه - ليست ملكًا أو حكرًا لأحد ليتصرف فيها.. وبعقد مقارنة بسيطة بينه وبين من سبقوه من حكام يشتركون معه في العرق ذاته نجد أنه كان الأكثر حرصًا على الآثار المصرية؛ فسعيد باشا لم يكن ليهدي أحدًا من معارفه وأصدقائه سوى تلك التحف والآثار الفرعونية، ومحمد علي باشا كان يبيح لعماله هدم المسلات والمعابد للحصول على الحجارة والطوب اللازم للصناعات المختلفة ولم ينتبه إلى تلك الكارثة إلا عندما التقى به عالم الآثار شامبليون وطلب منه بلطف ولياقة عدم التعدي على تلك الآثار نظرًا لقيمتها المهمة، وقد طلب الخديوي إسماعيل من نوبار باشا وزير خارجيته وسكرتيره إنشاء مدرسة لبنات الأهالي لكي تراها الإمبراطورة، وافتتحت أول مدرسة لتعليم بنات الأهالي تحت إشراف زوجة الخديوي، وخلال وجود الإمبراطورة في مصر كانت ترافقها هيئة كاملة تضم مائة رجل معظمهم من وزراء الحكومة المصرية وعدد من أعضاء الحكومة بقيادة نوبار باشا.



▲ (الإمبراطورة أوجيني ونوبار باشا خلال زيارتهما لمصر في حفل افتتاح قناة السويس)

ومما يذكر أن أوجيني جاءت إلى قصرها بفرنسا، بعالم الآثار جاستون ماسبيرو الذي خلف ماربيت باشا في إدارة الآثار المصرية فيما بعد لكي يدرس لها هي ووصيفاتها بعض الدروس عن الحضارة الفرعونية، واستمرت تلك الدروس في قصر الجزيرة ولكن على يد عالم الآثار ماربيت بك قبل سفرها في رحلتها لصعيد مصر وقد رافقها الخديوي إسماعيل إلى مدينة أسيوط ثم واصل الأمير حسن، أحد أبناء الخديوي إسماعيل، مرافقتها في رحلتها ووقتها كانت درجة الحرارة تضاهي الـ39 درجة مئوية بينما كان الجليد يتساقط في باريس فبعثت رسالة لنابليون لتخبره بأن الثلوج الآن تتساقط بباريس بينما هي تعيش في درجة حرارة 39 مئوية، وما بين تلفيق القصص والشائعات كانت هناك الشائعة الأكثر رواجًا في ذلك الوقت، قبل زيارة الإمبراطورة أمر الخديوي بتبليط طريق الهرم وتشجيره وأمر المهندس الفرنسي المشرف على العمل بصنع انحدارٍ ما في الطريق ووقتها لم يشغل بال المهندس أن يسأل لماذا أو ربما لم يملك جرأة بأن يسأل خديوي مصر سؤالًا كهذا.



▲ (voyage de imperatice Eugenie)

(رحلة الإمبراطورة أوجيني إلى الأهرامات)

ولكن مع الوقت كانت الشائعة تتردد على لسان الجميع وهي أن الخديوي خطط ليصطحب الإمبراطورة في جولة سياحية بمدينة الأهرامات في عربته الخاصة التي تجرها الخيول وعند مرور الخيول على ذلك المنحدر العميق باتجاه الجهة التي كان سيجلس بها

حتمًا ستقع الإمبراطورة غصبًا عنها في أحضان الخديوي.. ولكن، هل تلك القصة ملفقة أم حقيقية؟ وهل كان الخديوي إسماعيل المشغول بكل تلك الأمور المهمة سواء في الداخل في تنمية البلاد أو في الخارج في حروب وحملات أن يخطط لمثل تلك التفاهات وحتى شخصية الشيفاليه بداخله التي كانت تحتم عليه أن يتصرف بلياقة وأدب كأحد فرسان العصور الوسطى تمنعه حتى أن يفكر في ذلك! ومن الأحداث التي تسترعي الانتباه أيضًا في زيارة الإمبراطورة أنها صرحت للخديوي بأنها تتوق لرؤية فرح مصري، وهنا ابتسم الخديوي قائلًا: « حقًّا فاليوم هناك عرس يا لها من مصادفة!»، وأثناء مروره في الردهة سأل أحد حراسه: «هل أنت متزوج؟» فأجابه بالنفي فابتسم الخديوي قائلًا: «إذن سيتم زفافك اليوم» ولم نتحقق من تلك القصة أيضًا فإنه ذُكِر في إحدى الدراسات الفرنسية عند زيارة الإمبراطورة لمصر أنها حضرت فرحًا مصريًّا.

وربما كانت الكلمة التي قالها الخديوي إسماعيل في حفل الافتتاح ثناء على الإمبراطورة مفتاحًا لتلك الأقاويل: «روحك الشجاعة تفعل أعظم الأشياء في صمت».. أهناك أعمق من تلك الكلمات وأجمل من هذه المشاعر إن وجدت.. فترى، هل أحبها إسماعيل حقًّا في صمت خوفًا من أن يتهشم بقدر علو أحلامه أم تلك مجرد مجاملة عابرة جعلت من يملكون الخيال الخصب يرددون أقاويل زائفة ليس لها وجود إلا في خيالهم فقط؟! وكل تلك الأناقة والفخامة في استقبال الإمبراطورة وهي التي اعتادتها أثارت دهشتها فكتبت إلى زوجها قائلة: «استقبال ساحر لم أرَ في حياتي مثل ذلك»، وقد أهدى الخديوي إسماعيل أوجيني في وداعها تواليت غرفة نوم من الذهب الخالص تتصدره ياقوتة حمراء نقشت حولها بالفرنسية عبارة «عيني ستظل معجبة بك إلى الأبد» وستظل علاقة الإمبراطورة أوجيني بالخديوي إسماعيل ملحقًا بها علامات استفهام شاهقة سواء في الأقدار التي رتبت لهما أو في النهايات المأساوية التي لحقت بهما حتى وكأن النعم التي أغدق بها القدر عليهما ما هي إلا قصاص لما سيأتي بعده، فمن المصادفات العجيبة في حياة الخديوي والإمبراطورة أن كلًّا منهما تعرض لحادث اغتيال وكأنه سيناريو محكم رتب لهما مع اختلاف الزمان والمكان، فكل منهما انهالت عليه أثناء ركوبه عربته التي تجرها الجياد قنبلة كادت أن تشطر رأسه إلى نصفين أنقذهما منها القدر الذي رتب لهما نهاية أخرى شبيهة

أيضًا، فكل منهما خرج من بلاده كسيرًا ذليلًا وكأنه لم يتوج على عرشها يومًا، فالخديوي إسماعيل غادرها بحرًا بعد نفيه خارج أراضيها بينما كانت نهاية أوجيني أكثر قسوة؛ فقد خرجت من فرنسا سرًّا وهربًا عند انهزام بونابرت الثالث في الحرب السبعينية بين فرنسا وألمانيا وكانت أصابع الاتهام تشير لأوجيني لتلك الهزائم التي وقع فيها الإمبراطور فلم تكن أوجيني مجرد امرأة جميلة يتهافت على رسمها أشهر فناني فرنسا وتعلق صورها على جدران القصور والمتاحف فحسب بل كانت تلعب دورًا سياسيًّا كبيرًا؛ فثار الشعب عليها وأشارت إليها أصابع الاتهام تحمّلها السبب فيما آلت إليه فرنسا وقتها وليس هذا وحسب فقد وصل بها الحال إلى أن سرق الخدم مجوهراتها وملابسها حتى تلك الأحذية لم تنج من السرقة وكان معروفًا عنها أنها مولعة بها ولا تكرر لبس الحذاء مرتين، وكانت الأحذية تصنع لها خصيصًا من أجود أنواع الجلود وأثمن أنواع الأقمشة وترصع بالجواهر، وفي إحدى الليالي الشتوية الباردة تخفَّت وهربت من الأبواب الخلفية للقصر أخذًا بنصيحة قنصل إيطاليا في فرنسا وقتها، هربت أوجيني بعد أن تخلى عنها الحظ وكشر لها القدر عن أنيابه وفرت لإنجلترا وتوالت المصائب تباعًا بعد موت زوجها وابنها، والوحدة التي عانتها في بلاد غريبة عنها متنكرة في جسد آخر واسم آخر، وكررت أوجيني زيارتها لمصر مرة أخرى عام 1905 وحضرت متخفية وأقامت في فندق سوفاي ببورسعيد لعدة أيام، ولكن كان هناك كل الفرق بين تلك الزيارة والزيارة التي سبقتها عندما كانت تتوج كإمبراطورة.. وذكرت الأميرة جويدان زوجة الخديوي عباس حلمي أن أوجيني خلال زيارتها الثانية لمصر كانت قد زارت زوجات الخديوي إسماعيل وقبر إسماعيل الذي كان قد توفاه الله، وفي عام 1920 وهي في الرابعة والتسعين من العمر ذهبت لإسبانيا مسقط رأسها وما إن ذهبت حتى شهدت تلك الأرض رحيلها مثلما شهدت قدومها، وما بين قدومها ورحيلها الكثير من الأحلام والكثير من الأسرار وكذلك الكثير من الأحزان.

أهم مصادر هذا الفصل:

1 - مذكرات الأميرة جويدان هانم.
2 - الخديوي إسماعيل، تأليف سانتي.
3 - مجموعة كتب عبدالرحمن الرافعي.
4 - مصر ولع فرنسي، روبير سوليه.

الفصل الحادي عشر

الخديوي توفيق باشا (1852–1892)



الخديوي توفيق باشا ▲

بعد أن ترك الخديوي إسماعيل الحكم مرغمًا من السلطان العثماني بعد إغراق البلاد في الديون وإقامة المحاكم المختلطة والتدخل السافر في شئون البلاد بسبب الامتيازات الأجنبية، عين الخديوي توفيق الابن الأكبر للخديوي إسماعيل عام 1879م.

ويعتبره التاريخ أسوأ حكام مصر من أسرة محمد علي، فقد اتبع سياسة الخضوع الكامل للإنجليز والاستبداد المطلق بالمصريين، وقد بيعت في عهده حصة مصر من قناة السويس بنسبة كبيرة وهو ما أدى إلى زيادة تدخل الدول الأجنبية ومخطط بعد مخطط لاحتلال البلاد.. وكان الفخ الأكبر «حادثة الإسكندرية» وحريق المدينة وضرب الإنجليز لها وقيام الثورة العرابية بقيادة عرابي الذي هزم في موقعة التل الكبير، وأخيرًا احتلال الإنجليز للبلاد الذي استمر لأكثر من خمسين عامًا، وحادثة مذبحة الإسكندرية لا يمكن إغفالها؛ فهي أهم أحداث القرن التاسع عشر، ذلك القرن

المليء بالإثارة والأحداث، والغريب أن لهذا القرن بداية مشرقة مخضبة بالآمال ونهاية مأساوية محطمة لكل الأحلام.

هل قدر المدن يشبه قدر الإنسان؟! فمدينة كالإسكندرية بأزقتها القديمة وشوارعها ومبانيها وسكانها الذين يحملون كل جنسيات الأرض كانت مطمعًا للجميع كامرأة جميلة وُجِدَتْ يشتهيها الكثيرون ويحاولون الحصول عليها ولو كان بالقوة والغصب، وإلا لما كان ذلك مصيرها منذ أن داس ترابها الإسكندر الأكبر ولكنها مدينة حكم عليها تاريخها وجغرافيتها أن تظل صامدة وشامخة، كانت الإسكندرية في القرن الثامن عشر مدينة قبلة الأجانب من جميع البلدان خاصة تلك التي تطل على البحر المتوسط كاليونان وإيطاليا وفرنسا، وكان هؤلاء الأجانب يسكنون في أحياء متجاورة تسمى وكالات، تفتح وتغلق ببوابات خشبية وبمواعيد ثابتة وكل وكالة خاصة بالجالية التي تقطن فيها، وكانت لكل جالية قوانين خاصة بها ونظام صارم، فما الذي حدث تحديدًا في بداية القرن التاسع عشر انتهت فترة حكم المماليك المتشددة ضد كل من ينطق بلسان أجنبي، وجاء الألباني محمد علي مُرحبًا بكل ما هو أوربي فكان ذلك بمثابة متنفَّس لهم، وأخيرًا كان عليهم هدم تلك الوكالات وفتحت الأبواب على مصاريعها وأقام الأجانب في كل حدب وصوب من أنحاء المدينة، وأقاموا النوادي والمقاهي، حتى الفنادق كانت تابعة لعاداتهم وتقاليدهم، وتخالطت الوجوه باللغات وأصبح من العادي أن تحوي الجملة الواحدة عدة لغات إحداها لاتينية وأخرى إيطالية وفرنسية وبالطبع العربية، وكان من أشهر تلك الأحياء التي تقطن فيها الجاليات الأجنبية الحي الأوربي بـ«ميدان القناصل» ميدان المنشية في وقتنا هذا، ويقع في هذا الحي فندق أبات، وكان ذلك الفندق المبني على الطراز الباروكي مشهورًا بتراسه الفسيح ومظلاته الملونة التي يجتمع تحتها في الصباحات المشمسة الأوربيون الذين يسكنون الإسكندرية، وتأتي شهرة فندق أبات لاختيار المشاهير الإقامة فيه كالمستكشف الشهير الأمير فيليب دوق أورليانز والأمير لويس بونابرت، بالإضافة لجلسات التدليك التي يقوم بها غلمان في حمامه التركي الشهير، ومن الغريب أن الفندق لم يتأثر بضرب مدينة الإسكندرية من القوات البحرية البريطانية في نهاية القرن فوقف صامدًا أمام فوهات

مدافعها وكأنه أبى أن تغتاله وأصر على أن يوكل تلك المهمة للزمن الذي سرعان ما تهدم بفعله والتقط الكثير من الصور لهذا الفندق في وقوفه صامدًا أمام الاعتداء، فرصدت كاميرات المصَوِّرَيْن الأكثر شهرة في ذلك الوقت أمثال الإيطالي فيوريللي واليوناني زنجاكي صورًا له، وبجوار هذا الفندق تقع مجموعة من المقاهي والفنادق مثل فندق أوربا الذي لا يقل عنه رفاهية وفخامة ويتوسط الميدان تمثال برونزي لمحمد علي، صنعه له النحات الشهير جكمون، وكتب الرحالة دي فوجاني عن ذلك الميدان يقول: «إنه أصبح مركزًا للتجارة الأوربية ويتوسطه تمثال بديع لمحمد علي باشا»، حتى إن الجالية الفرنسية التي كانت الأكبر عددًا كانت تصرح قائلة: «بإقامتنا هنا نشعر أننا بفرنسا» وقد أولت الحكومة ذلك الميدان كثيرًا من الاهتمام؛ فقد تراصت المباني على النسق الباروكي والنيوباروك، وافتتحت به الكثير من المدارس الأجنبية كالفرير، والفرنسيسكان، ومئات المستشفيات التي تتبع كل جالية، وسمح محمد علي أخيرًا بتملك الأجانب الأراضي فأخذوا يبنون المباني والقصور، وخلال التطور العمراني الذي قام به الخديوي إسماعيل كان لتلك المدينة النصيب الأكبر من الأهتمام؛ لأنها كانت مزارًا لجميع السياح ووجهة مشرفة للبلاد؛ فتعاقد مع مسيو لوبون لإضاءة المدينة بالغاز وشركة كورديه لمدها بالمياه النقية حتى قبل أن تشمل تلك التطورات مدينة القاهرة عاصمة البلاد، وتدافعت أكثر الجنسيات المختلفة للسكن في البلاد من المجر وألمانيا، وأقاموا المشاريع التجارية الكبرى حتى إن عدد تلك الشركات، وصل عام 1836 إلى سبعين شركة، بينما ظل المصريون يشغلون المهن الشعبية المتداولة كالحلاق والسقا والحمَّال والمكاري، وبالرغم من ذلك كان الكل يعمل ويعيش في جو يغلفه الحب والود.

إلا أنه في صباح يوم 11 يونيه 1882، وكان يومًا صيفيًّا لطيفًا، كان شاب مالطي من رعايا الحكومة الإنجليزية قد استأجر حمارًا وأخذ يطوف به في المدينة طوال اليوم، وأخيرًا توقف عند حانة بآخر شارع السبع بنات ثم حدثت مشاجرة على الأجرة عندما رفض المالطي دفع أكثر من فرنك واحد، وانتهت تلك المشاجرة بقتل العربي على يد المالطي حيث طعنه بسكين بقلبه، وهنا تجمع أصحاب ورفاق القتيل يريدون أن يمسكوا

بالقاتل، ففر إلى أحد المنازل المجاورة التي يسكنها أبناء جاليته من المالطيين واليونانيين، ووقف أصدقاء القتيل ومعارفه تحت نافذة المالطي ليحدث شيء لم يكن في الحسبان؛ شيء أشبه بمخطط محبك وفي الوقت نفسه في أنحاء تلك المدينة النائمة في أحضان البحر خرج الأجانب الذين يسكنون تلك المنازل إلى الشرفات يحملون معهم البنادق والأسلحة وأخذوا يقتلون الأهالي بقذائف عشوائية فسقط الكثيرون بين قتيل وجريح؛ وانتشر الخبر في أرجاء المدينة بأن الأجانب يقتلون العرب، فخرج الأهالي بالعصي الغليظة وهذا أقصى ما استطاعوا العثور عليه ليقتلوا ويوسعوا ضربًا كل أوربي وأجنبي يصادفهم بالطريق فهذا المواطن البسيط المغلوب على أمره في ظل امتيازات أجنبية تمنح الغريب الحق في التمتع بحياة كريمة هو نفسه صاحب المدينة محروم منها، ولد عنه ذلك الصراع والحرمان، وأخيرًا قد وجد مَنْفَذًا لتلك الشحنة فلم يتوان عن إخراجها والانتقام منهم، لم يتوقف الأمر فقط على القتل فقد ترك الأوربيون مكان تجارتهم فتعرضت للسرقة والنهب وتحول الأمر لحرب.

وبحلول المساء تم حصر الموتى 163 من المصريين و68 أوربيًا، كما تم نقل جثث أخرى لم يتم إحصاؤها؛ فقد كان العدد أكثر من ذلك، كانت تلك الحادثة بمثابة الشرارة الأولى في النار التي اشتعلت في المدينة وامتلأت بالشائعات عن الإعدادات التي يستعد بها كل من الطرفين لمواجهة الآخر، وبالرغم من أن الحالة الطبيعية عادت مرة أخرى بحلول الظلام فإن أحداث تلك المذبحة ترددت في أنحاء العالم، وكتب عميد الجالية الفرنسية يقول في كتابه الذي صدر عام 1884 باللغة الفرنسية واصفًا ذلك اليوم: «إنه كان يومًا ملبدًا بالغيوم» وتحولت تلك الحادثة إلى شبه حرب إسلامية صليبية حيث كان المصريون يجوبون الشوارع ركضًا وبأيديهم عصي وشوم وهم يصيحون: «جاي يا مسلمين جاي»، ومن الواضح أن تلك الحادثة كانت مرتبة فقد وقع هذا المكاري في الفخ الذي نصبه له المالطي قاصدًا به استفزازه وإثارة أعصابه، ويُحكى أن قنصل الإنجليز مستر كوكوسن كان قبل تلك الحادثة بعدة أيام يخاطب رعاياه قائلًا: «تسلحوا واحموا أنفسكم بأنفسكم»، وكان مشهد السكان الإنجليز وهم يقفون في الشرفات يطلقون

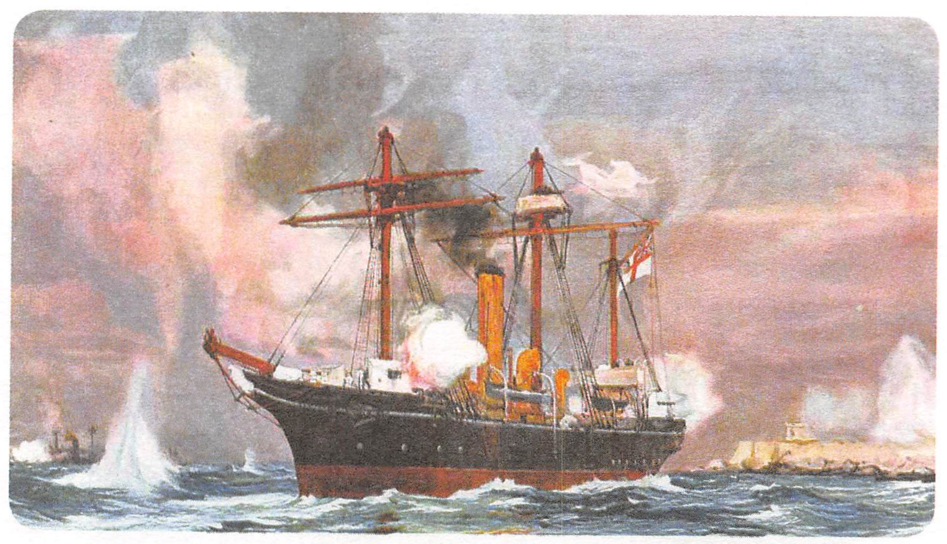
الأعيرة النارية في كل اتجاه من دون أي خطر واقع عليهم من أي ناحية أخرى - دليلًا قاطعًا على أنها حادثة وفي كتابه «باشا عربي» كتب نينيه في تأكيد تلك الواقعة: «إن إدوارد مالييت قام بإرسال برقية لوزير خارجيته: (لا بد من حدوث تعقيدات حتى لا نصل لمسائل مرضية في شأن المسألة المصرية) وقد تواطأ أكثر من شخص في تلك الأحداث منهم المحافظ نفسه الذي منع إرسال أو استقبال أي برقيات إلا تلك الخاصة به، وقد أبلغ الكثير من الأجانب الذين يملكون الضمير بأنهم قد شاهدوا العديد من الصناديق التي تحمل أسلحة جلبها الأسطول البريطاني ليسلح بها رعاياه قبل ذلك الحادث بعدة أيام ولم يكن رعاياه من الإنجليز فحسب إذ كان كثير من الجالية اليونانية والمالطية يطلبون اللجوء للحماية البريطانية.. وكتب أحمد شفيق باشا في كتابه (مذكراتي في نصف قرن): «إن الجرائد الأجنبية أدرجت تلك الحادثة كتعصب ديني».

وبانتهاء ذلك اليوم العصيب وفي صباح اليوم التالي، استيقظ الأجانب وفي رءوسهم فكرة واحدة وهي مغادرة البلاد؛ فمنهم من جمعوا أمتعتهم جميعها للرحيل دون عودة؛ ومنهم من رهن أشياءهم ربما يرجعون مرة أخرى، وزادت أجرة عربات الكارو لعشرة أضعافها وامتلأت السفن عن آخرها حتى السفن الشراعية منها، ولم يسأل أحد عن جوازات مرور أو مبالغ للشحن فقد ارتعب الجميع أن تكون تلك بداية حرب صليبية جديدة وأن السفن الإنجليزية والفرنسية تدك المدينة بالقنابل والمدافع.. وتذكر الكاتبة أمل الجيار في الملفات التي حصلت عليها بمكتبة بريطانيا الوطنية بلندن أن تلك الأوراق والرسائل القديمة بقدم التاريخ التي عثرت عليها هناك كانت لمتضررين من ذلك الضرب؛ فمنهم من فقد رب أسرته أو أصيب بعاهة مستديمة، وكان أخطرها رسالة ربما تفسر الكثير مما حدث؛ فهي خطابات متبادلة بين أحد المحامين والقنصلية يطالبها بمبلغ 536 جنيهًا قيمة الأسلحة التي تم نقلها إلى الإسكندرية يوم الحادث، وهو ما يوضح أن تلك الحادثة كانت بلا شك مرتبة، وفي شهر أغسطس تحولت مدينة الإسكندرية من عروس لأرملة تتشح بالسواد فكان الأسطول البريطاني يتربص بها ويوجه فوهات مدافعه إليها، وكتب الجنرال البريطاني سيمور من قمرته بالسفينة يخبر حكومته بأن الطوابي والسفن

المصرية تستعد لتوجيه ضربتها للأسطول البريطاني لتقوم بمحاصرته، بينما نفى الأميرال كونراد وهو على سفينته الفرنسية تلك التهمة موضحًا أنه لم ير أي استعدادات وانتشر أمر تلك المراسلات وأبلغت الدول الأجنبية رعاياها بمغادرة البلاد في أسرع وقت تحسبًا لأي حرب قادمة، لم يترك المدينة الأجانب فحسب، بل فر الجميع حتى المصريون والأتراك، وأعلن عرابي أن ترك المدينة في مثل تلك الأحداث يعتبر خيانة، ولم تبق سوى قلة من بسطاء المصريين وأجانب لهم مصالح يخشون عليها، ونشر الأمير طوسون في مذكراته: «إن قرار سيمور بالضرب كان لإعادة كرامة الأوربيين والقضاء على نفوذ عرابي» توجه وفد من قبل السلطان العثماني وقادة الجيش للأميرال سيمور يطلبون منه عدم اللجوء للضرب، إلا أنه أجاب: «يؤسفني أن أخبركم بأني لا أستطيع أن أقوم بما طلبتموه»، ويقول ألبرت فارمان في كتابه «مصر وكيف غدر بها» قبيل ظهر يوم الأحد 9 يوليو تلقيت خبرًا من مصدر موثوق به بأن إعلانات ضرب المدينة بالقنابل الذي سيحدث بعد ذلك بـ24 ساعة سيطبع بعدة لغات ويوزع في صباح باكر «وكانت الطوابي وهي الحصون أو القلاع التي تحمي المدينة من البحر أهمها طابية العجمي غربًا ثم طابية الدخيلة ثم قلعة المكس وهكذا تمتد الحصون على امتداد الشاطئ وقد بقيت هذه الحصون على حالتها منذ أنشأها محمد علي، ولكن الخديوي إسماعيل كان قد أضاف لها بعض التجديدات وجلب لها المدافع الضخمة، هذا عن المعدات العسكرية.. بينما لم تكن القوة البشرية بحال أحسن منها حتى قال عرابي في مذكراته إنهم لم يزيدوا على 700 مقاتل يوم الضرب، بينما قال نينيه إن معظم المدافع كانت قصيرة المدى لم تتحرك من مواقعها منذ 38 سنة عندما قام جاليس بك مفتش الاستحكامات في عهد محمد علي بتركيبها أول مرة.

تحولت الإسكندرية من مدينة ممتلئة بالأجانب الذين يسعون لحياة سعيدة وثرية، إلى مدينة لا يسكنها سوى الأشباح تنتظر أن يفتك بها، وانطلقت الضربة الأولى بعد شهر من تاريخ يوم المذبحة وفي اليوم نفسه تحديدًا لتتحول المدينة الجميلة إلى خراب ودمار وكان صوت المدافع يصم الأذان وامتلأت السماء بدخان أسود كثيف وقتل من المصريين حوالي 2000 بينما كانت خسائر الإنجليز 20 من القتلى وقال نينيه مستنكرًا: «إن تلك الضربة لم يكن هناك تفسير

لها سوى شهوة القتل وسفك الدماء، وتساءل: هل بإمكان هؤلاء الإنجليز أن يقصوا تلك المجازر على أهاليهم عند تناولهم شاي الخامسة»، واستمر في وصفه لتلك المأساة



▲ (Well Done Condor by Charles Dixon)
(السفينة ويل دن كوندور - تشارلز ديكسون)

قائلًا: «كانت طلقات المدافع تطير من فوق رءوسنا لتقتل هذا وتشعل النار في ذلك» وأخذت العربات تطوف في أنحاء المدينة تنقل جثث الموتى التي تراكمت الواحدة تلو الأخرى وتشيع على الفور إلى المقبرة بلا جنازة.. وتربص الأهالي لكل أجنبي لم يغادر البلاد ظنًّا منهم أنه أحد الجواسيس فيقومون بضربه وتعذيبه أو تسليمه للشرطة وانتشر في المدينة خبر بأنه سيتم حرقها ومع انتشار ذلك الخبر تصرف الأهالي وكأن هناك مسًّا قد أصابهم، فالكل يركض باتجاه قطار كفر الدوار الذي لم تتوقف رحلاته عن نقل الركاب فكان يخرج ممتلئًا ويعود خاليًا تمامًا، وكان الجميع يتساءلون: من سيحرق المدينة؟ وما من مجيب.. تفرق شمل الأسر ودهس الأطفال والشيوخ تحت الأرجل، وامتدت يد خفية تفتح أبواب السجون لتصبح المدينة مرتعًا للصوص الذين أخذوا يسرقون المنازل والمتاجر مع عدم وجود أي من الشرطة أو الجنود، فقد هرب الجميع إلا سليمان سامي الذي أيقن كل من شاهده أنه يخطط لشيء خطير، وفي ميدان القناصل أو المنشية وبجانب

تلك النافورة خرج سليمان من صمته واصفًا للضباط والجنود: «إن الإنجليز قد يريدون دخول المدينة لاحتلالها وقد نجحنا في إخلائها من السكان وعلينا إحراقها حتى لا ينتفعوا منها بشيء ولكن قبل إحراقها سنقوم بنهبها».

وقد بدأ في إشعال المدينة الجميلة لتحترق وتحترق معها قلوب سكانها ومن أحبها يومًا.



▲(تطاير الرسائل والبريد أثناء تعرض مكتب البريد الإيطالي بشارع السبع بنات للقصف)

ويقول ألبرت فارمان إنه شاهد ألسنة اللهب تنطلق من الحي الأوربي الراقي بالإسكندرية لتنتشر في أرجاء البلاد، بينما قطعت المياه نهائيًا وقد بدأت الحرائق تنتشر بجانب المستشفيات.

وكانت تلك الحرائق بواسطة عصي وشوم مربوط بها قطع قماش مغموسة بالبنزين، وقد وصفت جريدة التايمز الميدان بأنه «شعلة من الدخان ترتفع بلسان من اللهب وبين الحين والآخر نسمع صوت مفرقعات بالإضافة لأصوات مبانٍ تتهدم».

والجزء الذي نجا من الحرب لم ينج من النهب.. مشهد النيران المشتعلة في قلب المدينة أثار خوف الإنجليز على بر البلاد حتى إنهم اعتقدوا أن «عرابي» يستعد بجيش قوي

لمحاربتهم وسط النيران، وأخيرًا دخلوا في منتصف الشهر ليفاجئوهم بوجه آخر لعروس المتوسط؛ فالخراب والدمار في كل مكان بالإضافة إلى مزيج من روائح الجثث المحترقة بالأخشاب والأوراق حتى إن سكان رأس التين وعلى رأسهم الخديوي توفيق الذي حضر إلى الإسكندرية وسط تلك النيران وقد كان سراي الحريم برأس التين قد أصابه التخريب الكبير كان قاطنوه يشمون تلك الروائح التي تنبعث من حفرة وضعت بها آلاف من جثث الجنود والأهالي الذين لقوا حتفهم في تلك الأوقات، ولم تكن تغطى بوافر من رمال فكانت ربما تخرج يد من هنا أو رأس من هناك تنبعث منها تلك الروائح وكأنها أبت أن تدفن بسلام، وكانت تطالب بقصاص عادل لها، وطلب الخديوي وضع لجنة من الأطباء لفحص جثث القتلى ومباشرة دفنها، وكانت المصالح الحكومية والمستشفيات مهجورة تمامًا، ولم يكن هناك رغيف خبز في المدينة التي هاجر خبازوها وقل دقيقها لسحبه لصالح الجيش وانقطعت عنها المياه تمامًا.. حقًا فقد تحولت لمدينة الأشباح.

في يوم 17 يوليو قام جنود البحرية بوضع منشور في كافة الشوارع والأزقة والحواري، فيه ما يلى:

«قد فوض رئيس فرقة من العساكر تطوف المدينة وأمر بإطلاق الرصاص فورًا على كل من يحرق بيتًا أو متجرًا».

قدرت الخسائر من حريق الإسكندرية في مقال نشره داود بركات بالآلاف من الفرنكات كما قدرت التعويضات بمبلغ مماثل لها، وأطاحت النيران بكل الفنادق والمباني والمتاجر التي تخص الأجانب والمصريين على حد سواء، وقد أصدر الأميرال الإنجليزي بالاتفاق مع الخديوي منشورًا يطمئن كل الأجانب والمصريين بتعويضات للأضرار التي أصيبوا بها، والسماح للأجانب بالعودة مرة أخرى إلى المدينة ومباشرة أعمالهم، وسمحت للتجار المصريين بإنشاء أكشاك خشبية مؤقتة يقومون بمزاولة أعمالهم فيها لحين إنشاء متاجر جديدة كما أقامت شركة لابروفنسيال وهي شركة فرنسية ضد الحريق وكيلًا لها في القطر المصري.

ومن الحيل الطريفة التي ابتكرها الإنجليز مع الحكومة المصرية لضبط الأمن

بالإسكندرية بعد المهازل التي حدثت بها حيلة تسمى « اسم الليل»، وهو اسم أو لقب جديد كل يوم متفق عليه بين الخفراء والعسكر، وقد حددت الشرطة التي تكونت من جميع الجنسيات والطوائف حتى أصبحت كأمم متحدة صغيرة توقيتًا معينًا للرجوع إلى البيت وإخلاء الشوارع، ومن تضطره الظروف للتأخير بعد هذا الموعد فيحق له أن يذهب للكراكون ويطلب اسم تلك الليلة؛ لأنه سيكون مطالبًا به في حالة إذا ما قابله أحد الخفراء أو العسكر وطلب منه اسم الليلة؛ فإذا لم يجبه سيكون مفوضًا له بقتله رميًا بالرصاص فورًا.

استعد عرابي للحرب ضد الإنجليز بالرغم من تهديدات الخديوي توفيق له بالتوقف فورًا ولكنه رفض، وأعلن الكثير من المصريين التطوع للجهادية ودعمها بالمال والمؤن ووصل السير جارنت ويسلي إلى الإسكندرية بحجة أنه جاء ليحمي الإسكندرية والخديوية، واصل عرابي حشد الجيش وكان يستعين بالخفراء الذين ليس لهم أي دراية بفنون الحرب، وتواجه مع الإنجليز في أكثر من موقعة انتهت بفشل الجيش المصري في التل الكبير، عاد بعدها عرابي للقاهرة وفي الوقت نفسه اجتمع بزعماء الأمة وقادة الجيش وكان كل بين مؤيد ومعارض لاستمرار الحرب، واستقر الأمر أخيرًا على التسليم وكتب عرابي للخديوي يلتمس العفو ولكن الخديوي رفض، وفي صباح اليوم التالي كان عرابي يرتدي بذلته العسكرية ويحمل سيفه هو وطلبة عصمت وركبا معًا عربتهما العسكرية في طريقهما لثكنات العباسية ليسلما أنفسهما إلى القادة الإنجليز بهدوء وعلى غير توقع هكذا بكل بساطة قُهر رجل كان يهتف له الجميع: الله ينصرك يا عرابي وسلم نفسه للمحتل بعدما طأطا رأسه في خضوع.. وكتب أوكتاف بوريللي في جريدة لوبوسفورإجيبسيان: «إن عرابي يدعو إلى الرثاء» وبالفعل سجن عرابي وطلبة عصمت في 16 سبتمبر وقد شكلت المحاكم العسكرية لمحاكمته بينما أوكل له زعماء الوطن محاميين أحدهما إنجليزي والآخر فرنسي وفي نهاية المطاف لم يتخل عنه محاميه الإنجليزي الوحيد، وبعد اعتراف عرابي بالعصيان ولكن على من كان العصيان على الخديوي أم الإنجليز أم الوطن؟ حكم عليه في محاكمة هزلية لم تستمر أكثر من خمس دقائق بالإعدام شنقًا، خففه بعد ذلك الخديوي

بالنفي خارج البلاد ومصادرة أملاكهم وحرمانهم من التملك في مصر مع ترتيب المعاش السنوي لهم وقد قررت الحكومة البريطانية نفي عرابي لجزيرة سيلان، كما تمت محاكمة سليمان داود على فكرته المجنونة بحرق المدينة حتى لا يهنأ بها الإنجليز، فأي عقل طائش وقتها كان يحكمه؟ صدر الحكم بإعدامه شنقًا وقد أعدم في نفس الميدان الذي أصدر منه أوامر للعساكر وبعض الأهالي بحرق المدينة وهو يجلس تحت تمثال محمد علي، حادثة مذبحة الإسكندرية وحريقها رسمها عدد كبير من رسامي الجرائد الأجنبية التي كانت تصدر من مصر آنذاك والصور كانت تمثل ما يجري في البلاد لحظة بلحظة،ومن أشهر تلك الصور. إخلاء الأجانب للبلاد، مشهد القنابل وهي تضرب المدينة، النار المشتعلة في الإسكندرية بعدما أمر سليمان داود بحرقها، القتال الدائر بين الإنجليز والمصريين، قلعة قايتباي وقصر رأس التين والفنار وهي في حالة تهدم، هزيمة عرابي في التل الكبير ومحاكمته، تنفيذ حكم سليمان داود، كذلك تلك الأحداث وصفها وكتب عنها العديد من الأجانب الذين لم يتركوا الإسكندرية وقتها كقناصل الدول وبعض التجار ومراسلي الصحف ومصوري الفوتوغرافية فكانت تلك الصور من أندر الصور التي تم العثور عليها وهي لعدد من المصورين الأوائل منهم زانجاكي مصور يوناني وبونفيس وفيوريللو الإيطالي، كانت بداية قرن عندما أخذت الفرشاة الفنية ترسم حضارة وأصالة وكانت نهاية ذات القرن أيضًا عندما تحولت للنقيض لترسم خرائب وحرائق، جاء الاحتلال البريطاني لمصر ليسدل الستار على نهاية الفترة الذهبية للاستشراق.

أهم مصادر هذا الفصل:

1 – يوميات الإسكندرية 2881 ، أمل الجيارة.

2 – مصر وكيف غدر بها، ألبرت فارمان.

3 – نينه باشا عربى.



الباب الثالث

الحركة الاستشراقية في القاهـرة الخديويـة



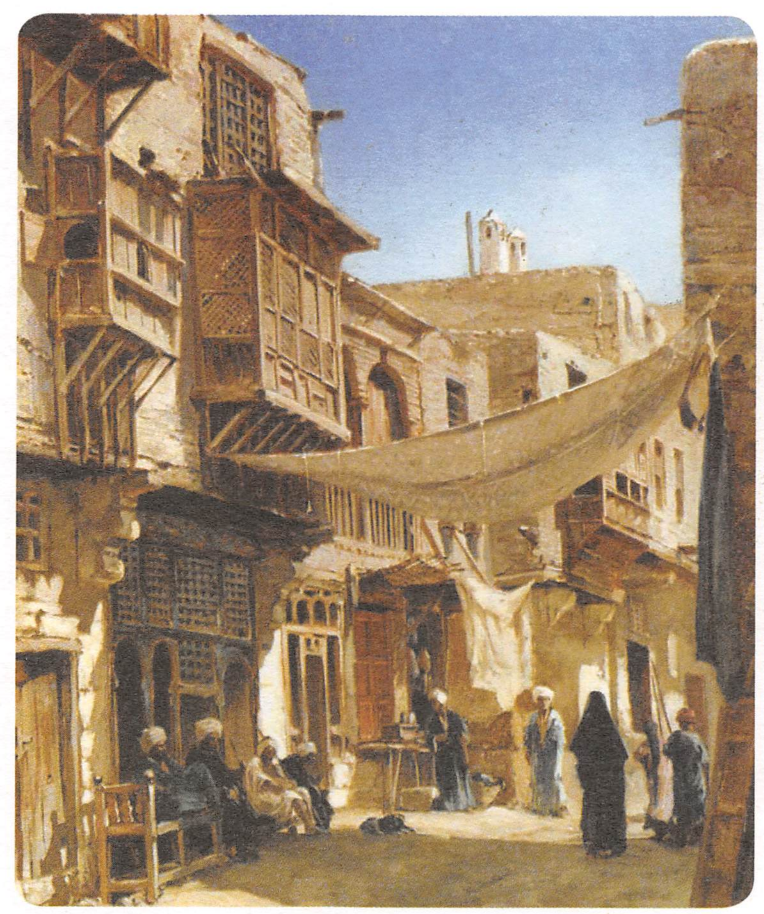
الفصل الأول

ذاكـــــرة الأمـــكـــنـــة

كتب الرسام الألماني الشهير إلى أصدقائه من الفنانين والرحالة والأدباء الأوربيين «إن هؤلاء الذين يريدون مادة مثيرة يستلهمونها في إبداعاتهم عليهم أن يتوجهوا إلى القاهرة هي قاهرة واحدة في العالم كله تتألق في جلال ووقار على ضفاف النيل العظيم وبين روابيها الخضراء وتلالها الذهبية وتراثها الإسلامي العريق مازال ماثلًا في مظاهر الحياة فيها وتتجلى عبقرية المكان والزمان والإلهامات المبدعة».

لعل أول ما يلفت النظر لمسافر تجاه بلد من البلاد أيًا كانت وجهته أو نيته، طرقات وشوارع هذا البلد فهو الذي يقوم باستقباله بكل ما يحتويه من صخب وحياة،ليرسخ ذلك الانطباع الأول فيه عن زيارته لذلك المكان والذي يظل دومًا في ذكراه مهما مر عليه من زمن فنحن لا نستطيع أن ننسى رونق البدايات وذلك الشعور الأول بتلك الشحنات التي تسري بأجسادنا عند خطانا على عتبات البلاد، لذلك كانت دومًا القسطنطينية والقاهرة ذلك الأنبهار الذي لا ينسى عمرًا بأكمله، فشوارع تلك البلاد كأنها مسرح تعرض عليه إحدى المسرحيات الشائقة التي تسترعي انتباه مشاهديها بطريقة جذابة مبهرة لا تدعه يدير نظره عنها، فهي مزيج من كافة أنواع الشعوب واللغات كلًّا منهم بزيه التقليدي وعاداته وتقاليده لم يتساءل أحد منهم ذات يوم ما الذي جمعنا هنا يومًا وما الذي جاء بنا من أماكن بعيدة وثقافات مختلفة ليضعنا وجهًا لوجه معًا، كتب الفنان البريطاني روبرتس في يومياته يقول: «رسمت لوحتين كبيرتين إحداهما لشارع يؤدي إلى المارستان، والأخرى لنفس الشارع، ولكن من زاوية مختلفة، ويغلب على مشاعر الناس

المودة، وفي بعض الأحيان أجد صعوبة في الرسم في شوارع مكتظة بالعابرين، لكن بصفة عامة كل شيء يسير بطريقة مرضية».

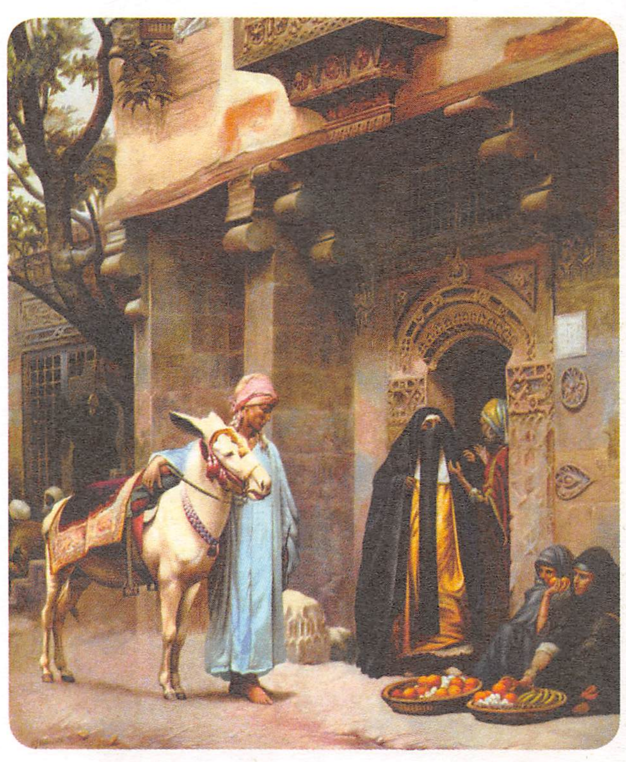


▲ (A street in Boulaq near Cairo by Varley)

(شارع في حي بولاق بالقاهرة ـ فارلي)

ويحكي ألبرت فارمان قنصل أمريكا في مصر «1876-1871» ذلك الانخطاف الذي حدث له عندما رست الباخرة التي كان على متنها وهي تبع خطوط مساجيري مارتين الملاحية «دخلنا ميناء الإسكندرية العتيق المتقلب الأطوار ثم ألقت الباخرة مرساها في مواجهة رأس التين وهو المقر الصيفي للخديوي هنا كان أول منظر وقع عليه

بصري من مناظر الحياة الشرقية التي تكشف أمام ناظري إبان عدة سنوات، تلك المناظر التي اتسمت بالغرابة والفتنة معًا» وبرغم اختلاف آراء وجهات نظر الأدباء والكتاب في كل ما كتبوه أو دونوه عن رحلاتهم الاستشراقية؛ فإنهم قد أجمعوا على شيء واحد وربما نستطيع أن نلخص كل هذه الكلمات في مقولة برايس دافين «1807-1879» مؤرخ وفنان «لا أعرف مدينة تتقابل فيها الأنوار أروع من القاهرة فإن السائر في تلك المدينة التي تنتشر فيها رائحة القرون الوسطى يروعه كل مرة مشهد للترف المسرف إلى مشهد للفقر المدقع وتتصادم في القاهرة البهجة والآلام دائمًا فكثيرًا ما رأيت موكب عروسة تتقدمه فرقة للموسيقيين يتقابل مع موكب جنائزي، وهناك يرى المرء الأبيض بعينين زرقاوين وزنجي منخفض الجبهة غليظ الشفتين، عربي وتركي وشركسي وهندي وحبشي كل أولئك يختلطون ويتزاحمون بالمناكب ويتكلمون لغات برج بابل» أليس هناك أكثر من تلك الكلمات دقة وبراعة في الوصف؟ وإن كان برايس دافين الذي عاش بمصر ما يقرب من الثمانين عامًا منذ تولي محمد علي حكم البلاد لخلع الخديوي إسماعيل من العرش وتولى



▲ (Scène de rue au Caire by h. g Birchall)

(مشهد لشارع في القاهرة - هـ.ج. برشال)

ابنه فؤاد حكم البلاد كما كتب فرمان يصف طلتـه الأولى على مدينة القاهرة «الشوارع مكتظة بالمارة يتجاوب فيها باستمرار وقع أقدام خليط من الناس وهم يسرعون في طريقهم هنالك توجد الحمير لركوب السائحين أو النساء المحجبات اللاتي يرتدين ملابس سوداء واللاتي ينتمين إلى القشرة الدنيا من الطبقة الوسطى ويجري خلف الحمير المكاريون بصرخاتهم العالية وتوجد مجموعة من الجمـال المحملة بالحبوب وأخرى أسرع منها تحمل البدو على ظهورها كما توجـد بعض العربـات تحمل النسـوة الجميلة من حريم الخديوي تغطي وجوههن غلالات رقيقـة وهناك عربات أخرى أقل فخامة تحمل بنـات البكوات والباشوات ويرافقهن كذلك أغواتهم «هكذا كان المشهد لشوارع القاهرة وكان علينا تخيله لولا أن رسمت له الكثير من اللوحات فليس هناك متعة فنان أكثر من هذا العرض الشائق، جاءت الكلمات طبقًا للوحات مما يوضح حياديتها أو رسمها للواقع تمامًا، وكتب الفيلسوف والأديب الفرنسي فلوبير عند زيارته لإسنا تلك البلد الجميلة بمبانيها العريقة عراقة السكان وكيف أنه التقى هناك عبد الباري شنقير الذي قاوم الحملة الفرنسية بإسنا وقد أطلقوا هناك على فلوبير لقب أبو شنب وقد بعث لأمه خطابًا يحكي فيه عن أن المصريين استبدلوا اسمه لأبي شنب لكثافة شنبه وفي رسالة بعث بها من القاهرة إلى صديقه، في يناير سنة 1850، كتب الأديب جيرار الرحالة الفرنسي «نحن الآن في القاهرة.. وما الذي يمكنني أن أكتبه لك؟ فحتى الآن، لم أكد أتجاوز الانبهار الأول، فكل تفصيل يبرز لكي يمسك بك ويبرحك، وكلما ازداد تركيزك عليه قل استيعابك للكل، ثم شيئًا فشيئًا يصبح كل ذلك متناغمًا، وتتكامل الأجزاء من تلقاء نفسها».

وتعد زيارة جيرار الشاعر والأديب الفرنسي الذي ترك فرنسا بعد واقعة مؤلمة في حياته أصابته بمرض نفسي دخل على إثرها المصحة وبعد تسجيله تلك الكلمات بأقل من عشر سنوات كان قد شنق نفسه في ليلة ثلجية في أحد شوارع باريس بعدما ترك رسالة لعمته التي كان يقطن معها كتب فيها «لا تنتظريني هذا المساء فالليل أبيض وأسود» ورثاه بكلمات شديدة الحزن صديق عمره الكاتب والأديب الفرنسي جوتييه الذي اصطحبه معه في رحلته لمصر، شد نرفال رحاله لبلاد الشرق ممنيًا نفسه برحلة جذابة وشائقة ينسى بها

ذكرى ألمه وتعيد له مقدرته للكتابة مجددًا، وكان ذلك عام 1843 غادر بمصاحبة صديقه الأديب جوتييه الذي كان يختلف عنه في نظرته التشاؤمية فهو يعشق بقايا المدن الزائلة بينما كان لنرفال قولٌ مشهور آنذاك: «إن تقاليد المدن والشعوب الحية أكثر مدعاة للفضول من بقايا المدن الميتة» ولذلك رأيناه يتوحد مع تلك العادات والتقاليد فارتدى الزي الشرقي وحلق رأسه ووضع الطربوش واستأجر منزلًا في حي الأزبكية الذي كان يسمى بحي الإفرنج واتخذ لنفسه جارية بيضاء بعدما هدد بأن يطرد من الحي إذا لم يتزوج أو يشتري له جارية خاصة وقد قال إزاء تلك التصرفات: «إننا لا ننتسب بالضرورة للبلد الذي شهد مولدنا فأنا أرى نفسي تركيًا لكن لست من إسطنبول أو من مصر، يبدو لي أنني عشت في الشرق؛ فإنني أشعر أنني أستعيد ملابسي الحقيقية لقد كنت مندهشًا أنني لا أفهم اللغة العربية بيسر لابد أنني نسيتها» وكان الأديب نرفال قد قرأ الكثير عن الشرق قبل أن يسافر له ودرس عاداته وتقاليده وأثناء وجوده بالقاهرة كان يتردد على مكتبة أنشأها الفرنسيان برايس دافين والدكتور أبوت وكانت تلك المكتبة ملتقى المثقفين وكتب يقول إنه كان يجد بها كل الكتب المتيسرة عن مصر وتوجد أماكن أخرى أكثر إثارة مثل صيدلية «كاستانيول» التي كان يلتقي بها مع بكوات من أصل فرنسي وأعلن عند زيارته للقاهرة أنه يجب العيش بها لأكثر من عام حتى تستطيع الغوص في أسرارها، وقد قام بتأليف كتابين أحدهما عن رحلته للقسطنطينية بعنوان «من باريس إلى القسطنطينية رحلة صيفية» وروايته التي حازت شهرة مطلقة «المومياء»، وتحت عنوان «ذكرى من شبرا» يصف الأديب قائلًا: «منذ سنين زرت القاهرة، مقر والى مصر، وهو مقر جميل في شبرا، جعل منه محمد علي جنة الشرق ثم وصف شارع شبرا بأنه لا مثيل له في العالم»، أما الفنان الرحالة الفرنسي مونتبار، فإنه وصف حدائق شبرا بأنها شانزليزيه الشرق وذكر أن هذه الحدائق ترتادها الطبقة الراقية من القاهريين، والعربات الفخمة تجرها الجياد المجرية المطهمة، تحمل أفراد الأسرة الخديوية، والأمراء وكبار الأعيان، يتقدمها قمشجية (سياس) بستراتهم المزركشة يفسحون لهم الطريق، بينما وفي نفس الطريق يمكننا رؤية الأطفال المتسولين والشحاذين الحفاة وفئة أقل ثراء من عامة الشعب».

هكذا هي القاهرة دومًا كعملة تحمل نفس القيمة ولكن بوجهين مختلفين، ولكنها كانت وستظل هي الأجمل بين المدن، أليس من الغريب أن تلك الكلمات التي كتبت منذ ما يقرب القرنين والنصف كأنها تصف يومنا الآن؟!

أهم مصادر هذا الفصل:

1 - مذكرات الفنان والمستشرق الفرنسي برايس دافين.
2 - مصر وكيف غدر بها، ألبرت فارمان.
3 - الرحلة إلى الشرق تأليف بيير جوردا.
4 - رحلة شاتوبريان للشرق.
5 - الرحلة إلى الشرق لجوتيه.
6 - الحياة الاجتماعية في القاهرة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، د. سمير عمر إبراهيم.

الفصل الثاني

الأجناس المختلطة في الشارع المصري



▲ (bashi bazouk singing by Jean Leon Gerom.)

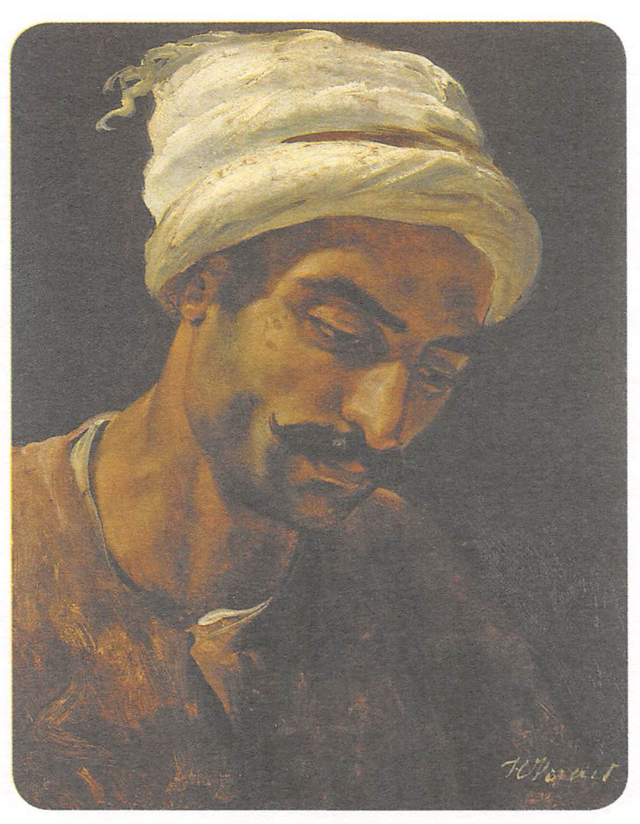
(باشبازوق يغنون - جان ليون جيروم)

المماليك يرجع وجودهم في مصر منذ عام 1517 عندما استعان بهم العثمانيون في حكم البلاد وكان البكوات يختارون المماليك لأنهم فئة ممتازة قوية وتمتاز بالذكاء ويتعلم المملوك في مدارس خاصة ويجهز للعمل العسكري بعد إمداده بملابس عسكرية وسلاح عبارة عن زوج من المسدسات وسيف وخنجر ويرتدي خوذة حديدية تتدلى منها سلسلة فولاذية ويمتطي أجود أنواع الخيول، وقد قل وجودهم في مصر بعد الحملة الفرنسية حيث كان عددهم في بداية الحملة 8500 رجل ظل يتضاءل لعدة أسباب فقد قضى الطاعون

والحروب على عدد كبير منهم وأخيرًا تخلص منهم محمد علي في مذبحته الشهيرة بالقلعة وفر الباقون إلى الصعيد ويعرف عن المماليك أنهم لا يتزوجون ولا ينجبون وملبسهم هو الأشد طرافة وغرابة يرتدون قفطانًا يصل إلى مستوى الحزام العريض من الطول ويرتدي سروالًا طويلًا وآخر أقصر طولًا يصل إلى سمانة الرجل وأكثر اتساعًا ويصنع من قماش الجوخ، وقد جندت الحملة الفرنسية عددًا من المماليك وقاموا بالخدمة لديهم وسافروا مع بونابرت لفرنسا مع جلاء الحملة الفرنسية عن مصر، استلهمت تلك الفئة المملوكية الفنانين الفرنسيين وهم بعد في أماكنهم فقاموا برسمهم والإشادة بقدراتهم الخارقة ويقول المملوك الأكثر شهرة رستم في مذكراته «إن نابليون قال لي هذه غرفة نومك وأطلب منك أن تنام بجوار بابها ولا تدع أي أحد يدخلها فسوف أقوم بالاعتماد عليك» وقد شارك المماليك مع بونابرت في حروب كثيرة خاضها وكان عددهم يقارب الـ150 مملوكًا وكتب ماركو ديسان هيلير يصف المماليك في مذكراته «كان سرب المماليك وهو يمشي بين الحرس الإمبراطوري مثل صفحة غامضة من صفحات ألف ليلة وليلة كان كل شيء يتم على الطريقة التركية راية الحرب فوق ذيل الحصان والطبول والأبواق وإعداد الحصان وإسراجه أما هذه الملابس الأنيقة وتلك السيوف المتوهجة والمعقوفة والقنزعة التي تعلو العمامة وهذه المزركشات المصنوعة من الحرير والذهب فإنها تجعلنا نفكر بالرغم منا في فتوحات ملوك المغرب ومآثر بني سراج «في الوقت نفسه كان هناك فرقة من الفرنسيين تخلفت عن الحملة واشتغلت في خدمة البكوات ومحمد علي وكتب شوتربان كاتب فرنسي «تترك الجيوش الكبيرة وراءها دائمًا متخلفين عن الركب وقد وجدهم يرتدون ثيابًا حريرية وعمائم بيضاء وأسلحة فاخرة وحريمًا وعبيدًا وخيولًا وكل شيء لا يمكن أن يمتلكه أبواه في جاسكوني أو بيكاردي لكن حتى وسط تلك كل المظاهر وجد زيًّا عسكريًّا مزقته طعنات السيوف وفراشًا على الطريقة الفرنسية».

الألبانيون: أما عن الألباني ذلك الذي وصفه برايس دافين «أنه يختال في مشيته مرسلًا نظرات ماكرة شرسة وهو يدور في الأسواق العديدة في ردائه الأبيض وقميصه الطويل الذي شمره إلى كتفيه وسترته التي يكسوها تطريز منطفئ اللون وخنجره المستطيل ومعطفه

بالقلنسوة المزركشة كل ذلك يصبح كأطرف الأزياء» وهم طائفة من ألبانيا استعان بهم الجيش المصري للتصدي للحملة الفرنسية بمصر وهم مشهورون بالبسالة والولع بالقتال وحب السلطة والمال وزعيم تلك الطائفة كان طاهر باشا الأرنؤوطي لذلك نسبت تلك الطائفة لاسمه، وقد عانى أهالي القاهرة كثيرًا من فوضى وشغب الألبان في القاهرة فقد كانوا ينهبون البيوت والأسواق ويكسرون أبواب الدكاكين ويسرقون ما فيها ويعتدون على المنازل، وأمرهم الباب العالي بترك البلاد بعد جلاء الحملة ولكنهم رفضوا وأصروا على البقاء في مصر، وقد تخلص منهم محمد علي بالاستعانة بهم في الحرب الوهابية مما أدى إلى القضاء على عدد كبير منهم.

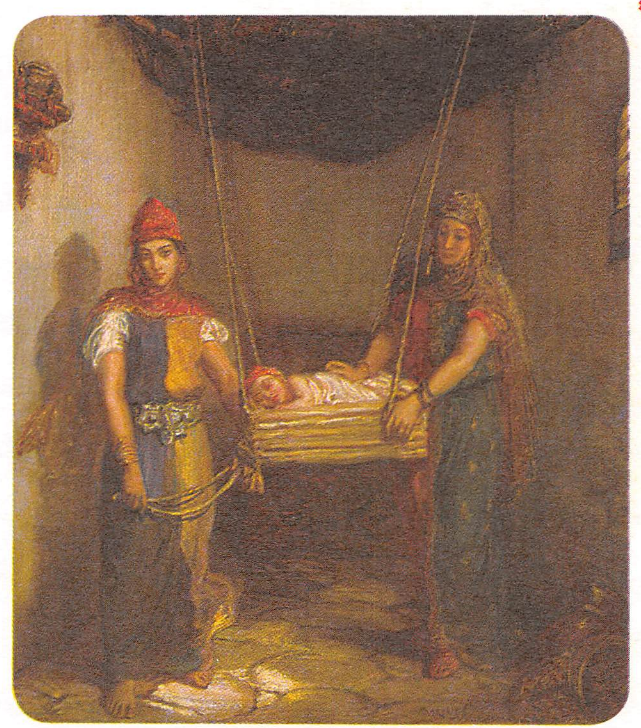


▲ (Head of an Arab by Horace Vernet 1819)
(لوحة لشخص عربي - هورس فيرنت 1819)

العرب: وهم كل لسان يتحدث العربية والمقصود بهم أهل البلاد وقد وصفهم برايس قائلًا: «فخور باستقلاله متدثرًا بمعطفه الأبيض الفضفاض وقد شد بندقيته الطويلة إلى حمالة حول كتفه وصدره ويمتطي صهوة فرسه».

الأقبـاط: كان عدد أقباط مصر في بداية القرن يقدر بحوالي 15 ألف نسمة منهم على الأقل 10 آلاف نسمة تسكن بالقاهرة وقد تزايد هذا الرقم حتى وصل إلى ضعفه في نهاية القرن وكان أقباط مصر يعملون عادة في مهنة الكتابة والزراعة وانضم منهم كثيرون للعمل في مصانع النسيج التي أنشأها محمد علي وخاصة في الأعمال التي ترتبط بصورة خاصة بالديانة المسيحية كملابس رجال الدين والعمامة وصناعة الصلبان من الخشب المطعم بالفضة والعاج وكذلك صناعة الشمع الذي يقاد في الكنائس، كان الأقباط أقلية يسكنون في الحي القبطي الذي يغلق عليهم ليلًا بوابة خشبية بمتاريس حديدية ويلبسون ملابس خاصة بهم بألوان محددة وربما حصل الأقباط على حرية أكبر أثناء الحملة الفرنسية على مصر حتى انضم منهم 500 جندي للحملة وكان نابليون يستعين بهم لجمع الضرائب، وبعد الحملة وقعت مصر تحت حكم الأتراك وصدرت الأوامر أن يرجعوا إلى زيهم القديم مرة أخرى وأثناء حكم محمد علي تغيرت إلى حد كبير معاملة الأقباط ودورهم في البلاد الذي أخذ مظهرًا أكثر إيجابية واهتمامًا استعان الوالي التركي بعدد كبير منهم في الحكم وشهد لهم بالكفاءة والإخلاص مثل باغوص باشا سكرتيره والمعلم غالي رئيس ديوان ماليته ولم يبخل عليهم بمنحهم الألقاب الشرفية كباشا وبك وبالرغم من ذلك فقد أمر محمد علي باشا عام 1812 بإعدام رئيس ماليته في حضور ابنه لاختلاسه من الأموال وقد أمرت السلطات ببناء وترميم الكنائس ولم يعد يتعرض الأقباط لأذى إزاء عقيدتهم كما كان في السابق وتم إلحاق 4000 جندي من الأقباط واليهود في جيش محمد علي ومع الوقت تأقلم الأقباط أكثر مع المجتمع الإسلامي وأصبحوا نسيجًا واحدًا وأشهر اللوحات التي رسمت في هذا السياق لوحة الكاتب القبطي.

اليهــود:

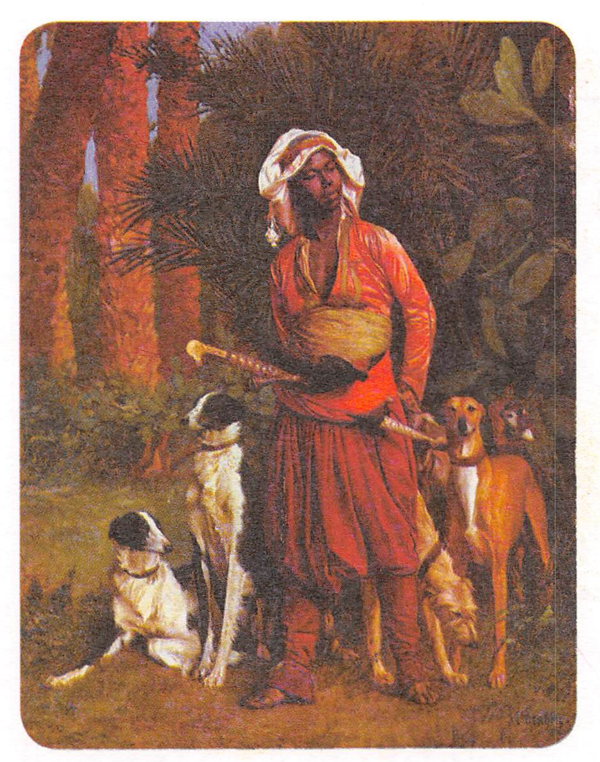


▲ (Two young Constantine Jewesses rocking a child by Theodore Chasseriau)

(فتاتان يهوديتان من القسطنطينية تهدهدان طفلًا - تيودور شاسيرو)

كان عددهم في بداية القرن سبعة آلاف فرد ويقيم معظمهم في مدينة القاهرة في حي اليهود الذي له بوابات خاصة بهم يغلقونها عليهم إن أرادوا ذلك ليكونوا بمعزل عن الناس لأسابيع طويلة ويعرف حيهم بالقذارة الشديدة ويلبسون ملابس حقيرة وبالية ويعملون في بيع الأشياء القديمة وتجارة المصوغات والسمسرة بالبيع والشراء، ومع الوقت خرج اليهود من تلك الشرنقة وجمعوا التبرعات وأقاموا المدارس واهتموا بالتعليم وفي نهاية القرن كانت أشهر الشخصيات التي تعمل في التجارة والسمسرة بالبيع والشراء والبنوك هي لأشخاص يهود مثل قاطاوي باشا وشيكوريل وموصيري باشا وهناك لوحتان عن اليهود إحداهما حفل زفاف يهودي ولوحة فتاتين يهوديتين تؤرجحان طفلًا صغيرًا.

العبيد:



▲ (dogs hostler by Jean-Leon Gerome)
(لوحة لمربي كلاب - جان ليون جيروم)

كان العبيد في مصر في القرن التاسع عشر يصنف بلون بشرته «أبيض -بني- أسود» وقد حكم مصر لسنوات طويلة عبيد البشرة البيضاء وهم المماليك وكانوا يجلبون من جورجيا - أذربيجان -أرمينيا- منغوليا وكان ثمن العبد الأبيض أغلى ثمنًا، وأعمال العبيد البيض تختلف عن العبيد السود فالفتيات الجميلات الشركسيات والعجماوات مكلفات بالأعمال البسيطة كالقهوة والشاي في حين الفتيات الحبشيات والإفريقيات تعملن في الأعمال الأكثر تعبًا وقد ألحق محمد علي عددًا كبيرًا منهن مصانع النسيج واستعان كلوت بك بعدد منهن في مدرسة التوليد التي أقامها في القصر العيني بينما ألحق الذكور في الجيش وأعمال الحديد والصلب ومصانع البارود، وكان وضع العبيد في الأسر المصرية مختلفًا عن الشكل الذي نتصوره؛ فكما وصفه جيرار المستشرق الفرنسي أنه أقرب من التبني منه لاستعبادهم وكان امتلاك عبد دليلًا على المستوى المادي المرتفع للفرد وقيمة اجتماعية خاصة وكان تجار العبيد في مصر ينقسمون إلى قسمين: التجار الذين يشتغلون بتجارة العبيد السود «الجلابة» والتجار الذين يشتغلون بتجارة العبيد البيض «اليسرجية» وكانت لهم طائفة خاصة بهم وجمارك في أسيوط وأسوان،وتشغل وكالة كبيرة ملحق بها سوق للعبيد مساحة كبيرة عند

ضريح قايتباي وكان مشهد تجمع العبيد وعملية البيع والشراء الأكثر إثارة لخيال الفنانين المستشرقين لم يزر أحد منهم البلاد وتركها إلا وقد رسم وكتب عنها، وصف نرفال ذلك المشهد قائلًا: «كانت الفتاة تمشي عارية الصدر ليظهر مدى ليونة صدرها ويكشف عن أسنان الفتى لتظهر مدى قوته»، وقدر عدد العبيد في الفترة ما بين 1838 و1840 بأنه يتراوح ما بين 22 ألفًا و30 ألفًا مقسمين كالآتي أربعة آلاف وخمسمائة من الذكور ذوي البشرة السوداء ومن 15.000 و20.000 أنثى من ذوات البشرة السوداء وهذا يوضح أن عدد الإناث أكثر بكثير من عدد الذكور ومن 4000 ذكر من البشرة السوداء و3000 أنثى من ذوات البشرة البيضاء وهذا يوضح أن الإناث ببشرة سمراء هن الأكثر عددًا خاصة وأنه كان هناك الكثير من الطلب عليهم للعمل في شتى المجالات، وقد ألغى الخديوي إسماعيل تجارة الرقيق بعد ما وقعت الحكومة المصرية والبريطانية على اتفاق بالإسكندرية يقضي بمنع تجارة الرقيق 1877، هذا وكان هناك رخصة تمنح للعبد حريته تسمى تذكرة الحرية ويتم استخراجها من قلم تحرير العبيد التابع للمحافظات وفيها يكتب اسم العبد وجنسيته وسنه وأوصافه واسم من كان بطرفه وفي ذيل الوثيقة يكتب بالخط العريض: أن فلانًا أصبح حرًّا كسائر الأحرار وله ولاية أمر نفسه كما شاء بلا قيد أو شرط.



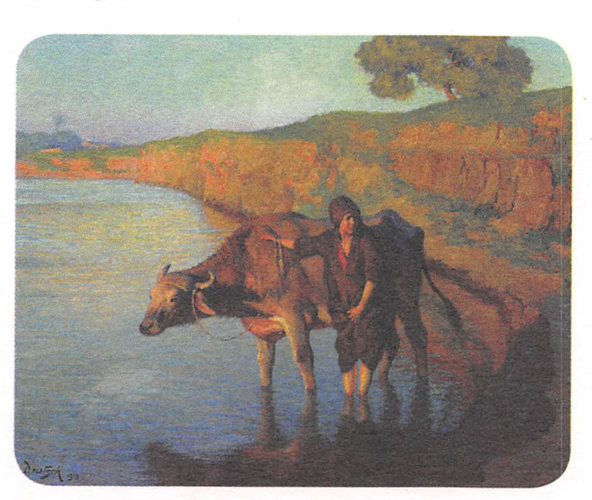
▲ (The Slave Market by William Allan)

(سوق العبيد - وليم ألان)

ووصف جون فرديريك لويس الفنان البريطاني السوق قائلًا: «أحد الأماكن التي أفضلها مع أني لم أكن فنان أشخاص والعبيد معروضون للبيع في هذا الفناء وكان عددهم حوالي أربعين معظمهم من الشباب والباقي من الأطفال كان المشهد مثيرًا يبعث على الأسى والحزن والجواري الجميلات تلزمن غرفة أعلى الفناء وكان معظمهن من القوقازيات والحبشيات وعندما يتقدم أحد المشترين أرى التاجر يرفع الرداء الصوفي من فوق أجسادهن».

الفلاح:

في النصف الأول من القرن التاسع عشر ومع الجهل المنتشر الذي ساد البلاد جراء حكم المماليك انقسم الشعب لعدة فئات تجار وصناع وفلاحين وكانت فئة الفلاحين هم أكثر تعداد الشعب، ولفتت أنظار المستشرقين الهيئة التي يظهر بها الفلاح المصري هو وعائلته وكأن هؤلاء المستشرقين لم يكتفوا بما تقدمه لهم القاهرة من مشاهد غريبة عنهم فانتشروا في أعماق البلاد،واختصر وصف الفلاح المصري برايس دافين ومن المعروف أنه قضى معظم حياته في رحلات حول قرى ومحافظات مصر «الفلاح المصري طويل القامة قوي البنية تتوقد بالحياة عيناه السوداوان الغائرتان وهو غليظ الشفتين جميل الأسنان ينتهي وجهه البيضاوي بلحية سوداء مجعدة غير كثيفة» وفي وصف الفلاحة كتب يقول: «طويلة القامة رشيقة مرنة خفيفة المشية تتزوج في الثالثة عشرة من عمرها لتبدو عجوزًا وهي ما زالت في الخامسة والعشرين من كثرة إنجاب الأطفال وحياة البؤس التي تحياها تقوم بمساعدة زوجها في أعمال الريف والمنزل».



▲ (LA Jeune fille avec la buffle, Ludwig Deutch)

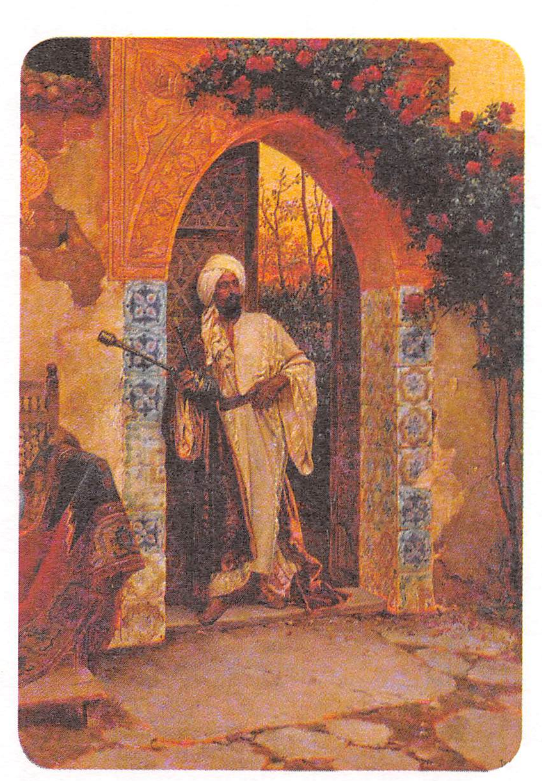
(فلاحة مع الجاموسة - لودفيغ دويتش)

أطفال الفلاحين «هم مخلوقات تعسة وهم ضعفاء قد أصابهم الهزال والكساح والعري لم يغسلوا وجوههم قط وقد حاصر الذباب جفونهم ويهلك أغلبيتهم وهم بعد في أعوامهم الأولى نظرًا لحياة الجهل والخرافات المسيطرة على فئة الفلاحين ومن ينجو منهم سرعان ما يتحول لشاب وسيم أو فتاة جميلة فور البلوغ» وعن حياة الفلاح في ظل حكم تركي مستبد «ليس في وسعهم الحصول على غذاء صحي؛ فغذاء نباتي وكثير من خبز الذرة ونادرًا ما يتناولون اللحوم والشراب الوحيد في متناول يده هو الماء وترف تناول القهوة وتدخين الجوزة وأما القهوة فهي ثقيلة ومركزة وبلا سكر وتمنح هؤلاء المساكين القوة التي لا يمنحها لهم غذاؤهم وبعد موسم الحصاد يصاب الفلاح بالخمول؛ فيجلس بلا عمل سوى تدخين الجوزة تحت ظل شجرة لعدة أسابيع ولا يقوم بالعمل إلا بالتهديد أو بالضرب من السلطة العليا».

الفصل الثالث

الأزيـــــاء

لفتت أزياء تلك الحقبة الزمنية الكثير من المستشرقين أولًا لشدة تنوعها فقد كان لكل طائفة لها الزي الخاص بها وثانيًا لشدة غرابتها واختلافها عن الأزياء الغربية، لذلك وجدنا الكثير من الفنانين رسموا تلك الملابس بتفصيل دقيق، وشرحها الكتاب شرحًا أوفر دقة. كان زي المماليك هو الأكثر دهشة وغرابة كما وصفناه مسبقًا، ولوحة باشا بـازوق، وهي تعرض تفاصيل ملابس جندي مملوكي، كانت الأشهر بين اللوحات وبيعت مؤخرًا بـ 70 مليون دولار وهي للفرنسي جـان ليون جـيروم، وتأتي في المرتبة الثانية ملابس النساء وبالرغم من اختلافها من طبقة إلى طبقة؛ فإنه لم يكن هناك أي من السيدات يسمح لهن بالخروج للشارع بدون غطاء الوجه. الأكثر غرابة أيضًا في عالم



▲ (By the Entrance by RUDOLPH ERNST)
(المدخل - إرنسـت رودلف)

الأزياء هو الحذاء الأحمر الذي كان يشير إلى الأقباط، فغير مسموح لهم بارتداء ألوان أخرى للأحذية.

تتسم ملابس الرجال بأنها واسعة فضفاضة حتى تتلاءم مع الجو الحار، ويصنعها الفقراء من الكتان بينما يصنعها الأغنياء من الحرير والكشمير الهندي، وتتكون من القميص الذي يصل لكاحل القدم، السروال وهو يصل للركبتين ويمسك بشريط مطاطي، ثم الصديري الذي يصنع من حرير أو قطن، وأخيرًا القفطان الذي يُتدثر به فوق كل هذه الثياب ويشبه الروب، وربما أهم من كل ذلك كان الحزام العريض والمزركش الألوان، والجبة تلبس فوق القفطان، وفي الشتاء تبطن بالفراء، وفوق الرأس كانت توضع العمامة وهي عبارة عن طربوش قصير من الصوف مصبوغ باللون الأحمر وتحته طاقية رقيقة تسمى القلنسوة، وتلف فوق الطربوش عمامة يختلف لونها من طائفة لأخرى ومن وضع اجتماعي لآخر؛ فعمامة العلماء والمشايخ تكون أكبر وأضخم ولونها أخضر، وعمامة المسلمين من الأبيض أو الأحمر، وعمامة الأقباط من الأسود أو البنفسجي أو الأحمر الغامق، وكان منتشرًا وقتها أن يخبئ الرجال أموالهم في العمامة خوفًا من السرقة، وفي أحيان كثيرة كانت تلك العمامة تخطف من فوق الرأس بدافع سرقة الأموال المخبأة فيها.. ووصل الأمر للاهتمام بتلك العمامة أنه كان هناك مقعد يصنع خصيصًا لها لتعلق عليه ولا يخلو جهاز للعروس من وجوده، أما ملابس الفقراء والبسطاء من الرجال فكانت عبارة عن سروال فوقه قميص طويل أو ثوب أزرق أو أسود واسع الأكمام من الكتان أو القطن يسمى الزعبوط وحزام عريض أحمر اللون من الصوف أو الجلد وبه عادة كيس لحفظ الأموال. والعمامة قطعة من قماش أبيض تلف على الرأس، وكان المسلمون عادة لا يلبسون أحذية بل مركوبًا وهو مفتوح من الخلف ومعقوف من الأمام ويحترم المسلمون طريقة لبسهم المتوارثة أبًا عن جد ولكن مع مرور الوقت والانفتاح الأوربي في عصر محمد علي حلت الملابس الأوربية تحل مكان تلك الملابس أو ربما يتخلى البعض عن قطع من الملابس ويستعيض عنها بشيء آخر. وقد قابل محمد علي هذا التغيير بكل شدة وعنف، ولكنه وجد أن مهمة الجيش بمثل تلك العمامة التي تمثل حملًا ثقيلًا فوق الرأس ستكون أكثر صعوبة؛ فاستبدلوا الطربوش بالعمامة واتبع إبراهيم باشا ذلك التقليد ومنه كان لعامة الشعب حتى

إنه إزاء هذا الاستهلاك الكبير في الطربوش أمر محمد علي بإقامة مصنع مخصوص للطرابيش بعد أن كان يتم استيرادها من الخارج، كما انتشر القميص الاستنمبولى بشدة بين الرجال وهو عبارة عن قميص طويل تتراص الأزرار في منتصفه وبياقة قصيرة.

كان زي المرأة الأكثر لفتًا للانتباه وكان يمتاز بكثرة الزخرفة والتوشي بالذهب والحرير والكشمير، ويتكون من القميص وهو يصنع من قماش غالي الثمن ومزركش من الحرير وواسع فضفاض ويصل للركبتين، ثم شنتيان وهو كالجونيلا يمسك على الخصر بحبل من المطاط «أستك» يمسك الثوب وهو يصل من الكتفين إلى القدمين وملئ بالأزرار تتلو بعضها بعضًا والحزام عريض يلف حول الخصر ويكون من الحرير أو بأنواع أغلى من ذلك حسب ثراء المرأة، ثم الحبرة وهي تلبس فوق كل هذا ليغطيه تمامًا غطاء الرأس وهو عبارة عن طاقية قطيفة حمراء حولها منديل أو أكثر ويثبت في مقدمتها قطعة من الصفيح وأحيانًا من الذهب توصل بالبرقع وهو غلالة خفيفة من القماش تغطي بها المرأة وجهها عدا عينيها. وغطاء رأس الفتاة من الأحمر أو الأبيض والسيدة من الأسود، أما المرأة الفقيرة فملابسها عبارة عن ثوب فضفاض وبرقع يغطي الوجه مربوط بمشبك من نحاس، وترتدي المرأة في قدمها قطعة من الجلد الأصفر يسمى البابوج طرفه طويل وملتو لأعلى، وبعد الانفتاح الأوربي كان كثير من النساء يخرجن متبرجات غير ملتزمات بالزي فكتب الجبرتي في ذلك يقول: «تبرج النساء وخرج أغلبيتهن عن الحشمة والوقار»،



▲ In the dressing room by Ettore Simonetti)

(في غرفة الملابس - إيترو سيمونتي)

ومع الوقت تخلص المصريون من تلك الملابس شيئًا فشيئًا، فنجد أن المرأة في منتصف القرن الثامن عشر لم تعد تلبس الطاقية الحمراء وتلف فوقها تلك الشالات، ولكنها اكتفت بشال تلفه فوق رأسها، كما انتشر القميص الاستمبولي بشدة بين الرجال، وتخلى الرجال أيضًا عن العمامة التي تلف حول الطربوش واكتفوا بالطربوش وحده. وفي عهد الخديوي إسماعيل حدثت طفرة كبيرة في الأزياء الأوربية بكل أشكالها، فأخذ النساء يلبسن من تصميمات مصممي أزياء غربيين وبخاصة الفرنسيون الذين انتشروا في القاهرة والإسكندرية، وكانوا يقدمون تصميماتهم لنساء الطبقة الراقية، وبدورهن ينقلن تلك الأزياء للطبقات المتوسطة من الشعب وتخلى الجميع عن المركوب واستبدلوه بالأحذية الجلدية الأنيقة.

وقد وصف المؤرخ برايس دافين الجمال المصري قائلًا: « أما جمال المصريات ففيه شيء مما يروقك من كل نساء العالم تقريبًا،وليس حسنهن في انتظام التقاطيع والجمال الأوربي الصارم، إنه حسن حلو ساحر مزيج من إفريقيا وأوربا، بشرة ذهبتها الشمس وعينان واسعتان، ولكن ذلك الجمال الذي نحت على المعابد القديمة وتلك الخصور النحيفة والقوام الرشيق الذي نحتت صوره على المعابد المصرية القديمة قد تبدل لتصبح المرأة المصرية أكثر سمنة فلا تقوم بأي رياضة حتى أعمال المنزل توكل إلى الجواري، وبحثًا وجريًا وراء تناول الأطعمة الأكثر دسمًا حتى تصبح المرأتان المصرية والتركية طبقًا للسان الشعراء كما وصفوهما في قصائدهم، فالوجه أبيض ومستدير كالقمر والوجنتان تفاحتان أما عن الردف فقد قال فيه أحدهم «لها ردف إن قامت أقعدها».

أهم مصادر هذا الفصل:

1 - مذكرات المستشرق برايس دافين.
2- الحياة الاجتماعية في مصر في عصر إسماعيل، تأليف دكتور صالح رمضان.
3 - العجائب والأسرار في التراجم والأخبار، الجبرتي.
4 - المصريون المحدثون، تأليف إدوارد وليم لين.
5 - الحياة الاجتماعية في القاهرة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، د. سمير عمر إبراهيم.
6 - لمحة عامة على مصر، تأليف كلوت بك.

الفصل الرابع

مـهـن منـدثـرة



▲ (The water carriers by Carl Meller - 1880)

(السقا - كارل ميلر - 1880)

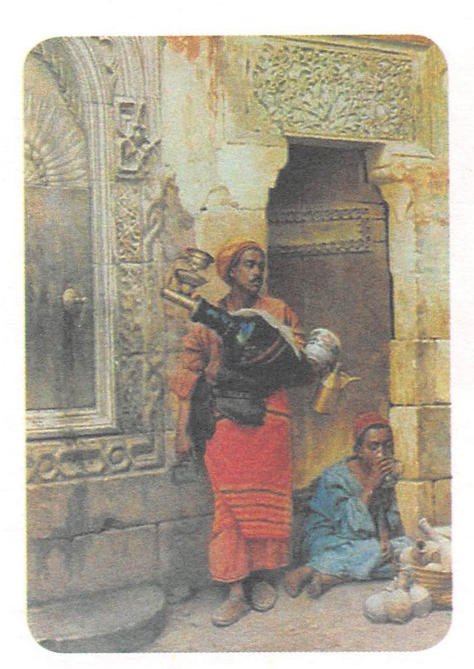
السَّقَّا:

كانت صورة السقا هذا الرجل الذي يحمل قربة ماء على ظهره المنحني ويطوف بها وهو يصيح «يعوض الله» مشهدًا وجدناه كثيرًا في لوحات، ووصفه الكثير من الكتاب، فقبل إنشاء شركة المياه 1865 كان السقا هو الذي يحمل المياه من النيل وينقلها مباشرة إلى الأهالي في قِرب من جلد الماعز بصنبور نحاسي وبعد صب القرب يقوم بنقش خط على لوح معلق على باب المنزل بعدد القرب التي أحضرها، وكان على صعوبة مهنته

وأهميته لا يحصل على أجر يساوي ما يعانيه من جهد وتعب. وكانت طائفة كبيرة تتحرك بواسطة حمير أو جمال وأحيانًا على أقدامها، وأثناء نشوب أي حريق كالذي وقع في القلعة 1820 والذي وقع في الحي الأفرنجي يلجأ المواطنون إلى السقا لإطفائها وكان ينجح في ذلك، يطوف السقا وهو يصيح « يعوض الله» ويوزع المياه على البيوت والدكاكين، وفى الاحتفالات العامة والخاصة يطوف السقا ليوزع ماءه المعطر بماء الزهر على المدعوين ليحظى بالبقشيش.

بائع العرقسوس:

يعتبر مشروب العرقسوس أشهر تلك المشروبات الشعبية الرخيصة، ويطوف بائع العرقسوس بملابسه الشهيرة وإبريق من الفضة أو النحاس موصول بصنبور يملأ منه الأكواب النحاسية للمارة في الطرقات والشوارع ويلفت النظر له بتلك الصاجات التي يحملها بين يديه ويدقها لتصدر رنينًا خاصًا يصيح قائلًا: «كلك شفا يا عرقسوس» والعرقسوس مستخلص من زهرة البنفسج بعد تجفيفها وطحنه، ويعتبر بائع العرقسوس شخصية جذابة للمستشرقين سواء للملابس التي يلبسها أو لتلك الجلبة التي يصنعها برنين الصاجات والإبريق الذي يحمله معه، لذلك وجدنا له الكثير من اللوحات تحمل اسم مهنته « بائع العرقسوس» حتى وإن كان الذي مَنْ رسم اللوحة يجهل ما مذاق ذلك المشروب.



▲ (street vendors by Ludwig deutsh 1870)

(الباعة الجائلون ـ لودفيغ دوتش 1870)

الكاتـــب:

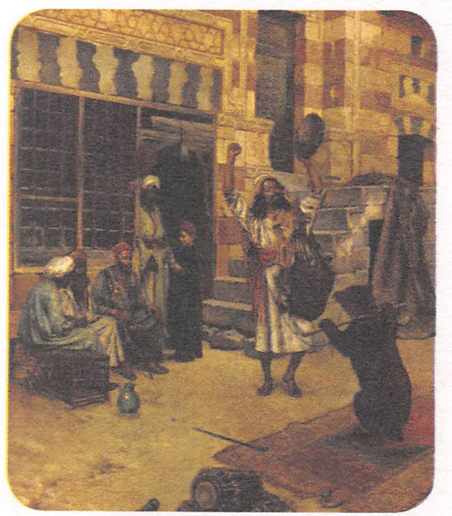
إزاء عهد المماليك والعثمانيين لم يكن هناك أدنى اهتمام بالتعليم، فتفشى الجهل والأمية، وكـان دور التعليم مختصرًا على تلك الكتاتيب التابعة للمساجد الكبرى يذهب إليها التلاميذ ليتعلموا مبادئ اللغة والحساب وتعاليـم الدين الإسـلامي، ونظــرًا لتفشــي الأمية وجدت مهنة الكاتب أو العرضحالجي وهو الرجل الذي يلجأ إليه الأهالي في حالة حاجتهم لكتابة رسالة أو شكوى، كما أنهم يلجئون له أيضًا في حالة تسلمهم رسالة يجهلون فك رموز حروفها، وإن لم تكن مهنة الكاتب متوقفة على الأقباط، إلا أنهم كانوا كثيرًا ما يمارسونها. وجاءت لوحة «الكاتب القبطي» وهي لرجل يجلس على مصطبة عالية أمام دكانه ممسكًا بالريشة وفي انتظار الزبائن ليملوا عليه حروفهم.

▲ (The Scribe by Ernst. Rudolf 1884)

(رودلف إرنست، 1884)

المشعوذون والحواة:

انتشرت في شوارع القاهرة طائفة الحــواة والقرداتــيــة والبهلوانــات وصائــدي وراقصي الثعابين، والذين يقومون بتقديم عروضهم في الساحات



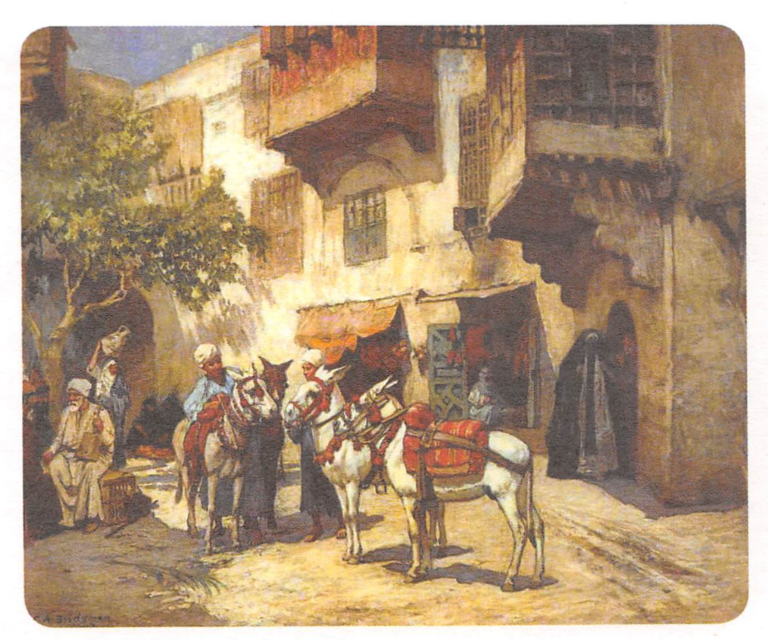
▲ (an afternoon show by Rudolf Ernst

(لوحة لعرض بعد الظهيرة - رودلف إرنست)

والشوارع حيث يلتف الأهالي حولهم في شكل دائري، وبعد تقديم جزء من عروضهم يطوف ولد صغير بطبق نحاس على المتفرجين ليقوم كل منهم بدفع أي مبلغ مالي نظير تلك الأفعال التي جلبت لهم التسلية ومنحتهم بعضًا من السعادة، ويدفع المتفرجون عن طيب خاطر لمواصلة الفرقة العرض الشيق الذي كانت تقوم به.

المكـــاري:

كانت مهنة المكاري من المهن الهامة لأن البغل كان وسيلة مواصلات سريعة ورخيصة في متناول الجميع، ولتلك الطائفة التي صنفت من أنها تضم أكبر عدد من العمال خلال القرن مواقفُ كثيرةٌ عند مداخل ومخارج الميادين وعند أبواب القاهرة، ويتنافس المكاريون بينهم وبين بعض بالاهتمام بالبغال خاصة ونظافتها وتزيينها ليركب عليها كبار العلماء والأثرياء من الرجال، أما العامة والنساء فيركبون الحمير.



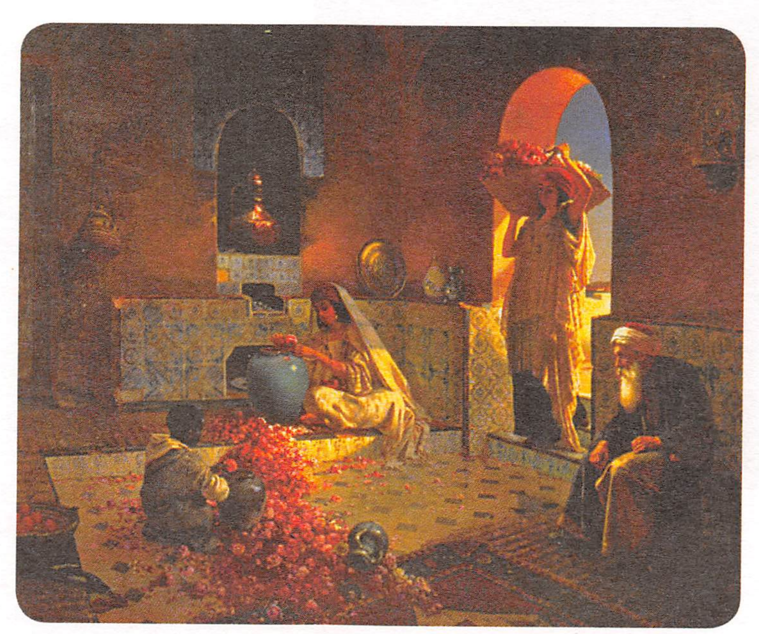
▲ (Market place by Frederick Bridgman)

(السوق - فريدريك - بريدجمان)



صانع العطر:

تمتاز مصر بتعدد أنواع الزهور ووفرتها وعبق عطرها، وكان بائع الزهور يطوف ببضاعته الشوارع والحارات ليل نهار بعدما يضعها على ظهر حمار أو في سلة من الخوص، ويجول بها الشوارع والنواصي وهو ينادي على زهوره وفي أحيان كثيرة يذهب للطرق على أبواب المنازل، كانت ربات البيوت في ذلك الوقت تستعمل الورد في صنع المربات المختلفة، كذلك عصره وتصفيته لاستخلاص زيت الورد وتخزينه لإضافته إلى الحلوى والمشروبات، أما عن صناعة العطور التي انتشرت فكانت تستخرج من زيوت الياسمين وزهر الليمون والبرتقال والبنفسج.



▲ (the perfume maker by Rudolf Ernst)

(صانع العطور - رودلف إرنست)

مشعل السراج أو الوقاد:

مهمته كانت غسل القناديل التي تصنع من الزجاج المزخرف والمغطى بالنحاس وتسمى مشكاة بداخلها فتيل للاشتعال، ويخرج الوقاد بعد صلاة العشاء ليطوف في المساجد والحارات ليشعل فتيلها وتنظيفها ثم تعميرها بزيت الزيتون وتعليقها في المساجد والميادين، واشترط للقيام بذلك العمل الرجال الأتقياء والأقوياء.

كذلك كان هناك الكثير من المهن التي ارتبطت أسماؤها بأسماء العائلات التي عملت بها، كالسرجاني وهو الذي يعصر بذور زيت السيرج «السمسم»، الشربتلي (صانع الشربات)، الفخراني (صانع القلل الفخارية).



(The light of the lampe by Costa Antonio)

(مشعل السراج - كوستا أنطونيو)

أهم مصادر هذا الفصل:

1 - لمحة عامة على مصر، كلوت بك.

2 - المصريون المحدثون، إدوارد وليم لين.

3 - الحياة الاجتماعية في القاهرة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، د. سمير عمر أحمد.

الفصل الخامس

أطعمـــة ومشـــروبـــات

تنوعت الأطعمة والمشروبات خلال ذلك القرن نتيجة لتأثر البلاد بتعاقب الحكام والولاة من كل صوب وحدب على حكم البلاد، كل منهم يأتي بعاداته وتقاليده وفنون المطبخ الخاص به، فمن الدولة الأيوبية، للعباسية والفاطمية والأموية لحكم المماليك والعثمانيين، فتتزاحم على المائدة المصرية الأطباق المتنوعة من كافة المطابخ،هذا بالإضافة للجاليات المختلفة التي تسكن البلاد والطوائف المتعددة منهم.

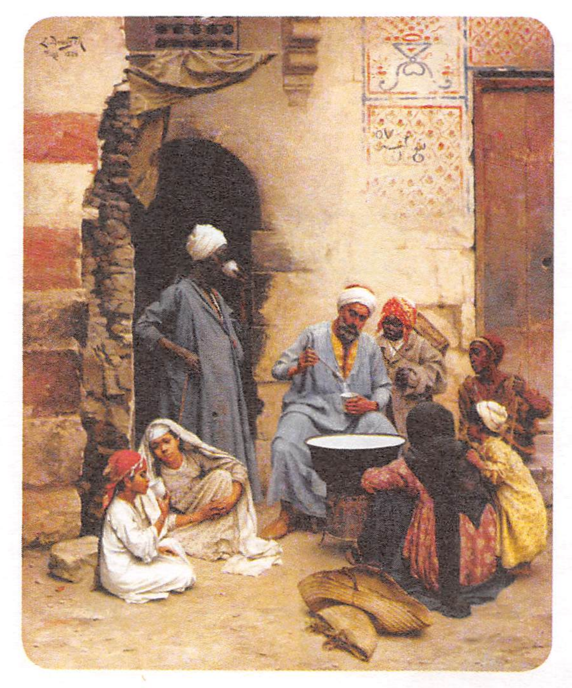


▲ (The Midday Meal Cairo by John Frederick Lewis)

(وجبة الغداء - فريدريك لويس)

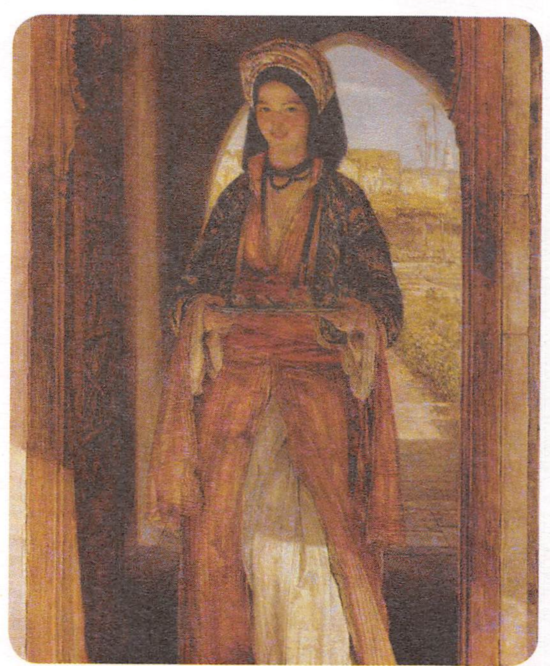
إن كان مشروب العرقسوس من أحب المشروبات للمصريين حيث يمنحهم فرصة القضاء على العطش في النهارات الحارة، ويعطيهم بعضًا من الانتعاش، فقد كانت هناك أنواع مختلفة من المشروبات شائعة في ذلك الوقت كالشربات، وهو عبارة عن ماء محلى بالسكر ومضاف إليه ماء ورد أو ماء زهر البرتقال، والخشاف وهو عبارة عن تمر وزبيب مغلي ومعطر بماء الورد ويحرصون على شربه بعد كل طعام، وكانوا حريصين على وضع الماء بالقلل ثم تعطيره بماء الزهر والورد ووضعها في حامل أعد خصيصًا لها في المشربية، كذلك هناك المشروبات الساخنة التي يحصلون عليها من غلي الأعشاب والنباتات كالحلبة والينسون والنعناع والقرفة والجنزبيل ومشروب السحلب اللذيذ الذي رسمت لوحة خصيصًا لبائعه والقهوة ذلك المشروب الشائع في القاهرة بين جميع الطوائف وكانت العادة أن يشرب المصري أكثر من خمسة عشر فنجانًا في اليوم، بالإضافة للمقاهي الكثيرة في القاهرة التي كان يتصدر قائمة مشروباتها القهوة، وقد رسم الكثير من اللوحات للقهوة التركي وهي تقدم للزبائن بالمقاهي أو للضيوف بالبيوت، ربما كانت عاملًا أساسيًّا لا يستغني عنه الفنان في رسم المقهى الشرقي، ومن أجمل اللوحات في هذا الموضوع كانت لوحة الفنان الإنجليزي جان لويس «حاملة القهوة» وهي إحدى مقتنيات متحف منشستر، وكانت لوحات الباعة الجائلين الذين يعرضون الفواكه لها نصيب كبير من لوحات المستشرقين، خاصة تلك الفاكهة المحببة لدى جميع فئات وأعمار الشعب المصري وهي البطيخ، فتلك الفاكهة اللذيذة تلطف من حرارة الجو صيفًا، كذلك البرتقال حاز على الكم الأكبر من هذه المشاهد. وقد رسم لنا الفنانون تلك الصور المختلفة، هذا كل ما كان باستطاعتهم وقتها ولكن الرحالة برايس دافين كتب في مجلداته المؤرخة لمصر طريقة الدعاية الكلامية بمناداة كل من هؤلاء البائعين على بضاعتهم ليكتمل المشهد، كل ما علينا وقتها، أن نضاهي تلك الكلمات على الرسومات لنخرج بمشهد مكتمل من حيث الصوت والصورة فكتب يقول: «تنادي بائعة اللبن تقول: صباح اللبن أو صباحك لبن. وبائع القصب يقول: أبيض عالي والثمن غالي، أو ياللي يزور حماته بالنبوت يا أبيض فالبائع يتآمر على الحماة مع الزوج، وتصيح بائعة البرتقال قائلة: كريم عليم يا برتقال. فهي تذكر أسماء الله ليسهل لها البيع،





(The Sahleb Vendor by Ludwig deutsh 1871)

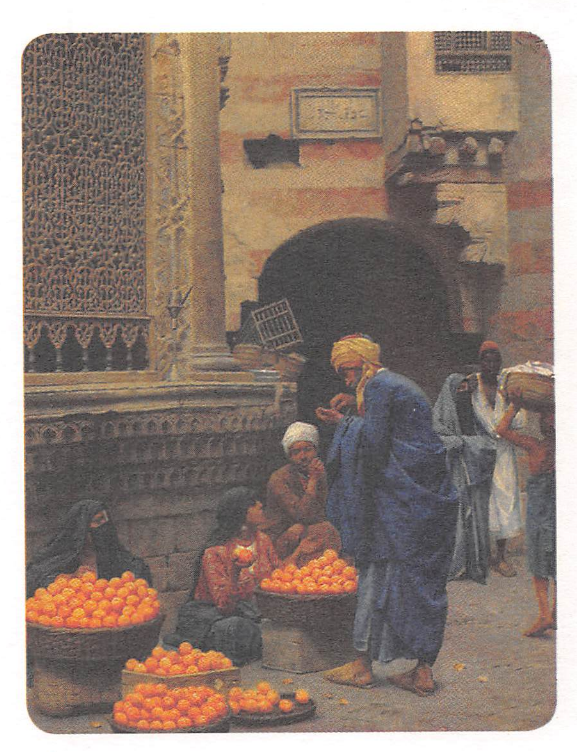
(بائع السحلب - لودفيغ دويتش، 1871)



(The coffee Bearer by John Frederick Lewis 1857)

(حاملة القهوة - جون فريدريك لويس، 1857)

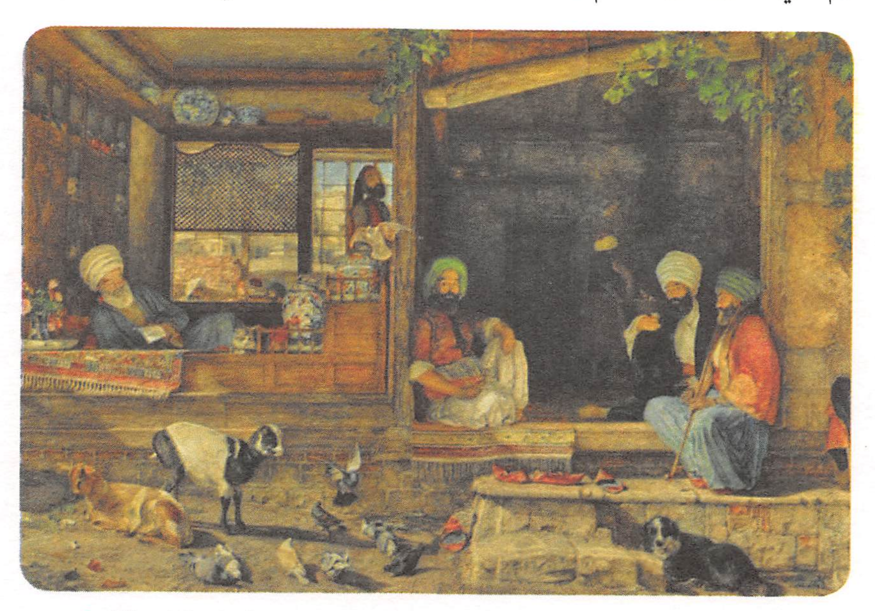
ويصيح بائع الليمون: دوا للقلب يا طرنج عسل. فهم يزعمون أن الليمون دواء للمعدة وهناك خلط فيها بين المعدة والقلب، وبصوت عذب تنادي بائعة الورد وهو مشهد كثيرًا ما رسمه الفنانون في لوحاتهم، وكانت تجارة الورود مشهورة بكثرة في شوارع القاهرة في ذلك الوقت، فلم يكن هناك محلات أو أكشاك خاصة ببيع الورد كوقتنا هذا، ويضيف برايس واصفًا الصوت العذب لبائعة الورد قائلة: «الورد شوك من عرق النبي فتح»؛ بمعنى أن الورد كان لايزال شوكًا إلى أن سُقي بعرق النبي ﷺ ففتحت الوردة وفاح عبيرها، وتقول بائعة الياسمين: روائح الياسمين عجب. وبائعة تمر الحنة: «تمر حنة من روائح الجنة»، ومن المهن التي كانت منتشرة وقتها بيع أقمشة صنعت بآلة يجرها الثور فتصيح البائعة على ذلك النوع قائلة: «شغل الطور يا بنات» وهناك نوع من الحلوى تصنع من العسل ينادي عليها الباعة قائلين: «بمسمار يا حلاوة»، أي ثمنها يوازي ثمن مسمار، بينما باعة الجميز يطوفون قائلين: «جميز عنب» لحلاوة مذاقه.



◄ (orange seller by Ludwig Deutsch)

(بائع البرتقال - لودفيغ دويتش)

الطعـــام: عرف المصريون الزراعة منذ قديم الأزل، وكانت المحاصيل الزراعية التي تدرها الأرض تشكل وجبات المصريين كالبقول والخضراوات، وكان الخبز هو الطعام الرئيسي على المائدة، وتعدد أنواعه كخبز القمح وخبز الشعير والخبز الشمسي، ومارس الكثير من الرجال مهنة الطبخ، وكانوا يقومون بصنع الأطعمة في دكاكينهم وبيعها للناس الذين كانوا يقبلون عليها؛ نظرًا لرخص أسعارها مقارنة بغلو سعر الوقود اللازم للطهو، كما كانت هناك دكاكين تسمى «الشرايحية» تخصصت في طهي ما يرسله الناس من خضراوات ولحوم ووضعها في قدور وإرسالها لهم مع عمال الدكان، ومن أشهر المأكولات «الهريسة» و«العصيدة» ووجبة الطعام الشهية من «الياخني» وهي البصل المقلي مع اللحم وكذلك اللحوم التي تطهى على الفحم وكانت لوحة «حانوت الكباب» هي الأشهر بين اللوحات.



▲ (The Kibab Shop Lewsi John Frederick)

(حانوت الكباب ـ فريدريك لويس)

أهم مصادر هذا الفصل:

1 – مذكرات برايس دافين.

2 – لمحة عامة على مصر، كلوت بك.

3 – الحياة الاجتماعية في مصر، تأليف صالح رمضان.

الفصل السادس

عـــادات وتـقـــالـيـــد

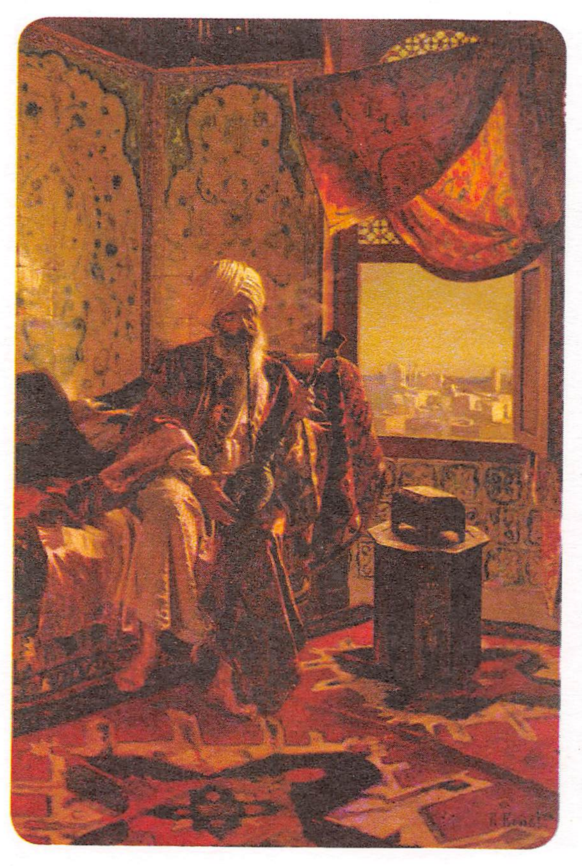
«إن تقاليد المدن والشعوب الحية أكثر مدعاة للفضول من بقايا المدن الميتة».

جيرار نرفال

وربما لم يكن ذلك رأي الأديب الفرنسي جيرار وحده فقط؛ فقد لاحظنا أن الكثير من المستشرقين واقعون تحت إغواء تقاليد تلك الشعوب بكل ما تحمله معها من غرابة ودهشة، لذلك أجزلوا لها اللوحات بما يليق بها.

كانت العادة الأكثر غرابة هي عادة تدخين الأرجيلة، ليس فقط في نوع التدخين بل في الوسيلة التي يستخدمونها في ذلك والمتعة التي تجلبها تلك الأرجيلة وكأنها سحرية، لذا رسم عدد كبير للوحات لعادة تدخين الأرجيلة في المنازل والمقاهي وحتى في الحمامات العامة، وكان تدخين التومباك شائعًا في إستنبول التي نقلتها بدورها لمصر، وكانت الأرجيلة تصنع من الزجاج المزخرف بالنقوش ولها مبسم طويل من الخشب، وكان الأثرياء يشترونها من الذهب وترصع بالأحجار الكريمة، ويصف تلك العادة التي من الواضح أن المصريين قد نقلوها للأجانب فوقعوا هم كذلك تحت إغوائها. يقول الرحالة المؤرخ برايس دافين: «فى كثير من الأحيان وعندما أخرج لقضاء أموري أدخل قهوة، وهناك أتسلى بتأمل المشاهد المتنوعة التي تجري أمام ناظري، أحب أن تحيطني التموجات الخفيفة التي ينشرها تومباك نارجيلتي الطويلة ذات المبسم العنبري، والدخان هنا لا يثير

سيلان اللعاب المنفر الذي يجعله كريهًا كما في أوربا وقد أصبح رقيقًا جدًّا لمسيره في أنبوبة طويلة أو لأنه قد تنقى من الماء»، إنه طعم يبحث عنه في كل مكان دون جدوى، فهو يتذوق عذوبة تبغ صور واللاذقية أو هذه الأنواع المكيفة الأخرى التي تنتجها الشعوب الشرقية، وكتب دافيد روبرتس الفنان البريطاني يصف تلك العادة: «أصحاب الحوانيت في وقارهم لا ينزعون مباسم الشبك «الأرجيلة» ولا أعتقد أن التدخين في مصر مقتصر على الرجال وحدهم؛ فالنساء في البيوت يدخن ويستخدمن أرجيلات فخمة جميلة»، لذلك كانت مشاهد تلك الأرجيلة وعادة التدخين موجودة في كثير من اللوحات، أشهرها «تدخين الشبك» و«رجل يدخن» و«العالمة مع غليون»، وكانت السمة المشتركة فيهم تلك اللذة التي تظهر على وجه المدخن إثر سحبه أنفاسًا قوية من أرجيلته.

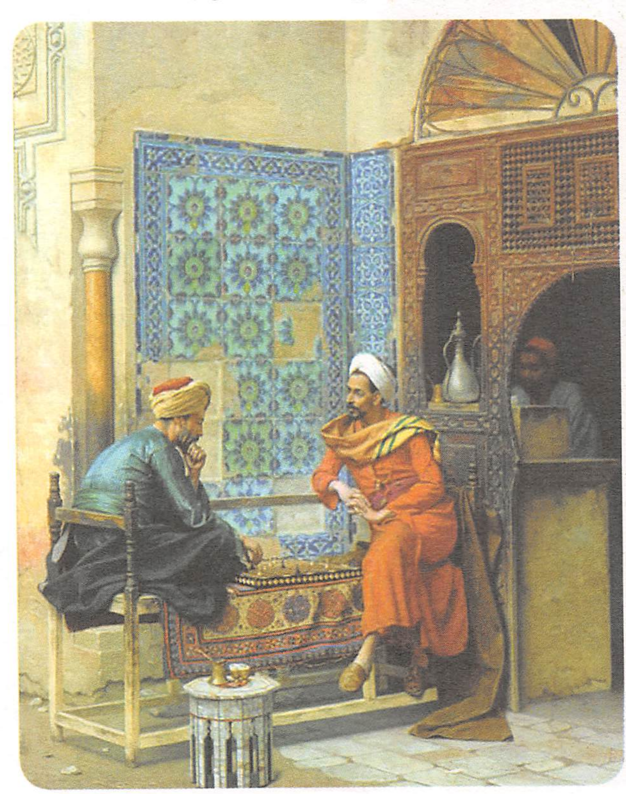


(Smoking The Hookah by Ernst. Rudolf 1884)

(مدخن الأرجيلة - رودلف إرنست، 1884)

المقاهي:

ربما إذا حاولنا أن نتخيل حياة بدون تلفزيون أو راديو وعدد قليل من الصحف التي تصدر بشكل أسبوعي أو شهري لشعب لا يجيد معظمه القراءة، فسنقع في الدهشة ويلفنا التساؤل: كيف كان أجدادنا يقضون أوقاتهم؟ وأمام تنظيم حرفي يتبعه أغلبية العاملين في ذلك الوقت بساعات عمل قليلة كان هناك فائض من وقت، لذلك لا يسعنا أن نندهش إذا علمنا أن المصري قد تفنن في خلق أماكن لتمضية الوقت مسليًا نفسه ومُرَفِّهًا عنها، وأهم تلك الأماكن كانت المقاهي تليها الحمامات الشعبية، عدد المقاهي في مصر التي قدرها إدوارد وليم يزيد على ألف مقهى في القاهرة في وقت كان تعداد سكان القاهرة 300 ألف نسمة، وفرضًا أن عدد نساء القاهرة كان نصف ذلك العدد بالإضافة لعدد 50 ألف طفل فسيبقى لنا 100 ألف رجل بمثابة قهوة لكل 1000 رجل.



◄ (The Chess game by Ludwig Deutsch)

(مباراة الشطرنج - لودفيغ دويتش)

وربما انتشرت عدوى تلك المقاهي أيضًا في اللوحات الفنية بشكل كبير، ذلك العالم الذي تحدث عنه الكثير من الرحالة والمؤرخين، فقد كانت للبعض منهم بمثابة شرفة يطلون منها على العالم الخارجي لمكان يرتاده جميع الأشكال وفئات المجتمع،بينما كانت للمماليك مقاهٍ خاصة بهم لتدخين الحشيش وشرب الخمر ما بين بولاق والموقع الحالي للإسعاف، وكان للأتراك مقاهٍ خاصة بهم في حى الصليبية يرتادها «البشبازوق» الذين كانوا يؤجرون أنفسهم للخوض في الحروب ومعارك كمرتزقة محترفين فنون القتال.

وشبه برايس دافين هذا العالم بلوحة صاخبة متحركة قائلًا: «تنتشر الأقداح وأرجيلة اللاذقية، هناك من أبهظتهم البطالة فأتوا يلتمسون في هذا المكان الجليل الصحو من سبات وجودهم، وفلاحون مساكين يتناسون شقاءهم باحتساء القهوة العربية في تلذذ. لقد أمسك كل منهم الجوزة في يده وقبع هؤلاء أو رقدوا إلى الأريكة منهمكين في لعب الطاولة أو المنجلة أو الشطرنج، واجتمع هؤلاء حول متسول ورع يلهيهم برواية أقصوصة ماجنة، إذ قلما يضحكون في شيء آخر». كانت تلك الصورة التي أخرجها لنا برايس دافين بكل حيادية، فقد نقل كل ما يراه أمامه، ومن تلك الكلمات اتضح لنا الكثير من الصور كنوعية زبائن القهوة ما بين عاطل أو فلاح وعامل يجلسون لاحتساء القهوة العربية ويدخنون أرجيلة، وتبرز لنا أنواع من اللعب منتشرة في ذلك الوقت كالشطرنج والطاولة يجلسون أو يستلقون على الأريكة العربية، بينما يستمعون للراوي وهو الرجل الذي يلقي قصصًا وحكايات منها ما هو ماجن لكي تثير إعجابهم وضحكاتهم، هكذا صور لنا بالكلمات دافين بينما آخرون ترجموا لنا تلك الكلمات إلى لوحات فنية تحمل نفس الاسم «مقهى في القاهرة» أو « في المقهى»، والقهوة في القاهرة القديمة كانت عبارة عن دكان صغير ليس به أي أشكال جمالية بمصاطب من حجر وضع عليها الحصر أو مقاعد من الخوص، وهو النوع الذي تطور فيما بعد وسمي بالبامبو، وبه مكان لصنع القهوة والمشروبات وإعداد الأرجيلة، والعاملون في تلك المقاهي هم الصبية من العبيد السود،وفي كثير من اللوحات وجدنا الغوازي يرقصن لزبائن المقهى كما في اللوحة الأشهر «رقص في مقهى بالقاهرة» وذلك منتشر قبل منع الغوازي بتأدية رقصاتهن في الشوارع والمقاهي العامة واقتصر فقط على البيوت.

وفي كتاب «وصف مصر» الذي أعدته الحملة الفرنسية جزء عن المقاهي في تلك الفترة «يوجد بالقاهرة الكثير من المقاهي، وليست لهذه المباني أي علاقة بالمباني التي توجد بفرنسا، إلا من حيث استهلاك البن، على الرغم من أن هذا المشروب يُعد ويُشرب بطرق مختلفة، وليس في هذه المباني أثاث على الإطلاق، وليس ثمة مرايا أو ديكورات داخلية، فقط دكك خشبية وبعض الحصر من سعف النخيل».

أهم مصادر هذا الفصل:

1 - المصريون المحدثون، إدوارد وليم لين.
2 - الحياة الاجتماعية في القاهرة، تأليف د. سمير عمر إبراهيم.
3 - التراجم والأخبار، الجبرتي.

الفصل السابع

الحفلات

«عجبت لهذا البلد الذي لا يعرف الحزن أبدًا».

نابليون بونابرت

كانت البساطة وعدم التعقيد هي ميزة ذلك العصر، معظم الأهالي ينضمون للحرف المختلفة التي تتبع الطوائف، تنظم وقتها تنظيمًا جيدًا لذلك كان هناك دومًا متسع من وقت لدى المصريين كان يُقْضَى معظمه في التسلية واللهو، سواء عن طريق الحمامات العامة أو المقاهي، وتفنن المصريون في خلق احتفالات، حيث كان هناك أكثر من ثمانين مولدًا للأولياء منها ما يستمر يومًا أو اثنين، وأخرى تستمر لأسبوع، بالإضافة للاحتفالات الدينية الأخرى مثل شهر رمضان والأعياد والمولد النبوي ويوم عاشوراء والاحتفال برأس السنة الهجرية والمحمل. كذلك كانت هناك الاحتفالات الخاصة كالزواج والختان والاحتفال بالمولود الجديد، وكانت الاحتفالات الاجتماعية والرسمية هي الأكثر شهرة وبذخًا في الاحتفال عندما يجتمع كل طوائف الشعب لا يفرقهم دين ولا لغة كأعياد شم النسيم وشق الخزان والكرنفال وعيد الجلوس، ومما يذكر أن القائد نابليون بونابرت عند دخوله البلاد يمتطي صهوة جواده الأبيض متقدمًا صفوف الحملة الفرنسية تصادف مروره بمائة عرس تحتفل بقرع الطبول وتعلق الزينات، فقال تلك العبارة المشهورة «عجبت لهذا الشعب الذي لا يعرف الحزن أبدًا»، فهل حقًّا المصريون شعب لا يعرف الحزن أبدًا أم إن وراء تلك الاحتفالات الكثير من الأحزان، وما تلك المظاهر إلا للتنفيس عنها؟!، فقد

ذكر بكتاب «وصف مصر» أن الأسود هو اللون الغالب على ملابس المصريين في ذلك الوقت؛ حيث كان الأسود من نصيب الرجال والأزرق للنساء لا يتخلون عنه طوال العام؛ دلالة على تعمق المصريين في أحزانهم من الفقر والبؤس ومعاناتهم من ظلم الحكام الذين يتبادلون الحكم عليهم دون إرادتهم.

حفلات الزواج:



▲ (Bride ariving in a village by Philippe Pavy)

(موكب عروس في قرية - فليب بافي)

في قول الأميرة جويدان زوجة الخديوي عباس حلمي ملخص لكل مظاهر إقامة حفلات الزواج في مصر «لا توجد أمة تتفنن في إقامة أفراحها كلها كما يفعل المصريون فإنهم لا يدخرون شيئًا من أسباب السرور والانشراح إلا وأدخلوه في أفراحهم مهما كلفهم هذا، وليس ذلك على الأغنياء والموسرين منهم فقط بل الفقراء أيضًا، وكثيرًا ما كانت تلك الأفراح سببًا في إفلاس بعض العائلات». ولكي نتأكد من ذلك الكلام بإمكاننا أن نحيي ترتيبات حفل الزواج في القرن التاسع عشر ومضاهاته به،لم يكن من المسموح بكشف وجه المرأة في ذلك الوقت، ولم يكن هناك اختلاط من أي نوع بين الرجال والنساء، فكان

الزواج يقوم بطرق تقليدية؛ فإما أن تكون العروس من أقارب العريس، وإما أن تكون الزيجة عن طريق الخاطبة التي تعرف البيوت التي بها فتيات في سن زواج وتقوم بترشيحهن للشباب الذين يرغبون في ذلك، أو عن طريق الحمامات الشعبية التي كانت أكثر الطرق شيوعًا في ذلك التوقيت، فكان الحمام الشعبي أكبر تجمع للفتيات من كل شكل ونوع وبإمكانها اختيار العروس المناسبة له، وهنا وصف للكاتب إدوارد وليم لين «1801-1876» وهو مترجم ألف ليلة وليلة إلى الإنجليزية عن كتابه «المصريون المعاصرون»: «لا يمكن أن تتزوج فتاة بدون كرسي العمامة وهو عادة يكون فخمًا غالي الثمن مصنوعًا من الخشب الخيزران وله مظلة من الحرير ومحلى بالذهب ليضع عليه العريس عمامته عند رجوعه من العمل»، ومن الشائع تعليق الفوانيس والزينات قبل الحفل بعشرة أيام، وتزين الحبال بالأعلام الحمراء والخضراء، أما في البيت فقد أعدت الموائد طيلة تلك الأيام ويرسل الأهل والأصدقاء صواني نحاسية مغطاة بالحرير المطرز تحمل هدايا من الأرز باللبن والشموع وغيرها، ولم تنقطع الفرقة الموسيقية عن عزفها ولا الراقصات عن رقصهن، وتغزل شيلان من البشكير كل من البلانة والخاطبة والمرضعة والدادة وتركب كل منهن حمارًا ويسرن في موكب يتصدره دقاقو الطبول، ويَطُفنَ هؤلاء السيدات على بيوت الصديقات يدعوهن للذهاب للحمام ويسمى ذلك الموكب «المدهناك»، ثم تخرج العروس وقريباتها وصديقاتها في زفة الحمام يقودها رجلان يحملان صينية مستديرة عليها الملابس التي سوف تلبسها العروس، وفي خلف الموكب يسير السقا الذي يحمل قربة مملوءة بالماء يوزع الماء على المدعوين، تبركًا بالعروس، وخلف العروس هناك رجلان أحدهما يحمل قمقمًا وهو إبريق من الفضة مملوء بماء الزهر يرشه على المدعوين، أما الرجل الثاني فهو حامل المبخرة الذي يقوم بتعطير المدعوين برائحة زكية ولمنع الحسد، وفي مطلع الحشد تسبق العروس صديقاتها وقريباتها المتزوجات يرتدين الحبرة السوداء ثم خلفهن العذارى بالحبرة البيضاء وخلف الجميع سارت العروس وخلفها وحولها أربعة رجال يحمل كل منهم عمودًا من أربعة عمدان خشبية لمظلة زاهية اللون يظللون بها العروس التي لبست رداء يخفيها وغطيت بشال من قمة رأسها إلى قدميها لم يظهر منها إلا القصبة،

وهو قرص من الذهب رصع بالزمرد والماس واللؤلؤ وضع فوق رأسها، وشبك في الشال من الخلف وتدلى منه من الأمام فروع من الماس ولبست فوق رأسها طرطورًا أبيض من الورق المقوى وتسير أمامها سيدة تحمل مروحة كبيرة من ريش النعام الأسود وتقوم بالتهوية للعروس، ومن الضروري أن يسلك الموكب الجهة اليمنى حتى لو كان الحمام بالجهة الأخرى من الطريق، فكان الاتجاه لليسار يجلب الفأل السيئ، وفي أغلب الأحيان يكون الأب قد حجز الحمام بأكمله لتلك الزفة، وفي الحمام هناك فرقة من العوالم تغني للعروس وتزفها، وتحضر البلانة الحناء في طشت نحاسي كبير، وتقوم أقارب العروس بوضع النقوط في الصينية، ثم تقوم برسم نقوش الحناء للعروس والمدعوات، وفي اليوم التالي تخرج العروس لبيت عريسها في زفة أخرى تشبه زفة الحمام مصحوبة بالمدعوين الذين كانوا قد تناولوا طعام العشاء مسبقًا في بيت العروس، وفي مقدمة الزفة متبارزان بالسيوف وراقصو العصا، ويحمل السقا قربة مليئة بالرمل الممزوج بالماء يزيد وزنها على المائة كيلو من بعد غروب الشمس لليوم السابق للزفة إلى بعد الحفلة وذلك لسببين:



▲ (La Pacession Orientale by Fabbi Fabio)
(عُرس شرقي - فوبيه فابيه)

للمكافأة التي سوف يحصل عليها، وللقب طالما حَلَمَ أن يحصل عليه وهو لقب «القيم»، فالقيم تلك الجملة الشائعة التي نتداولها الآن تعني ذلك الفعل، وعند وصول الزفة بيت العريس هناك مأدبة أخرى للمدعوين أعدت في القسم الخاص بالحريم، وبعد

العشاء يقدم المدعوون التهاني ويرحلون بينما تبقى البلانة والأم والصديقات المقربات للعروس، ويمر العريس بتلك الخطوات تقريبًا، ومن الشائع في زفة الزواج أن يلبس اثنان من أقارب العروس والعريس مثلهما تمامًا حتى لا يقعا تحت طائلة عين الحسود، فالرقم ثلاثة له مدلوله في عدم الإصابة بالعين، وبعد احتفال العريس مع أصدقائه يذهب للعروس ويطلب من البلانة الخروج، وتكشف العروس أخيرًا عن وجهها للعريس بعد دفع نقطة مالية لكشف الوجه، وفي الصباحية هناك مسـرحية يقوم بها العريس وهي «الهروبة» يخرج من البيت متسللًا ولا يعود إلا مساء اليوم التالي بعدما يخرج أحد أصدقائه للبحث عنه، في حين أنه لا يسمح للعروس بالخروج إلا بعد أربعين يومًا كاملة، ويكون عادة ذهابها إلى الحمام مجددًا، كان هذا وصفًا لحفل زفاف لإحدى الأسر من الطبقة الوسطى، تزيد تلك المظاهر في حالة ثراء الأهل أو تقل في حالة الفقر، ولكن الكل حريص على تلك العادات الثابتة، أصررت على عرض ذلك الحفل بتفاصيله، فكم هو مدهش في تخيل تلك الليلة أن تكون بذلك الشكل المبهر، وإن كان الأمر كذلك بالنسبة لي فما بالكم بالذهول الذي قد يصيب قرَّاء ذلك الكاتب من أهل بلده، ومدى مقدار الشوق الذي قد يمسهم لزيارة تلك البلاد، لم تختلف اللوحات الفنية التي رسمت هذا المشهد الجميل كثيرًا إن لم يكن الاختلاف فقط في أننا لم نعرف تلك الفتاة التي يحملها الهودج المزين إلى أي قدر هو حاملها إليه، وهؤلاء المتزاحمون حولها ما هي صفاتهم وأي صلة قرابة تجمعهم بها؟ توقفنا أمام العمل الفني مبللين بعرق اندهاشنا لم يمنحنا حتى الفرصة لنتساءل لِمَ وأين وكيف؟ وبعد ذلك الوصف المذهل لوليم لين ومضاهاته بالعمل الفني تراءى لنا إبداع الفنان أكثر وأكثر.

حـــفـلات الختـــان:

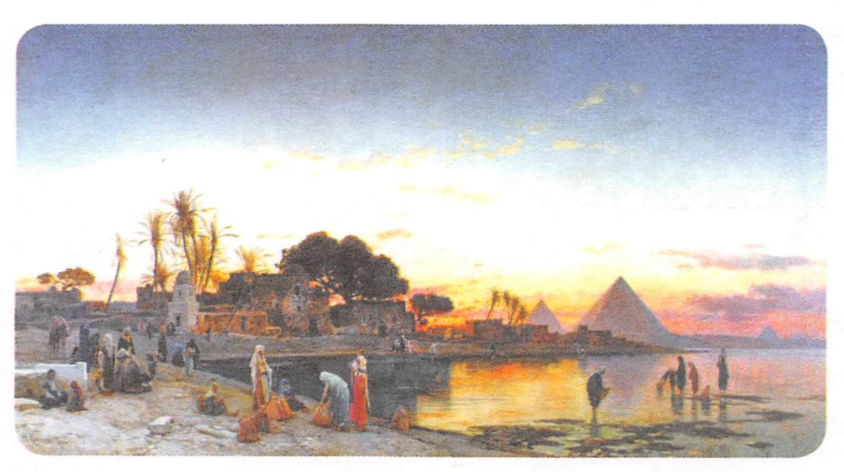
لعل عادة الختان عادة محض خاصة بالشرقيين وإن كانت تمثل فكرتها غرابة على عقول المستشرقين، فالاحتفال بها كان الأكثر غرابة، ويقول برايس دافين: «رأيت هؤلاء الأولاد على صهوات الجياد الفاخرة المزركشة يطاف بهم أنحاء المدينة، ويتقدمهم موكب حاشد، وعلى رأس هذا الجمع رجل يحمل عصا كبيرة مزينة بالأشرطة والأزهار، ويتبعه عدة

مشعوذين وعوالم قد أسرفن في طلاء وجوههن بالزينة يغنين ويؤدين حركاتهن المثيرة، ومصارعون دهنوا أجسادهم بالزيت يؤدون حركاتهم الرياضية، وتطلق السيدات الزغاريد العالية وأخيرًا تصل تلك الزفة إلى المنزل، حيث يجرى الحلاق عملية الختان ويدعو الأب المحتفلين لمائدة عامرة».

الدوسة:

في الاحتفال بمولد النبي ﷺ وتحديدًا قبل المولد بأيام تنصب الخيام على مقربة من مسجد الحسين - رضي الله عنه -، أهمها خيمة الخديوي الذي سيحضر الاحتفال تليها خيمة شيخ الطرق، وتجتمع طوائف الدراويش السعدية والرفاعية وجماهير غفيرة تقدر بالآلاف، وأخيرًا يعلو الصياح عندما يمتطي شيخ السعديين ظهر جواده، وينزل عدد من المتطوعين إلى أرض الساحة، ومع كل متطوع درويش، ويرقد المتطوعون على الأرض متلاصقين بعضهم ببعض قدر المستطاع، وفي مقدمة ذلك تتراص العربات الخاصة التي تحمل حريم العائلات وعربات للجاليات الأجنبية ويمنع الجنود الأهالي من الاحتشاد داخل الساحة، وعند بدء العرض تصيح الجماهير بصوت عميق وبنغمة واحدة «الله الله، لا إله إلا الله»، وهنا يتقدم رجلان يسيران بأقدامهم على أجساد الراقدين حَامِلَيْنِ الأعلام الخضراء المكللة برءوس الرماح، بينما يسير الشيخ بعمامته الخضراء وهو فوق ظهر جواده بخطًى سريعة على أجساد هؤلاء المنبطحين أرضًا، ويصاب الجميع بحالة من حالات التجلي والغيبوبة الدينية وتتعالى الصيحات، وعند نهاية العرض يقوم الراقدون وهم ما بين ضاحك ومنتشٍ ومصاب ومتألم، بينما يصيب الجمهور المتزاحم حالة الذهول ويتهم المتطوعون المصابون الذين كان لا يعرف تحديدًا عددهم بأنهم ينقصهم الكثير من الإيمان لأنهم لو كانوا يملكون قدرًا كافيًا من الإيمان لما أصابهم شيء، ويسمى ذلك العرض باسم «الدوسة» ويقصد بها دوسة الخيل على الأجساد الراقدة أرضًا ولا يعرف أحد تاريخ بدء تلك الدوسة، وهناك الكثير من الأساطير تدور حولها، وقد أمر الخديوي توفيق عام 1880 بعدم إقامة ذلك الاحتفال مجددًا وساعده على ذلك وفاة الشيخ البكري رئيس الطوائف الذي كان يحرم منع الاحتفال بالمعتقدات الدينية الغريبة.

احتـفـال شـق الخـزان:



▲ (on the Nile Corrodi. Hermann David Solomon)

(فيضان النيل - دافيد سولومون)

هو احتفال بفيضان النيل الذي حرص المصريون عليه من أقدم السنين، فمنذ أن يفيض النهر يمر المنادون في أزقة المدينة وشوارعها يعلنون بصوت عالٍ منسوب الارتفاع بناء على تقرير رسمي يعلنه القائم بمهمة القياس وحفل قطع الخزان في شهر أغسطس عندما يفيض النهر بدرجة تضر بالمحصول ويستيقظ أهالي القاهرة في الصباح الباكر، ويحمل الأولاد الأعلام الملونة وأطباقًا نحاسية وطبولًا يدقون عليها مرددين «البحر علي، البحر علي» ويذهبون بعدها إلى رأس القناة بمصر القديمة وهناك من الأهالي من ينصب خيمته ويبيت الليلة، وعلى طول شواطئ النيل والقناة تروح القوارب وتجيء محملة بالمحتفلين في قناة ضيقة تفصل جزيرة الروضة عن شاطئ النيل الأصلي وينصب سرادق كبير للخديوي يقام على شاطئ القناة ومن تلك المنصة العالية يمكنك أن ترى جزيرة الروضة بأشجارها وأسوارها المرتفعة، وعلى مسافة بضعة أميال ترى الأهرامات وقبب المساجد والكنائس ويتزاحم الأهالي وبائعو الحلوى والفاكهة والمخبوزات ولا يكاد السقاءون يتوقفون عن ضرب الأكواب النحاسية الواحدة في الأخرى لإصدار هذا الرنين وتعزف الموسيقى ويقدم الحواة عروضهم، وفجأة تأتي المياه مندفعة فتخترق السد الوهمي من الطين الذي

يعمل على بنائه عدد من الرجال قبلها بعدة أيام حتى إيحاء هدمه أثناء ارتطام المياه به على مدى ارتفاع منسوب المياه وقوتها، وتنسكب المياه منهمرة بقوة وتمتلئ القناة بالمياه لتصبح في مستوى نهر النيل تقريبًا ويظهر المحافظ الذي يلقى بعضًا من قروش جديدة في القناة كتقليد متبع منذ سنين اعتقادًا أن تلك العملة الفضية تدر فيضان النيل، ويقفز الأهالي في النهر ويتبارون في الحصول عليها من أعماق القناة، ويذكر أنه في ذلك المكان تحديدًا كان يقام الاحتفال بعروس النيل المتبع عن تقاليد فرعونية، إلا أن المصريين كانوا قد استبدلوا بالعروس البشرية دمية حتى جاء عمرو بن العاص وقضى على تلك العادة،ويذكر أن جزيرة الروضة هي المكان الذي وجدت زوجة الفرعون سيدنا موسى عنده، وتسمى بشجرة موسى وهناك شجرة أخرى تنسب للسيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ وقد عمرت تلك الشجرة كثيرًا وبها اعتقاد في شفاء المرضى، تبرئ الأعرج وتجعل الأعمى مبصرًا، وكان من الشائع أنه إذا نشر فوق أحد أغصانها مريض ملابسه يشفى من مرضه،ووصل فيضان النيل لأقل منسوب له عام 1877 ولم يستطع ري الربع من الأراضي الزراعية، ومن الرسومات التي كانت تنقش على العملة المعدنية في ذلك الوقت كان إله النيل، وهذا الإله راقد على الأرض ممسك بيديه عنقودًا من العنب وعلى مقربة منه تشاهد تمساحًا أو فرس بحر وحدث أنه في أحد الأعوام ارتفع مقياس النيل إلى 16 ذراعًا معماريًا فصكت العملة وعليها ذلك الرقم تعبيرًا عن أنه كان عامًا مليئًا بالخير.

زفة العجم:

القاهرة.. إنها المدينة التي تداول عليها حكم أناس مختلفي الأشكال واللغات حتى إن كانت العقيدة واحدة فإنها تختلف من اعتناق مذهب لآخر، إزاء الحكم الفاطمي للبلاد حرص الفاطميون على إحياء ذكرى يوم عاشوراء واحتفال المذهب الشيعي بتلك الذكرى ويعرف أن الأزهر الشريف قد تحولت الدراسة به للمذهب الشيعي طيلة مائة عام من الزمان خلال حكم الفاطميين للبلاد وسرعان ما عادت للمذهب السني بتولي حكم الأيوبيين للبلاد، ومع ذلك ظلت زفة العجم أو يوم عاشوراء تقام حتى ألغتها الحكومة 1914، وفي الصباح الباكر من يوم عاشوراء يغلق المشهد الحسيني بالسلاسل

ويحرسه الكثير من أفراد الأمن والشرطة، ويركب صبيان حسان الملامح على جوادين يرمز لهما بالحسن والحسين وسط جمع كبير من الإيرانيين والأتراك الذين يتبعون ذلك المذهب الشيعي، يتراصون في صفوف ونصفهم الأعلى عار تمامًا وبأيديهم سلاسل يضربون بها صدورهم وخلفهم صفوف أخرى تضرب جباهها ووجوهها بالسيوف والسكاكين إلى أن تسيل دماؤهم وهم يرددون عبارات الحزن والنحيب على مقتل الحسن والحسين ويخترق الموكب شارع الموسكي والأزقة المجاورة له إلى أن يصل لمسجد سيدنا الحسين رضي الله عنه ويحاولون اقتحام أبوابه المغلقة، بالقوة ولكن الشرطة تمنعهم من ذلك، وينتهي الحفل الدموي الذي يشاهده من منصة كبيرة كبار رجال الدولة ومن يتبعون المذهب الشيعي من شخصيات سياسية كبرى وقناصل الدول الأجنبية، ومن المعروف أنه خلال حكم الفاطميين كانت ذكرى مذبحة كربلاء إجازة رسمية في جميع أنحاء البلاد، وتمتد «مأدبات الطعام» التي يطلق عليها موائد الحزن، وعند تولية الأيوبيين الحكم جعلوا ذلك اليوم فرحًا ومسرات، وكانت تقام الزينات وموائد الفرح المليئة بأصناف من الحلوى، وكذلك فعل المماليك غيظًا من الشيعة.

ليالي الكرنفال:

من احتفالات دينية إسلامية لأخرى مسيحية تسمى بالكرنفال وتقام قبل عيد الفصح عند المصريين المسيحيين البروتستانت والكاثوليك والإنجليك والأجانب الذين يسكنون أنحاء البلاد وهو مهرجان كبير يخرجون فيه بملابس تنكرية للمقاهي والمسارح والشوارع وهم يرقصون ويغنون، وكانت تقام حفلات تنكرية في الفنادق الكبرى آنذاك مثل فندق شبرد وكونتيننتال وبالاس أما باقي الشعب فكان يستأجر أماكنه في حديقة الأزبكية لمشاهدة مواكب الكرنفال المتتالية التي تبدأ من الصباح لغروب الشمس ويلقون عليهم الزهور والأوراق الملونة وحبات الفاصوليا، واستمر ذلك الاحتفال إلى أن ألغته الحكومة لظروف الحرب العالمية الأولى 1914.

احتفالات رسمية:

عيد الجلوس هو احتفال يقام بمناسبة ذكرى جلوس الوالي على كرسي الحكم، ويصف

احتفال البلاد خلال فترة حكم الخديوي إسماعيل إلياس الأيوبي قائلًا: «ترى فيها البلاد قائمة قاعدة، تجتاز شوارعها المواكب الفخمة والعربات الفاخرة والرايات والأشاير والطبول والزمور، وجماعات أصحاب الرتب والنياشين بملابسهم الذهبية الساطعة ونياشينهم المتلألئة وأوسمتهم الفاخرة، يفدون على سرايا عابدين وتسمع الموسيقى الشجية تصدح في كل حي من الأحياء وتدوي المدافع دويًّا متعاقبًا وتجري الاستعراضات الجميلة وتنصب السرادقات الفخمة للخديوي وكبار رجال الدولة، وتتلى الصلوات وتقام الأذكار في الخيام المنتشرة وتمد الموائد ليلًا للفقراء فيأكلون ما طاب ولذ وتشتعل الصواريخ والألعاب النارية ويمر ما يقارب عشرة آلاف من الدراويش باستعراض فخم يقام في العباسية، ناهيك عما يقام من ولائم وما يوزع من صدقات وينعم به من نعم، تخرج الهدايا الثمينة للكبراء، وتمنح القصور والأطيان والجواري الحسان والجواهر الثمينة والجياد المطهمة، وللمتوسطين تهدى سرر النقود وسيوف مرصعة، وللأصاغر تعطى الجوائز من الخواتم والساعات والملابس والحلويات، فكنت ترى الأقوام على اختلاف مراكزهم الاجتماعية ينتظرون حلول الأعياد بمطامع مفتوحة وأعين مرفوعة فتجود أيدي إسماعيل وأزواجه وبناته بما يشبع تلك المطامع ويقر تلك العيون، هذا عن وصف حفل الجلوس. أما بالنسبة للرسميات وأهمها استقبال القناصل عند تعيينهم فقد كتب عنها إلياس قائلًا: « إن أخص ما يستوقف الأنظار فيها العربات الخديوية التي تجرها الجياد»، ذلك الحفل بتلك العربات التي ذكرها تفصيلًا قنصل أمريكا في مصر ألبرت فارمان «1876-1881» عندما استقبله الخديوي بنفسه قائلًا: «في الوقت المحدد للاستقبال حضر زكي باشا كبير التشريفات إلى إقامتي بصفته ممثلًا للخديوي ومعه عربتان إحداهما وهي العربة الملكية خصصت للباشا ولشخصي وكانت مطلية بطلاء ذهبي وتجرها خيول بيضاء مزركشة يصاحبها بعض السائسين والحراس، أما العربة الأخرى فكانت لحاشية القنصل، وكان الباشا محاطًا بعدد من رجال السواري على جياد بيضاء وشهباء وساروا في حراستنا للقصر، وعند مدخل القصر ظهرت فصيلة من المشاة على جانبي الميدان وعندما اقتربنا بدأت المدافع تدوي من القلعة وبدأ الجنود يحيوننا عند مرورنا». ويذكر أنه في

نهاية لقائه بالخديوي الذي كان يجلس بغرفة استقبال كبيرة فرشت بأرائك تركية وحوله موظفون مصريون منهم شريف باشا يدخنون الأرجيلة التي صنعت من أذرع طويلة مرصعة بالماس وترتكز على أطباق من فضة وتراصت فناجين القهوة التركية، بجانب كل منهم قدم له سيف دمشقي ذهبي بنصل مقوس مرصع بالذهب كرمز لسلطته للبلاد، وكالعادة المتبعة أن يهدي الخديوي جوادًا رشيقًا جهز سرجه ولجامه على أحسن طراز شرقي، طرز سرجه بالذهب بينما زخرفت بقية الطاقم بنفس الأسلوب الفاخر، ولكن الولايات المتحدة الأمريكية كانت قد منعت قناصلها من قبول تلك الهدية، لذلك سأله شريف باشا: «لماذا تتدخل الولايات المتحدة في عاداتنا القديمة؟». ثم أخبره أنه سوف يقدم له الهدية وعليه رفضها من قبولها، وعادة إهداء الجواد عادة قديمة يرجع أصلها إلى الزمن الذي لم يكن به ثمة طرق ممهدة في مصر، لذا كان وجود الحصان ضرورة بالنسبة لأي شخص ذي مكانة.

أهم مصادر هذا الفصل:

1 – الحياة الاجتماعية في القاهرة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، د. سمير عمر إبراهيم.

2 – مذكرات الفنان والمستشرق الفرنسي برايس دافين.

3 – مصر وكيف غدر بها، تاليف ألبير فارمان.

4 – الحياة الاجتماعية في مصر في عهد إسماعيل، تأليف د. صالح رمضان.

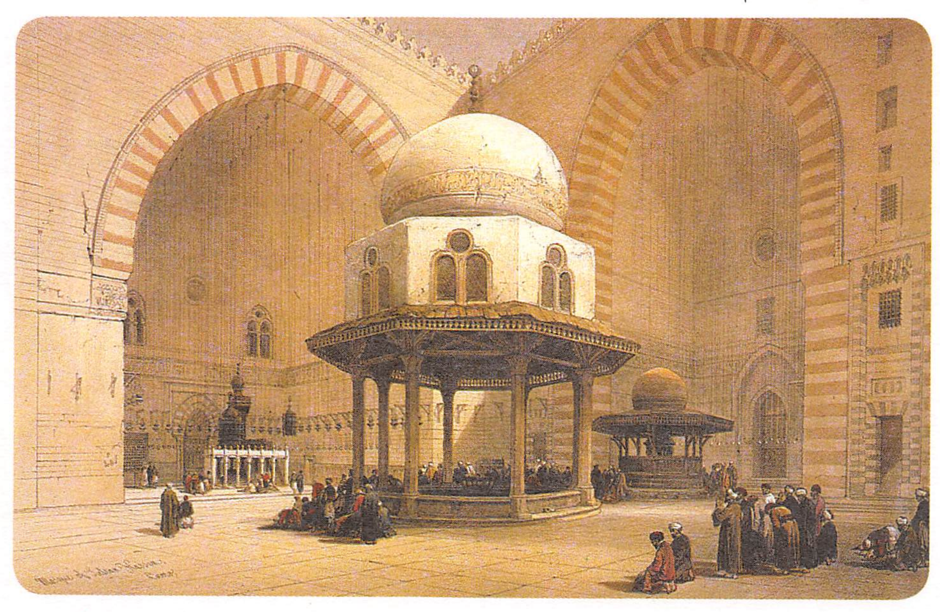
الفصل الثامن

مساجد ومآذن

تعتبر المساجد بمآذنها العالية وطرازها المعماري مشهدًا لا يتوانى عن رسمه الفنان الذي ترك وراءه كل شيء وجاء ليكتشف أغوار الشرق، ويقع المستشرق تحت طائلة إغواء ذلك البناء غير التقليدي بالنسبة له، فربما كان قد سمع عنه ولكنه لم يكن رآه بعد، والآن وقد أصبح محاطًا به من جميع الجهات فأينما ذهب في القاهرة وضواحيها فالمساجد تطوقه، وربما لم تكن كل تلك المساجد التي وجدناها في لوحات الفنانين تعبيرًا عن ولعهم ببنائها المعماري أو إشارة لاعتناق ديانة الإسلام بقدر أنها تجسيد للشرق بكل ما يحمله معه من سحر وجمال، فقبب المآذن التي نراها في خلفية لوحات الكثيرين منهم تحمل معها روائح الشرق، وإن كان بعضهم حرص على أن يخرج لنا إقامة شعائر المسلمين الخاصة بالصلاة أو المؤذن وهو ينادي للصلاة كما في لوحة جيروم التي تحمل نفس الاسم.

إلا أن ذلك الشكل الاجتماعي والترابط الذي يخلقه الدين الإسلامي في نفوس الجيران وأبناء الحي الواحد وتلك الطقوس الخاصة بهم كانت هي المشهد الأكثر إلهامًا له، ففي لوحة في باحة مسجد وخارج مسجد تجسيد لواقع حياة الشرقيين خارج مساجدهم وبعد أداء فرائضهم الإسلامية، فتلك الحركة في أنحاء الطريق وذلك الصخب بكل ما يحويه من نداءات الباعة الجائلين أو الأحاديث المتداولة بين الجيران وهم يناقشون أحوالًا سياسية أو اقتصادية أو حتى مشكلات الحي الذي يقيمون فيه، وكتب الفنان البريطاني ديفيد روبرتس لابنته يقول في أحد خطاباته 1838: «لقد رأيت بعض الحجاج في طريقهم لمكة، كما رأيت هؤلاء الناس يسجدون لربهم خمس مرات في اليوم فكان لذلك

في نفسي الأثر الكبير» وفي خطاب آخر كتب يقول: «بدأت في جمع ملف عن الأهرامات وآثار الفراعنة ذات الأهمية الكبيرة، وأتمنى أن أحقق ملفًا آخر عن جوامع القاهرة التي لا نظير لها في العالم».



▲ (Mosque Sulten Hassan by David Roberts)

(مسجد السلطان حسن - دافيد روبرتس)

ويقول ديفيد روبرتس إن العقبة الوحيدة التي كانت تعترضه هي تشدد البعض في منعه من دخول المسجد أو رسمه، لكنه حصل على فرمان من عباس باشا حفيد محمد علي حاكم مصر برسم الجوامع فارتدى زيًّا عربيًّا وصحبه حارس نوبي ودخل جامع السلطان الغوري وهو أحد سلاطين القاهرة وتوسط صحن الجامع، حيث تحلق فيه بعض الرجال المنهمكين في تطريز قطعة كبيرة من القماش الفاخر، واقترب روبرتس أكثر ورأى البعض يقبلونها فجثا على ركبته وتناول حرفًا منها ليتفحصها، وكانت هذه هي الكسوة المقدسة المخصصة للمشهد النبوي، فانتزعها الحارس من يده في الحال ودفعه إلى الطريق.. ويشرح ذلك ديفيد روبرتس موضحًا: «كان هذا لقرب عهد المصريين بالحملة الفرنسية وما فعلته بالأزهر، وما تركته من آثار نفسية وتوجس ناحية

أي أجنبي، في حين أن محمد علي كان حريصًا على وجود علاقات جيدة مع الإنجليز». هكذا حدثنا روبرتس عن غيرة المسلمين على دينهم، فها هو الحارس ينتزع من يده قطعة من قماش الكعبة ويدفعه خارج المسجد، وبالرغم من ذلك لم يبدل هذا الأمر من اهتمام الفنان بالمساجد، وكان أكثر شيء ملحوظ في اللوحات التي رسمت فيها المساجد ذلك الخشوع الذي يتحلى به الإمام والمصلون، وتلك النقوش الإسلامية والآيات القرآنية، وباحة المسجد عادة ما تكون واسعة لتحمل أكبر عدد من المصلين، وفي لوحة خارج المسجد يرسم الفنان مصلين وقد قضوا صلاتهم، ينتشرون في الأرض لقضاء حوائجهم فيخرجون من المسجد على عجل وكأن هناك شيئًا ما بانتظارهم وربما كانت لوحة مسجد السلطان حسن هي الأكثر جمالًا وإسهابًا بالتفصيل.

الفصل التاسع

المحمل

كانت العقيدة الإسلامية لشعب مصر بكل ما تحمله معها من تعاليم ومبادئ دومًا مثار جاذبية وغموض للاستشراقيين، وخاصة المآذن بقببها العالية عندما تعلن الأذان وتلتحم خطى المارة في الطرقات تهرع للصلاة في خشوع، كذلك كان شهر رمضان الذي وصفه نرفال أنه كالكرنفال من بذخ الاحتفال به يكفي موكب رؤية هلاله والمدافع التي تنطلق بعد ذلك ابتهاجًا به وحلقات الذكر بعد صلاة التراويح كل يوم أو بدع المشعوذين وقصص الرواة، وكتب فورمان قائلًا: «بالرغم من أن المسلم متراخ في القيام بالفروض الدينية فإنه شديد التمسك بالصيام المفروض، ويخرج الرجال لرؤية الهلال بعد المغرب في سماء القاهرة الصافية من التلال العالية للقلعة يعلنون ذلك بعد كتاباته وإعلانه على القاضي، وسرعان ما تنطلق المدافع وتتحرك المواكب في كل أنحاء البلد مصحوبة بالموسيقى معلنة بدء صيام رمضان في النهار المقبل، وفي طليعة فجر اليوم التالي يعلن المنادي الصيام في كل حي، وعند بزوغ الشمس تسمع صوت المؤذن في مختلف أنحاء العاصمة: ها قد بدأ الصيام». وربما لم تتغير مظاهر شهر رمضان ولا عاداته وتقاليده منذ مئات السنين «وفي رمضان تؤجل الأعمال الشاقة إلا أن المطاعم والمقاهي تصبح في أشد حالتها رواجًا وتزين الطرقات بالأنوار وتصدح الموسيقى العربية والإفرنجية في كل مكان وتتبادل الأحاديث والزيارات حتى الهزيع الأخير من الليل»، وبعد ثلاثين يومًا طويلة يعلن مدفع القلعة عن انتهاء الصيام ويستعد المسلمون للاحتفال بالعيد،ومن أمتع المشاهد التي يراها الأجانب في القاهرة هو منظر قافلة الحجاج الذاهبة لمكة لتأدية الحج كل عام.

وتخرج هذه الرحلة في يوم الثالث والعشرين من شهر شوال، وتحمل قافلة الحجاج أردية جديدة تسمى بالكسوة وهي أبسطة فخمة موشاة بالذهب، تغطى بها جدران الكعبة الخارجية في كل عام وتصنع من الحرير الأسود الموشى بالذهب وتزين بالآيات القرآنية وهي تستمد فخامتها من تلك الحقيقة التي تقرر أن الحكومة المصرية تكلفها 23.300 دولار ومصاريف الحج تزيد 33.300 دولار، وتصنع هذه الكسوة من قطع صغيرة ترسل فورًا بعد العيد الصغير إلى مسجد الحسين لحياكتها، وعند الانتهاء منها توصل بها حاشية عريضة



▲ (The transfer of the Holy Carpet in Cairo by Konstantin Yegorovich Makovsky)

(نقل كسوة الكعبة - قسطنطين ماكوفسكي)

فخمة وستار يعلق على باب الكعبة، كما تأخذ القافلة رداءً من القماش المزخرف لاستخدامه غطاء لمقبرة إبراهيم، وكذلك بعض القطع الأخرى المصنوعة من القماش الأخضر الموشى بالذهب لوضعه داخل الكعبة، ويصل الضيوف المدعوون إلى القلعة، حيث تبدأ القاهرة في الرحيل هناك، حيث تصطف فرق الجيش من طبقاته المختلفة كما تنظم الطوائف الدينية في موكب كبير وينصب سرادق من القطيفة الحمراء للخديوي والقاضي والوزراء ومفتي الديار، ثم يتقدم الجمل الذي يحمل الكسوة فيقوم الخديوي بمسكه من مقوده ويسلمه

لأمير الحج؛ وبهذا العمل يكون قد منح أمير الحج السلطة على من معه. والمحمل عبارة عن محفة هرمية فخمة على شكل هرمي زينت بأبهى الزخارف، وهي مغطاة بقماش موشى بالذهب، وهذه المحفة تحفظ كرمز للملكية. ويقال إن ملكة مصر شجرة الدر هي أول من أمرت بصنعها وكانت قد أدت الحج 1250 ميلادية في محفة فخمة محمولة على جملين، وتعتبر تلك المحفة مقدسة بالنسبة لبسطاء المسلمين الذين يزجون أنفسهم في الزحام للمسها والتبرك بها، والجمل الذي يحمل المحفة لا يجوز له أن يحمل أي أغراض أخرى، بل يخصص لتلك الرحلة ما دام قادرًا على فعل ذلك، ثم يعقب المحمل شيخ متين البنية شعره مضفر طويل وجسده عارٍ حتى خصره يتمايل على ظهر جمله تارة شمالاً وتارة يمينًا وكأنه في نشوة روحية، يعقب ذلك الحجاج كل على جمله، وكانت هناك أسر بأكملها تسافر بجميع لوازمها وخيمها، ويخرج الموكب من باب النصر وسط تهليل الرجال والنساء الذين خرجوا للشوارع والنوافذ وحتى أسطح المباني لتوديع الحجاج بأبهى حللهم بعدما زينوا الشوارع بأجمل الزينات، ويسير بمحاذاة الموكب فرقة من الموسيقى وقد امتطى رجالها ظهور الجمال، بالإضافة لرجال العسكرية على اختلاف رتبهم والمشعوذين تلبس كل طائفة منهم لون عمامة مختلفًا، فمن الأزرق للأحمر والأخضر والأبيض، وقد اشتغلوا بنوع خاص من العبادة يتلون صلاتهم وهم يتمايلون ذات اليمين وذات اليسار.



▲ (Going to Mecca by pilgrims)

(موكب الحجاج لمكة)

والحج في ذلك الوقت يعتبر تضحية فعلية بالروح، فمن الأمراض المعدية المنتشرة بمكة مخاوف الصحراء التي يقضون بها أكثر من تسعين يومًا، وكان من الشائع وقتها أن الصحراء المؤدية لمكة قد افترشت بعظام هؤلاء المؤمنين. أليس هذا بأكثر من رائع؟ وقد أثار مخيلتنا نحن المسلمين القاطنين في أرجاء البلاد ما نقرؤه وهو يتحدث عن ذلك الحفل وكأنه لم يقم على أرضنا أو لم يحتفل به أجدادنا، فما بالكم بتأثير ذلك الوصف على أسماع وعقول الأجانب في ذلك الوقت، وأي أمنية تلك ستتصدر قائمة أمنياتهم بزيارة بلاد النيل السمراء؟ فلم تعد الآثار الفرعونية هي فقط التي تخلب الألباب بل تلك الطقوس وعادات وتقاليد ذلك الشعب.

أهم مصادر هذا الفصل:

1 - مصر وكيف غُدر بها، ألبير فارمان.

2 - العجائب والآثار في التراجم والأخبار، الجبرتي.

الفصل العاشر

الحريم

إنه ذلك العالم المغلف برقائق من الدانتيلا تلك التي تشف ما تحتها، فلا هي تركت لك حرية النظر ولا حرمتك، بل فتحت لمخيلتك العنان تمامًا كما فعلت بالفنانين المستشرقين الذين وفدوا إلى البلاد تراودهم الأحلام لسحر الشرق، فرسموا الكثير من اللوحات لذلك العالم الغريب عنهم، وقد اجتهد قليل منهم ليصل إلى القصر ويرى ذلك بنفسه، والبعض اعتمد على السمع والخيال، لذلك جاءت تلك اللوحات مثارًا للأقاويل والتساؤل. وقد كتب المؤرخ الفرنسي برايس دافين واصفًا ذلك المجتمع قائلًا: «إذا كانت هناك أشياء لا يراها المرء أثناء رحلاته ولا يمكنه أن يعلم بها إلا بالإقامة في البلد الذي يزوره أمدًا طويلًا كالعادات والأخلاق، فذلك ما يمكن أن يقال عن النساء المسلمات نظرًا لأنهن منطويات داخل مجتمعات الحريم لا يراهن إلا أزواجهن أو أقرب الأقربين، ومحال أن نعلم شيئًا عن أخبارهن إلا من خلال السوريات والأوربيات اللواتي يختلطن بهن».



▲ (Splendeur Orientale by Edouard Frederic Wilhelm Richter)
(الحريم - إدوارد فريدريك فيلهلم رختر)

لذا جاءت بعض تلك اللوحات بشكل حسي يلائم الدور الذي تقوم به الجارية في اعتقادهم، فالجارية مستلقية بأوضاع مثيرة ترتدي ملابس أكثر إثارة والموتيفات والألوان والإضاءة كلها تخدم هذا الجو، ويغلب على اللوحة هذا الصمت والتأمل تمامًا كهمس الجواري في سكون، الحريم هي كلمة تركية الأصل دخلت للبلاد العربية عن طريق العثمانيين خلال وجودهم فيها، وكلمة حريم لم يأت ذكرها في القرآن أو السنة النبوية، فهي ابتكار للثقافة التركية ومشتقة من كلمة «حرم»، ومنشأ ذلك المعنى بعد موت رسول الله ﷺ الذي كان أكثر خلق الله نزاهة وبعدًا عن الشهوات، تولى بعده شئون الإسلام الخلفاء الراشدون فساروا على منهج نبيهم الواحد بعد الآخر إلى أن آلت الخلافة إلى معاوية الذي اتخذ دمشق عاصمة له وبنى بها قصر الخضراء وخصص فيه بناءً للنساء، فكان هذا أول حجر يوضع في بناء الحريم، وخلفه ابنه يزيد الذي لم يكن له هم سوى اللهو والنساء فكان يكثر من شراء الجواري ويبني لهن القصور لكي يطفئ جمرة شهوته لا أكثر.. وهكذا من خليفة إلى آخر كل همهم نيل ترف الحياة لينتهي عهد الفتوحات الإسلامية، حتى نال العباسيون الحكم وكثر وقتها الطلب على الجواري الذي ارتفع ثمنهن ليصل إلى مائة ألف درهم كان الخليفة يدفعها عن طيب خاطر حتى امتلأ نهر دجلة بالسفن التي تحمل الجواري من بيض وسود، وامتلأت القصور بالأغوات والغلمان، وكان التنافس على أشده ما بين الجواري للحصول على رضى وحب الخليفة، فحدث تنافس ثم غيرة أدت إلى حبك المؤامرات والخطط للقتل بالسم أو الخنجر، وأصبح الحكم في يد هؤلاء الجواري، وعند هجوم التتار في عهد المعتصم الذي لم يجد فرصة ليتخلص من قهر هولاكو إلا ملء سلال من الجواهر واللآلئ وتقديمها له، فما كان من أمر هولاكو إلا أنه وزع تلك الهدايا على جنوده، ثم أخذ الخليفة ونساءه وكان عددهم حوالي خمسمائة، وهناك أمر أن يوضع الخليفة في حقيبة من الجلد وأن يطاف به شوارع بغداد ثم يغرق في نهر دجلة، كما كان لهؤلاء الجواري تأثير أدبي على الأدباء أنفسهم يتمثل فيما قد تثيره الجارية في نفس الشاعر من عواطف، فيعبر عن ذلك بأجمل الشعر والغزل، وانتشر الغزل في ذلك الوقت بصورة تفوق أي وقت، فمشهد السلطان وهو جالس ويتدلى بطنه المنتفخ وهو ممسك بشاربه

الكثيف شارد الذهن في شيء ما تحيط به الحاشية والخدم وأمامه مأدبة عارمة بها أشهى الأطعمة والجواري الحسان ينتشرن في كل مكان يرقصن، ويتسامرن مع الضيوف، هذه صورة من ليالي ألف ليلة وليلة التي تجذب الجميع وتثير الخيال ونتمنى أن نعيش في ليلة من لياليها، الخليفة هارون الرشيد عند موته وجد بقصره ما يزيد على ألفي جارية من أجمل النساء، أما الخليفة الراشدي فيوم أن مات وجد بقصره ألف جارية، وحين عاد موسى بن نصير فاتح المغرب إلى دمشق كان معه ما يزيد على ثلاثة آلاف من أجمل الجواري، كما كان عدد الجواري أكبر من عدد الحرائر في بيوت الأغنياء وعلية القوم. ويذكر أن محمد الأمين ابن هارون الرشيد أعجبته جارية اسمها «بذل» فطلبها من سيدها ولكنه رفض فملأ له قاربًا من الذهب ولكنه رفض وفضل الاحتفاظ بالجارية. ويقال إن الخليفة هارون الرشيد رأى إحدى جواريه فأعجب بها وأحب أن يقع عليها، ولكنها رفضت وقالت له إن أباك قد وقع عليّ، وبذلك فأنا محرمة عليك، فقال هارون الرشيد:

أرى ماء وبي عطش شديد ... ولكن لا سبيل إلى الورود

أما يكفيك أنك تملكيني ... وأن الناس كُلهمُ عبيدي

وإنك لو قطعتِ يدي ورجلي ... لقلتُ من الرضا أحسنت زيدي



(In the harem by Leroy Paul-Alexandre-Alfred)
(الحريم - ألفريد ألكسندر)

الحرملك: هو المكان المخصص في القصر لنساء وزوجات السلطان والذي يحرم على الغرباء أو الرجال مجرد الاقتراب منه، وتقوم بالخدمة به نساء مخصوصات، ويحيط بالحريم أسوار عالية تمنع المتطفلين من النظر إليه وتلحق به الحدائق والبساتين والنافورات والحمامات المخصصة لهن ليرفهن عن أنفسهن، ويتكون قسم الحريم من عدة أجنحة كل جناح منها يسمى دائرة ويغلق على الأجنحة كلها باب رئيسي يقوم بحراسته الأغات وهم مجموعة من العبيد الخصيان، أما حريم السلطان فهن زوجات السلطان وجواريه اللواتي يضاجعهن واللواتي لا يضاجعهن وموظفات قصره وخادماته وقد كان يغلق عليهن الباب عكس نساء المجتمع العادي كنوع من أنواع التميز والحماية وإضفاء صفة مخملية على مجتمعهن كنوع من التدليل لنساء السلطان، وكان الحريم يعشن في مجتمع مخملي طبقي يتكون من عدة طبقات أعلاها زوجة السلطان مرورًا بالمحظيات والمستولدات وهن جوارٍ للولادة والنسل نزولًا إلى طبقة الخادمات ومستجدات الجواري اللواتي تحت التدريب والتعليم، كانت الطريقة التي يتم بها التعامل مع النساء الأخريات مختلفة عن نساء السلطان عامة من الشعب، فقد كن في عزلة تامة عن العامة متقوقعات في هذا الشرك يتم تدريبهن وتعليمهن والعناية بهن وكأنهن مخلوقات نادرة وذلك في رفع تعليمهن ليكون في أعلى درجات الجمال الجسدي والخلقي والفكري وكل ذلك لا لشيء سوى أن يكن مرتعًا للسلطان وملذاته..عالم الحريم كان مجهولًا للعامة؛ فرويت حوله الأساطير وقيلت فيه الأشعار وأصبح حديث الناس فكل رجل كان يحلم بأن يكون سلطانًا ويمتلك لذة الحريم وينعم بالجواري والمكانة الاجتماعية لمن هم لديهم حريم ببيوتهم وكل سيدة تمنت أن تكون من حرمة السلطان لا تراها الأعين لما أحيطت به الحرمة من هالة من السحر وما يحكى عنهن من الجمال والفتنة، والجواري درجات فمنهن من هي محظية السلطان وتلك يقوم على خدمتها الكثير من الجواري الأخريات وتنعم باحترام كبير إلا أن يشعر السلطان بالملل ويبدلها بأخرى.

ولذلك كانت دومًا هناك المكائدُ والخططُ تدار بحنكة نساء قيل عنهن: «إن كيدهن عظيم».. وهكذا وبمرور الوقت انتقلت هذه الظاهرة، وكأي ظاهرة اجتماعية

أخرى انتقلت عدوى الحريم من السلاطين والخلفاء إلى الصفوة من الشعب من تجار وشخصيات ذات نفوذ فأصبح لهم الحريم الخاص بهم وتم حجب النساء بما يشبه الموضة في البيت فلا تخرج إلى السوق ولا يراها أحد ولا تعمل ولا تقضي حاجات منزلها، هي فقط للذة، بل وأصبحوا يتفننون في جعل قسم الحريم قطعة فنية رائعة الجمال من ديكور وأثاث ومرتعًا للملذات، وهكذا أصبح أصحاب الثروات والنفوذ يمتلكون مجموعة من الحريم لا يخرجن ولا يعملن ولا يكشفن عن جمالهن لأي شخص ويغطين وجوهن عند الخروج من المنزل حتى لا يراهن أي شخص عكس كل النساء؛ لأنهن حريم ووجوههن محرمة إلا على من يملكهن أو يشتريهن أو يتزوجهن.. أصبح كل رجل يتمنى أن يكون من ذوي الحريم وأصبحت كل أنثى تتمنى أن تكون حرمة مدللة لأحدهم عندما تخرج من المنزل تتدور الرقاب باتجاهها من شدة الفضول ورغبة في رؤية ما تحت الغطاء..تمامًا كما تتجه الأنظار إلى هوادج محظيات السلاطين رغبة في نظرة من ذلك الهودج المحفوف بالفتنة..المليء بالأسرار.

جاء المستشرقون من كل صوب وحدب لذلك العالم الذي قرءوا عنه مسبقًا وكل منهم يمني نفسه بأن يجلس كأمير شرقي محاطٍ بأجمل الجواري جاءوا هربًا من أجواء أوربا المتزمتة في ذلك الوقت، فعندما رسم سرجنت الفنان الفرنسي لمدام غوترو زوجة المصرفي الشهير في باريس في ذلك الوقت تابلوه عرض بصالون باريس وصدم أهل باريس والطبقة الأرستقراطية التي كانت تنتمي إليها بسبب الكتفين العاريتين سحب البورتريه وغادر الفنان فرنسا وهو ما زال يرى أنه من أجمل البورتريهات وعندما اشترى متحف المتروبوليتان التابلوه اقترح سرجنت تغيير الاسم إلى مدام إكس؛ وذلك حتى ينفي صفة الخصوصية للتابلوه وليصبح رمزًا لجمال المرأة وغموضها أما مدام غوترو فقد طلقت من زوجها بسبب هذا التابلوه، وتلك الحادثة ربما توضح لنا مدى التزمت وقتها؛ فلم يكن من اللائق أو مسموحًا برسم نساء المجتمعات الأوربية بشكل به إغراء أو عري وكان هناك الكثير من الموديل التي تؤجر لمثل تلك الأعمال الفنية، وينقسم الفنانون المستشرقون بين منصف وغير منصف في خروج شكل المرأة الشرقية بشكل لائق بها برغم الاتهامات

التي وجهت إليهم بالشكل الحسي الذي يثير الغرائز والذي أخرجته فرشاتهم، ولكننا لا نستطيع أن نعمم تلك المقولة وإلا ستكون ظالمة للكثير منهم، فهناك مثلًا الفنان روبرتس ديفيد الذي رسم الكثير من اللوحات لنساء الشرق بكامل حشمتهن ووقارهن،بينما اتجه البعض منهم لنوعية أخرى من النساء الأخريات فرسموها تجلس بإغراء وتنظر بإغواء كما لو أن بعينيها دعوة لشيء ما وهذه اللوحات أطلقوا عليها أسماء تندرج تحت طبيعة عمل تلك السيدة التي تسمح لها بارتداء تلك الملابس كلوحة «العالمة» «والعالمة مع غليون» لجيروم، ولوحة «سالومي» لرينول «والأمة البيضاء» لدنوي، ويعتبر الحريم ذلك العالم الخفي الشائق الذي لم يستطع أحد من الفنانين أن يتوقف عن تخيله بكل ما يحتويه من أسرار ماجنة فكان القسط الوافر من اللوحات الاستشراقية لذلك العالم، ولعلنا نتخيل كل لوحة تندرج تحت مسمى حريم المشهد الذي تحتويه مجموعة من الفتيات الجميلات بملابس خفيفة تجلسن بدلال حول بركة من الماء أو تستلقي إحداهن على أريكة بينما تجلس حولها مجموعة من الفتيات يغنين ويرقصن بما خف وشف من ثياب، وكان هناك الكثير من الفنانين يقومون برسم تلك اللوحات بعد الرجوع لموطنهم مستعينين بموديلات أوربيات وأشهرهم جيروم الذي رسم لوحات للحمامات الشعبية مستعينًا بموديل واحدة ظهرت في أكثر من لوحة ومن أشهر المعارض التي أقيمت خصيصًا لتغطية هذا النوع من الفن معرض أقيم بالعاصمة النمساوية في عام 2005 ضم أكثر من 180 عملًا لفنانين معروفين: جان ليون جيروم، ولودفيك دوج، وهيرنير وغير معروفين، واختيرت لوحة جمال شرقي لألفريد ستيفن عنوانًا للمعرض والكثير من اللوحات تصور عالم الحريم داخل الحمامات والقصور وغرف النوم.

أهم مصادر هذا الفصل:

1 - مذكرات الأميرة جويدان هانم.

2 - الحياة الاجتماعية في القاهرة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، الدكتور سمير عمر إبراهيم.

الفصل الحادي عشر

الأغـــا

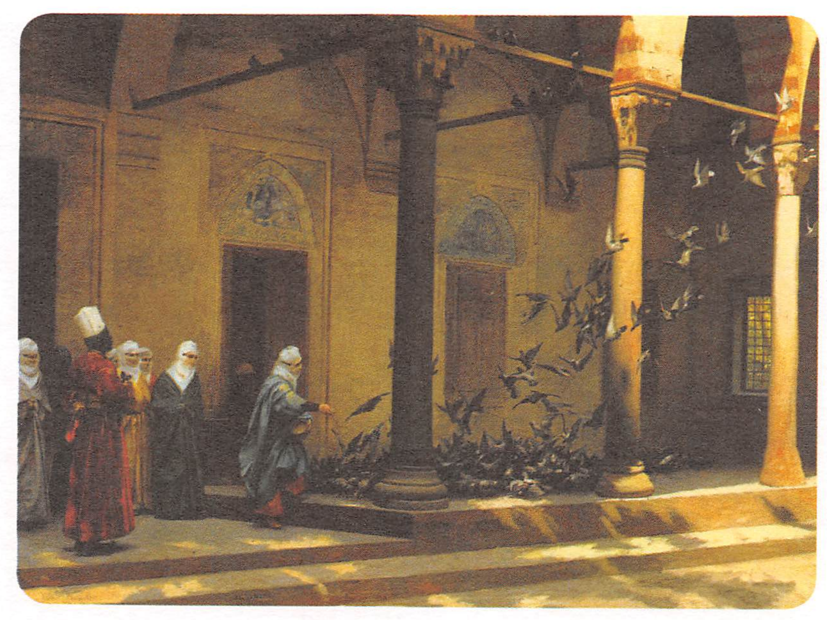


▲ (Portrait of eunuch by Jean Baptiste Van Mour

(الأغا - فان مور بابتيست)

لا نستطيع أن نغفل حق هذا الفتى الذي نراه يشغل حيزًا في كثير من اللوحات الاستشراقية إن لم تكن هناك لوحات يشغلها هو بمفرده؛ ذلك الفتى الذي يستعمله الفنان وكأنه مكمل لديكور اللوحة.. ومن النادر وجود لوحة تحمل اسم الحريم إلا وكان هذا الفتى الأسود يقف في زاوية خلفية منها، ونادرًا أيضًا ما كان يقف في بؤرة الصورة بملامح كاملة واضحة، دومًا هناك في تلك الزاوية المعتمة يظهر جانب وجهه، وكان يضيف على اللوحة بُعدًا من السحر الخاص ويصعب تصديق وجود

هذا الشخص في زمن ما، ولكن كل الأدلة والحقائق تثبت وجود تلك الفئة التي كانت موجودة حتى يومنا هذا في مكة المكرمة وبيت المقدس، وخصص عملها للتفرقة بين النساء والرجال أثناء الطواف؛ ذلك الأغا الذي ارتبط اسمه دومًا بالحريم «الحريم والأغوات» ولِمَ لا إذا كان هو حارسهم الشخصي يذهب معهم أينما ذهبوا ويسهر الليل على حراستهن، الأغوات هم عبيد جمعهم التجار من كل البلاد التي تبيح بيع وشراء الرقيق في ذلك الوقت، وفي كثير من الأحيان يأتي أولئك الغلمان من كردفان حيث تجرى لهم عملية الاستئصال في كردفان على نطاق واسع، ولكن عدد تلك العبيد لم يكن وفيرًا؛ لذلك كانت هناك مجموعة من الغلمان يدخرها البائع لنفسه لأنها سوف تُدِر عليه الكثير من المال إذ يصل ثمن الأغا ضعف ثمن الغلام السليم، ويختارهم التاجر غلمانًا لم يبلغوا بعد، أقوياء البنية، حادّي الذكاء، يفضل أن يكونوا سود البشرة، وفي موسم الخريف يصطحبهم التاجر إلى بلدة «زاوية الدير» بأسيوط وبعض البلاد في جرجا؛ حيث يجري هناك أبشع ما يحدث لذكَرٍ على وجه الإطلاق وهي عملية استئصال أعضائه التناسلية؛ تلك العملية التي حرمها الدين الإسلامي ولا يقوم بها إلا عدد من القساوسة يسكنون تلك البلدة البعيدة، تساق الغلمان كالنعاج إن لم تكن النعاج أوفر منهم حظًّا على الأقل، فهي تساق للذبح مرة واحدة ولكن هؤلاء الفتيان يشعرون بآلام الذبح كل مرة يتذكرون فيها ما تعرضوا إليه في تلك العملية التي يشرح مدى بشاعتها الطبيب كلوت بك قائلًا: « تتم باستئصال أعضاء الذكورة بموسى، ثم يصبون على الجرح زيتًا مغليًّا، ثم توضع أنبوبة في الفتحة المتبقية من القناة البولية، ثم يرش مسحوق الحناء فوق الجرح، ثم يدفن الصبى حتى بطنه في الأرض لمدة 24 ساعة وبعد إخراجه يدهن الجرح بمرهم من الطمي والزيت»، وبعدها يفقد الصبي أعضاءه التناسلية وشهوته الجنسية فيصبح من الجائز وقتها أن تُكشف الحريم عليه ولا خوف عليهن من رغبة قد تستبد به؛ لأنه أصبح فاقد القدرة والرغبة معًا ويباع بعدها هؤلاء الصبية الذين يتراوح عددهم في بداية القرن التاسع عشر ما بين مائة ومائتي صبيٍّ بمبالغ كبيرة لقصور الحكام والباشوات والتجار الأثرياء، ويكون دورهم في جناح الحرملك للإشراف عليه وحراسته



▲ (harem women feeding pigeons in a courtyard by Jean Leon Gerome)

(الحريم يطعمن الحمام في حديقة القصر - جان ليون جيروم)

وتندرج الوظائف في الرتب إلى أن تبلغ أعلى رتبها «رئيس الأغوات»، في القصر، والذي يباشر الكثير من الأعمال وقتها ويكون مطلعًا على أدق أسرار الحاكم وأمه وزوجاته ومحظياته، ومن أشهر الأغوات قراقوش الذي وصل إلى حد أن أصبح وزيرًا عند الملك أيوب وكان يطلق عليه فحل مخصي، وكافور الإخشيدي الذي نظم فيه المتنبي قصيدة، ونال خليل أغا المشرف على حريم الخديوي إسماعيل حظًّا وافرًا، وشهرة كبيرة؛ حيث كان يلبس أحدث الملابس وأغلاها، وكان مقربًا للخديوي إسماعيل، حتى إنه أصبح سكرتيرًا شخصيًّا له، وكان من أهم أعمال الأغا عند إعلان السلطان أو الباشا زيارة الحريم أن يشرف بنفسه على أدق تفاصيل تلك الزيارة حتى يعلن الباشا رغبته في جارية محددة يوصلها إلى غرفة نوم ويسجل موعد تلك الزيارة حتى إذا ادعت تلك الجارية أنها حامل يتأكد من موعد حملها والموعد الذي سوف تجرى به عملية الولادة، ولا يقتصر عمله على حراسة القصر فقط فهو يصحب الحريم والجواري إلى الحمام والأسواق أو إلى

الحفلات الخاصة، والأغا في اللوحات القليلة التي أظهرت كل تفاصيل وجهه تغلب عليه نظرة انكسار وحزن على الرغم من الصخب المحيط به .. وكان الفنان جان باتيست مور الأقرب لتلك الشخصية في لوحاته؛ فقد رسم لوحة كبير المخصيين السود وكذلك كبير المخصيين البيض وقد رسمهما بشكل وافر من بذخ الثياب فملابس من حرير ويتحليان بمجوهرات ثمينة وفي الصورتين جعل حركة اليد منبسطة ومفتوحة تدعوك للدخول لعالم الحريم الذي يقبع خلف أحد الأبواب المغلقة في خلفية الصورة إشارة إلى أنه هو المسئول عن الدخول والخروج من وإلى هذا العالم.

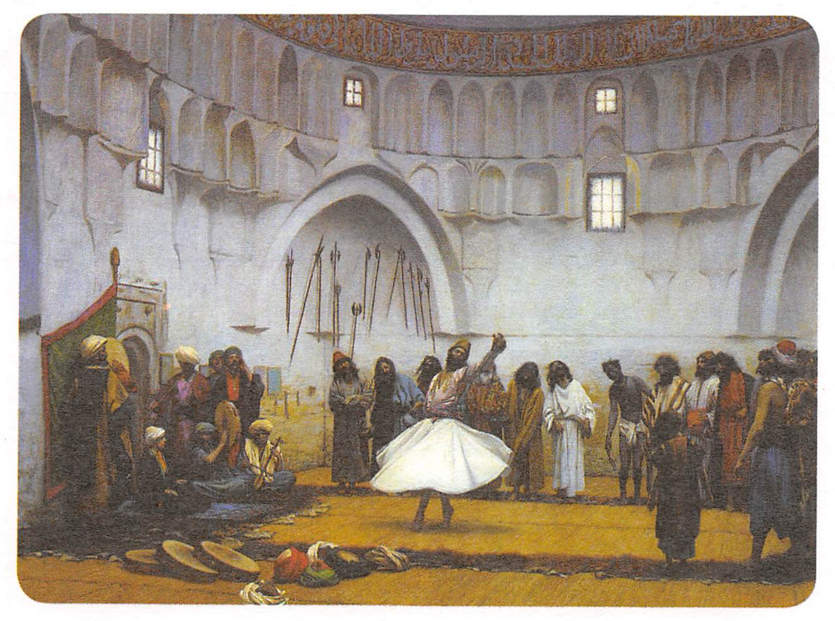
أهم مصادر هذا الفصل:

1 - الحياة الاجتماعية في القاهرة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، الدكتور سمير عمر إبراهيم.

2 - لمحة عامة على مصر، تأليف كلوت بك.

الفصل الثاني عشر

الدراويش



▲ (Whirling dervishes by Jean Leon Gerome)

(الدراويش يدورون - جان ليون جيروم)

الدراويش أو المشعوذون، تلك الطوائف الدينية التي كانت منتشرة بشكل كبير في ذلك القرن ولم يخلُ كتاب أو لوحة لأحد المستشرقين من الحديث عنهم ورسمهم بل إن أشهر اللوحات التي رسمت لجيروم كانت للدراويش في المسجد، ووصفهم المؤرخ برايس دافين وهو يجلس على المقعد في أحد مقاهي القاهرة يدخن الأرجيلة ويراهم يصولون ويجولون في الشارع «وهناك الأولياء مباح لهم كل شيء ويبدي نحوهم السذج احترامًا دينيًّا، إنهم أشخاص يتكلفون التقوى، رجال نصف عراة تجدهم جالسين في الأركان أو مارين في

الطرقات»، وكما رسمتهم اللوحات الفنية فهم يلبسون ملابس غريبة ويطلقون شعورهم ولحاهم ويمشون حفاة وغالبًا ما تعقد جلساتهم في المساجد، كما رأيناهم في كثير من اللوحات في شكل شبه دائري يمارسون طقوسهم وهم في حالة من التجلي، وكانت لهم طرق خاصة في الاحتفالات الدينية كموالد أولياء الله الصالحين ومولد النبي ﷺ ومولد الحسين - رضي الله عنه - وهم جماعات شديدة التدين زاهدة في الحياة، يتجمعون في حلقات تسمى الذكر وهي ابتهالات إلى الله.. ويستمر هذا الذكر ساعات بلا انقطاع وكلما مر المزيد من الوقت سيطرت تلك الحالة من التجلي على الدراويش لتصل في النهاية إلى تلك الحركة الدائرية التي تسمى الدوامة ويقومون فيها بالدوران بسرعة كبيرة.

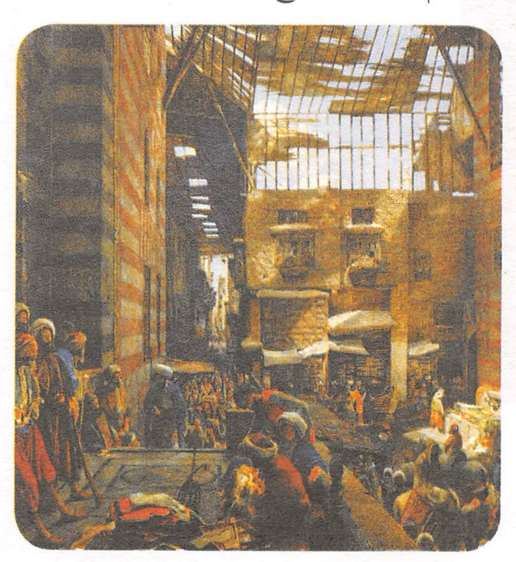
أهم مصادر هذا الفصل:

- مذكرات الفنان والمستشرق الفرنسي برايس دافين.

الفصل الثالث عشر

الأسـواق

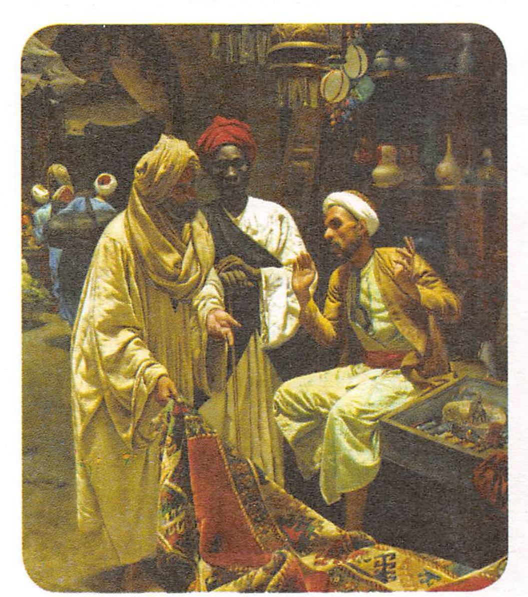
شغلت بصخبها وحيويتها وسلعها الشرقية والغريبة عيون وعقول الأوروبيين وكان لها الجزء الأكبر من المجموعة الفنية لأي مستشرق كذلك لم يخل كتاب أحد من الرحالة إلا وقد خصص لها عدة فصول ووصفها دافيد روبرتس قائلًا: «بإمكانك أن ترى كل شيء؛ الحمير المحملة بالفاكهة والخضراوات والكلاب الضالة وصناعًا يحملون أثقالًا أو يدقون القهوة في هون بقطعة غليظة من الخشب وصوت الشيالين وهم يصيحون «إوع رجلك.. ظهرك وجهك» ووسط كل ذلك يمر رجال يرتلون بصوت عالٍ آيات من القرآن».



▲ (a view of the street and mosque of Ghorreyah Cairo)
(مشهد لشارع ومسجد الغورية)

بينما كتب جوتيه قائلًا: «أسواق تختلط فيها جميعُ أنواع البشر من أشكال متنافرة من البدو المسلحين وأتراك ويونانيين في أزياء غريبة، وصعاليك مشردين ونساء محجبات، يمتطين الحمير أو البغال يحرسهن عبيد أشداء وسقائين بقربهم الجلدية المميزة وكنت لا أستطيع أن أمنع نفسي من الصياح متعجبًا «ياله من جمال» لولا أني

خشيت أن يعتقد دليلي الترجمان أنه أصابني مس من الجنون»، كانت المدن هي مراكز البيع والشراء وكان لكل مدينة يوم مخصص في الأسبوع لحركة البيع والشراء، وعلى التجار دفع ضريبة مقابل عرض بضاعتهم في تلك الأسواق. تعتبر مدينة القاهرة هي أكبر مركز للتجارة في مصر وتشغل الأسواق جزءًا كبيرًا من مدينة القاهرة، ويتجمع عادة أصحاب كل حرفة في ناحية واحدة من العاصمة حيث نجد شوارع معينة لصنف واحد من التجارة، فمثلًا سوق الغورية حيث تباع شيلان الكشمير والأقمشة الحريرية،وسوق الأشرفية يباع فيه الورق، وسوق الحمزاوية تجار الجوخ وفي سوق السلاح نجد تجارة الأسلحة وفي الجمالية نجد تجارة البن والطباق وفي وكالة الجلابة توجد تجارة الرقيق وسوق خان الخليلي لتجارة النحاس والذهب والسجاجيد.



▲ (The carpet seller by Rudolph Swoboda)

(بائع السجاد ـ رودلف سوبودا)

وهذه الأسواق كانت مغطاة من السطح لتقي الناس حرارة الشمس أو برد الشتاء وتتراص الدكاكين على جانبيها، وقد ازدهرت حركة التجارة الخارجية والداخلية في عهد محمد علي بشكل ملحوظ وتتم مراقبة تلك الأسواق عن طريق المحتسب الذي كان لا يتوانى عن ضرب وجلد وتخريم الأنف والأذن والتشهير بأي تاجر يتلاعب بالأسعار أو يغش في أنواع البضاعة وقد وصفه برايس دافين قائلًا: «المحتسب وهو «الأغا» المشرف على حركة الأسواق يطوف في المدينة على صهوة جواده يتقدمه القواسون حاملين ميزانًا ضخمًا ويتبعه منفذو أحكامه وخدم عديدون مسلحون بالكرابيج ويختار بالصدفة من يقع عليه الامتحان وقد يستجوب الخدم

الذين قد اشتروا شيئًا من مواد غذائية ليعلم الثمن الذي دفعوه والوزن الذي أعطي لهم، فإذا اتضح غش التاجر يقوم بأمره بالعصا على الفور بعدما يقبض خدمه على التاجر ويقوم ببطحه على بطنه وضربه بالفلقة ثم يضربه مائة أو مائتين ضربة بالسياط يعدها الأغا في هدوء على حبات مسبحته الوردية، وأحيانًا يكون العقاب أشد عندما تتكرر تلك الفعلة فيأمر المحتسب بتسمير أذنه» ويذكر أنه في حالة استقرار حكم محمد علي في البلاد أمر بتسعيرة إجبارية موحدة تسري لمدة عشر سنوات من 1825 إلى 1835 على كثير من السلع والبضائع منها اللحوم بأنواعها والبقول والسكر والقطن والمسلي والزيوت بأنواعها وتدهورت حركة التجارة في منتصف القرن إلى نهايته تأثرًا بوباء الكوليرا وأسعار القطن وبور الأراضي الزراعية التي تركها أصحابها للعمل في حفر قناة السويس وأخيرًا بحرق مدينة الإسكندرية والاحتلال الإنجليزي.

أما بالنسبة للأسواق في اللوحات الفنية فقد كان سوق خان الخليلي هو الأكثر إلهامًا للمستشرق نظرًا لجمال معروضاته التي تمتاز بالصبغة الشرقية من مشغولات ذهبية أو نحاسية وكذلك السجاد المنقوش والمطرز بزخارف عربية، وقد احتلت تجارة السجاد الجزء الأكبر في تلك اللوحات، فكثيرًا ما رأينا لوحات يقوم التاجر فيها ببسط سجاده المنقوش بزخارف جميلة وبألوان زاهية أمام إحدى السيدات أو أحد الرجال أو مجموعة من الناس الذين يتزاحمون أمامه وفي أحيان أخرى رسم أصحاب تلك الدكاكين يجلس البعض منهم على مصاطب حجرية يدخنون الأرجيلة ويتابعون حركة البيع والشراء جاءت تلك اللوحات مماثلة تمامًا للوصف مزدحمة، صاخبة حتى وكأنك تكاد تسمع مناقشات التجار والزبائن ونداءات الباعة الجائلين، الذين تمنحهم تلك الأسواق فرصة لبيع بضاعتهم،وتمتاز الأسواق في اللوحات الفنية بالمعمار الإسلامي من أرابيسك ومشربيات كلوحة خان الخليلي التي تظهر فيها المنازل بتصميم شرقي أصيل ومن أشهرها لوحة «السوق على أبواب القاهرة» لكارل مولر ولوحة «بازار» لجيروم و«الغورية» لدافيد روبرتس.

أهم مصادر هذا الفصل:

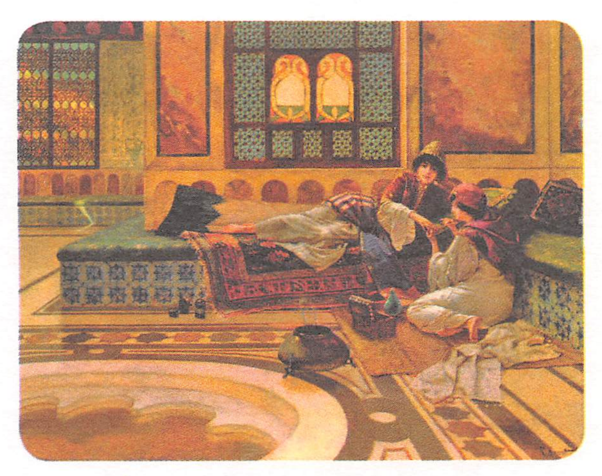
1 - الحياة الاجتماعية في مصر في عهد إسماعيل، دكتور صالح رمضان.

2 - Leon polier «la France en Egypte» art cit.

الفصل الرابع عشر

الحمام الشعبي

جميلة تلك الحالة العالية من الاسترخاء أن تخلو فيها بنفسك في هذا المغطس الممتلئ بالماء الساخن مغلقًا عينيك مبتعدًا عن تلك الأفكار والأحداث المربكة التي مرت بك وإذا بها الأصعب عندما نغلق بعد ذلك صنبور المياه ونتجه لنرتدي ثيابنا ونعود نقيم في أجساد متعبة، منهكة.



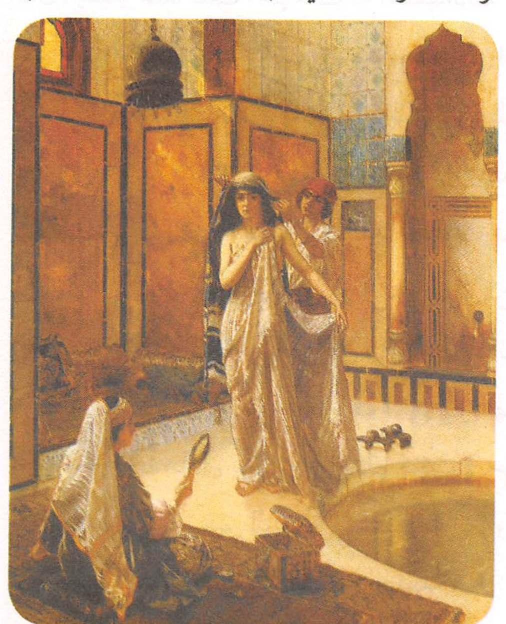
▲ (The Manicure by Rudolf Ernst)

(طلاء الأظافر «المانيكير» - رودلف إرنست)

لا أحد يعلم بالتحديد عن التوقيت لإنشاء تلك الحمامات الشعبية في مصر البعض يقول إنها ترجع لعهد عمرو بن العاص، حيث أنشأ أول حمام في الفسطاط وآخرون

ينسبونها للخليفة العزيز بالله الفاطمي ولكن انتشارها الأكبر كان في عهد العثمانيين وما زال موجودًا منها الآن اثنان أو ثلاث على الأكثر تفتح أبوابها لزبائنها، وكانت الحمامات ذلك العالم الذي يكسوه الضباب المحمل بالغموض يستحق الوصف والرسم معًا، ولوحات الحمامات تمثل أكثر المواضع جذبًا للمشاهد فديكوراته المستوحاة من العمارة الإسلامية، خلف بابها الخشبي العتيق الذي زينت عليه نقوش لأمثال وحكم عربية بخطوط كوفية ومزلاجه النحاسي الأثري.

والحمامات عبارة عن عدة غرف متتالية محلاة بفسيفساء من المرمر والصيني الملون تحفظ الماء نظيفًا وجميعها تسبق بهو الحمام الذي هو عبارة عن صالة فسيحة تتوسطها بركة كبيرة واتخذ سقفها شكل قبة من الزجاج الملون توزع الإضاءة بشكل مثير وعلى جانبي البركة وضعوا أرائك ليستلقي عليها الزبائن ليسلموا أجسادهم المنهكة لأيدي المدلكين وتتصل بتلك القاعة المستديرة ممرات لغرف صغيرة بمقاعد رخامية تنسكب منها مياه ساخنة تعبق الجو بالبخار الذي يفتح مسامات الجلد ويجلس الزبون مستندًا على وسادة صغيرة، وتؤدي البلانة أو الغلام الأسود دورهم بتلك الليف الخشنة بقشط الأوساخ عن الجسد وبعدها تصب زيتًا ساخنًا استعدادًا للتدليك، والحمامات في ذلك الوقت كانت تقوم بدور اجتماعي بالإضافة لدور النظافة في تلك التجمعات لأهالي الحي أو الجيران والأصدقاء تعقد الصفقات بين الرجال وتدور



▲ (The harem bath by Rudolf Erns)
(حمام الحريم - رودلف إرنست)

الأحاديث والمناقشات السياسية، وبالنسبة للنساء كانت الحمامات هي النزهة المسموح بها في ذلك المكان المضبب كثيرًا، ووصل عدد الحمامات في النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى 70 حمامًا كان أشهرها: حمام الوالي، حمام السلطان الكبير، حمام الصوافة، حمام الملاطيلي، وحمام السكرية.

إنه المكان الوحيد المسموح فيه للمرأة أن تخلع تلك التلال من الملابس خارج المنزل، وهو أيضًا المكان الوحيد المباح فيه انتهاك حرمة الجسد وحيائه تسلط عليه الأضواء والنظرات الفضولية للنساء تتوالى عليه الأيدي حكًّا وتدليكًا وتشطيفًا بكل تلك الكميات الهائلة من الماء، ذلك الذي تدخله المرأة وتخلع عنها همومها ومعها تخلع أشياءها الصغيرة لتهيئ نفسها لتلك الطقوس النسائية الخاصة، وللحمامات العربية القديمة مذاق مختلف فكانت عالمًا ضبابيًّا بكل ما تحمله الكلمة من معنى ليس فقط في كم الهواء المحمل بالأبخرة، بل كان اجتياز عتبة تلك الحمامات له استعدادت خاصة من النساء فتحمل كل منهن تلك التفاصيل النسائية التي تجمع في وعاء كبير من الفضة المنقوشة أو سلة من الخوص، مشط من العاج، مناشف مطرزة، صابون بروائح عطرية، مساحيق لإزالة الشعر، عطور حناء، بخور، ما لذ وطاب من صنع أيديهن ربما تلك الأوعية فرغت الآن من محتوياتها ولكن لاتزال عقول النساء ممتلئة بها، لقد تأقلمت فقط مع لوازم العصر، وأصبحت عوضًا عن الوعاء تلك الحقيبة المبطنة بالساتان، وعن ذلك الحمام الشعبي الحمامات الصحية الفائقة الأناقة والفخامة بالنوادي والفنادق، كانت الحمامات القديمة تجمعًا نسائيًّا للثرثرة والضحكات والعتاب والحكايات التي لا تنتهي، كانت الأسر الكبيرة تقوم باستئجار الحمام لها وحدها في يوم معين مثلما كانت تقام في تلك الحمامات الاحتفال بليلة الحناء، وهي الليلة التي تسبق الزواج تذهب إليه العروسة مع أصدقائها وقريباتها في زفة تسمى بزفة الحمام محملة بأشيائها الجميلة الجديدة.

وتقوم هناك بتلك الطقوس الخاصة بما يلائم الاستعداد للفرح، وفي مشاهد اللوحات الخاصة بالحمامات تظهر تلك المصنوعات الزائلة وتخطف الأبصار عن تلك الأجساد

العارية فمثلًا شكل القبقاب الخشبي عالي الكعب والمقاعد المصنوعة من الخوص والمناشف المزخرفة والأرجيلة وفناجين القهوة الذهبية، بالإضافة إلى العاملات في الحمام من الحبشيات وهن يرتدين الكثير من المشغولات الفضية وبخاصة تلك الحلية المستديرة التي تدلى من أنوفهن وتمتلئ بقطع صغيرة من الزجاج كل تلك التفاصيل داخل اللوحة تمثل عدة لوحات داخل لوحة واحدة، ومن أشهر تلك اللوحات لوحة «الحمام» لجيروم و«حمام الحريم» لردولف أرنست و«الطريق للحمام» لبردجمان «تدليك» سوماني، وفي الأخيرة تستسلم فتاة جميلة ليد قوية لامرأة حبشية تقوم بتدليكها.

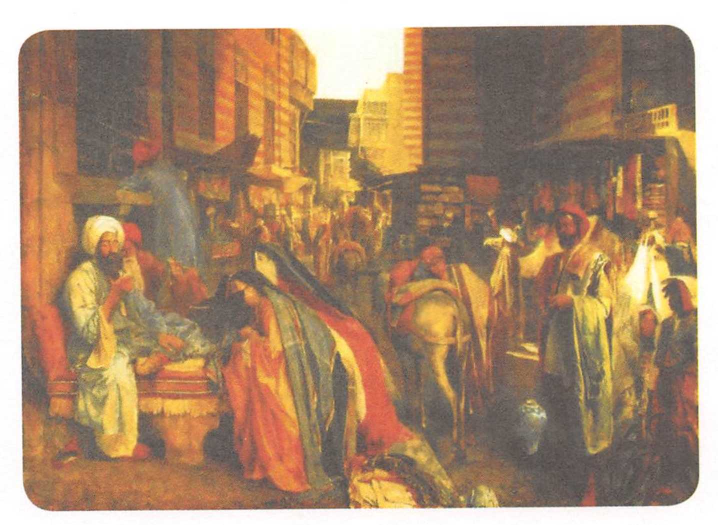
أهم مصادر هذا الفصل:

1 - المصريون المحدثون، إدوارد وليم لين.
2 - لمحة عامة على مصر، كلوت بك.

الفصل الخامس عشر

شارع في القاهرة

لعل ذلك كان عنوان كثير من لوحات المستشرقين، شارع في القاهرة، تلك المدينة التي سحرت الكثيرين منذ أن أسسها الفاطميون في الخامس من أغسطس 969 م وجعلوها عاصمة لهم، وفي أواخر القرن الثامن عشر سجلت بعثة الحملة الفرنسية في كتاب وصف مصر في صورة مستطيل كبير: حده الشرقي من القلعة إلى تل قطع المرأة في الدراسة وتلال ومقابر باب النصر، وحده الغربي يوازي عماد الدين ومحمد فريد من باب الحديد إلى السيدة زينب، وحده الشمالي من الحسين إلى الفجالة، والقاهرة مقسمة إلى أحياء وحارات،



▲ (Street scene Cairo by Lewis)

(مشهد من أحد شوارع القاهرة ـ لويس)

وذكر أندريه ريمون أن عددها 60، وكلوت بك أن عددها 50، وتلك الحارات كانت مقسمة حسب الأصول العرقية، أو طوائف دينية، أو حرف صناعية، والحارة مليئة بمنازل مختلفة الأحجام والاتساع، وتغلق ليلًا بوابة خشبية كبيرة بقفل خشبي كبير يحرسها عبد أسود لا يسمح بمرور أحد، وللحارة شبكة متفرعة من الشوارع تبدأ من الميدان الرئيسي الذي تندرج منه الاسم وهو الدرب.

ويخرج من نهر النيل خليج مصري يشق القاهرة حتى يصل إلى ميدان الأزبكية، وفي فترة الفيضان من كل عام يمتلئ الخليج والأزبكية بالماء وتسبح فيها القوارب وتتنزه على جوانبها الأهالي وتكثر السهرات والأمسيات، ومن أشهر الأحياء حي الموسكي الذي أقامه التجار الشوام والفرنسيون والروم والإيطاليون تتوسطه حديقة روستي الشهيرة وحولها منازل القناصل، ويوجد بالحي تياترو القاهرة وهو مسرح أقيم في عهد الحملة الفرنسية للترفيه عن الجنود، وعلى شاطئ بركة الأزبكية فندق «واجهورن ودمرج» الذي يقدم سهرات ممتعة، بالإضافة للكثير من الفنادق، وكان لهذا الحي بوابات ضخمة تغلق ليلًا وفي الجهة الأخرى من الغرب لبركة الأزبكية السرايا الأكثر شهرة في تاريخ القاهرة وهي سرايا الألفي التي أقام بها نابليون أثناء وجوده بمصر وقُتل في حديقتها الجنرال كليبر، كما أقام بها محمد علي باشا وبويع واليًا لمصر وتحولت تلك السرايا لفندق شبرد سنة 1834 في عهد محمد علي، وفي القاهرة أربعة ميادين كبيرة، ميدان قرة، وميدان الرميلة، وميدان بركة الفيل، وميدان الأزبكية وهو الأكثر شهرة لما سبق ذكره، وفي الأحياء التجارية والصناعية يوجد نحو 1300 وكالة، والوكالة هي عبارة عن مساحة فسيحة تفتح باتجاه الأسواق محاطة بالأبنية من جميع الجهات ولها بوابة متينة للدفاع عنها، وتبقى مغلقة طوال الليل، وبالقاهرة المئات من المساجد أشهرها مسجد الأزهر ومسجد عمرو بن العاص والسلطان قلاوون والحسين ومسجد السيدة زينب والسيدة عائشة - رضي الله عنهم- وللأقباط عشرون كنيسة، واليهود عشرة معابد، وفي القاهرة 1200 مقهى وما يزيد على 300 حمام شعبي وكانت المقابر تشغل الحيز الأكبر لمدينة القاهرة، ولم يكن هناك غير مستشفى البيمارستان إلى أن أنشأ محمد علي مستشفى القصر العيني، وكانت الشوارع غاية في الضيق، بالإضافة إلى تلك المقاعد الحجرية أمام الدكاكين التي تقوم على تضييقها أكثر، ونظافة تلك الشوارع كانت على الأهالي، فكان ضيقها يحول دون ذلك مما ترتب عليه قذارة

تلك الشوارع خاصة أن بعض السكان يلقون بالقمامة في أنحائها المتفرقة، إلى أن يأتي المحتسب ويأمرهم بجمعها فكانت الشوارع على ضيقها وعدم نظافتها والدواب التي تسير فيها تشكل عائقًا في السير كما ذكرنا ذلك مسبقًا في عدد من مذكرات وأقوال الرحالة والمؤرخين الأجانب، إلى أن أكد لنا ذلك الجبرتي قائلًا: إن الإنسان يقاسي شدة الهول إذا مر بالشارع من كثرة الازدحام ومرور الخيالة وحمير الأوسية والجمال التي تحمل الأتربة والأنقاض والأحجار» إلى أن حقق محمد علي إنجازًا في توسيع تلك الطرقات الضيقة وإطلاق أسماء وأرقام على الشوارع والبيوت، وجاء من بعده الخديوي إسماعيل ليقضي على تلك المشاهد نهائيًا بالطفرة التي حققها في مجال التطوير العمراني في عهده وفي لوحات المستشرقين وجدنا ذلك الوصف بكل ما يحمله معه من جمال وقبح، فتلك الفوضى المربكة وذلك الخليط من الأجناس والخليط من الدواب وتلك البائعة التي تجلس في إحدى زوايا الشارع لتبيع البرتقال أو الليمون تجلس بمحاذاتها الكلاب الضالة التي رأيناها في أكثر لوحات المستشرقين لشوارع القاهرة التي كتب عنها فورمان في كتابه «مصر»، وكيف غدر بها «أما الكلاب في القاهرة، كما هو الحال في القسطنطينية والمدن الشرقية الإسلامية الأخرى فليس لها صاحب وتسمى بالكلاب الضالة؛ لأنها ليست مستأنسة وهي تعيش في جماعات، وكل جماعة تقيم في حيها الخاص بها، وفي هذه المدن التي تلقي القمامة في الشوارع أو في الأراضي الفضاء تؤدي الكلاب عمل الكناسين مثل الصقور التركية الجارحة التي تحوم فيرا كروز وكثيرًا ما تنازع المتسولين فتات الخبز التي تلقى من المطابخ، ومن أجمل اللوحات التي رسمت في ذلك الأمر لوحة «مشهد من شبرا» و«شارع في القاهرة» و«مشهد لبولاق» ولعل المشاهد لها ليستغرب ويستدعيه التساؤل: هل هذا الجمال والخلاء الفسيح يمثل الحي المزدحم الآن؟ ونفس التساؤل يلح علينا عند رؤيتنا مشهدًا للأهرامات تلك المنطقة الصحراوية وأمامها بركة فسيحة من المياه.

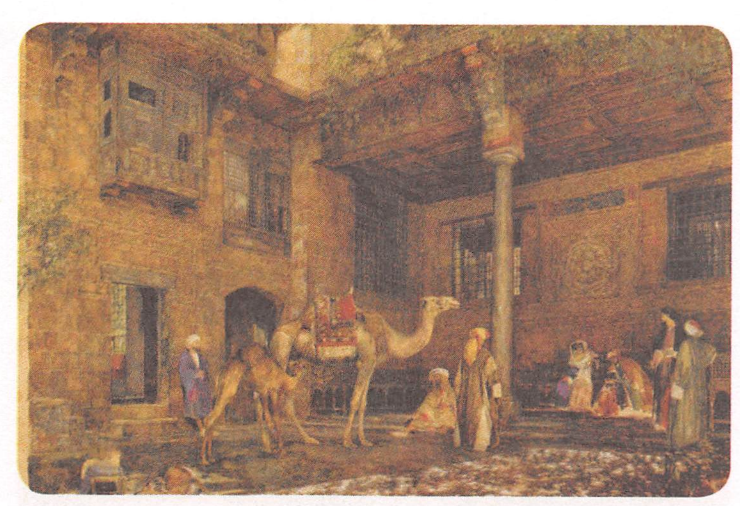
أهم مصادر هذا الفصل:

1 - جيرار نرفال.
2 - لمحة عامة على مصر، كلوت بك.
3 - مذكرات الفنان والمستشرق الفرنسي، برايس دافين.
4 - المصريون المحدثون، وليم لين.
5 - مصر وكيف غدر بها، ألبيرت فارمان.

الفصل السادس عشر

الطراز المعماري

إذا ألقينا نظرنا على مجموعة أعمال فنية لفنان استشراقي فسنجد الفنون المعمارية الإسلامية شكلت جزءًا كبيرًا في تلك المجموعة؛ فالطراز الشرقي الذي بنيت عليه تلك المنازل لا يمكن تجاهله أو غض البصر عنه فهو عنوان للشرق، وقدّر كلوت بك عدد البيوت في القاهرة بما يقارب الثلاثين ألف بيت، منها بيوت عادية وقصور للأثرياء في بداية الربع الأول من القرن الثامن عشر، وكانت البيوت من طابق واحد أو اثنين وأحيانًا ثلاثة طوابق، ومواد البناء من الأحجار العادية أو من حجر الحصى، ومدخل الباب



▲ (The Hosh of the house of the coptic Patriarch. Cairo by Lewis. John Frederick)

(حوش منزل البطريرك بالقاهرة - جون فريدريك لويس)

الخارجي يكون عادة من الخشب المدهون باللون الأخضر، وتكتب عليه آيات دينية أو أسماء الله الحسنى، وله مزلاج خشبي ومطرقة من حديد وبمحاذاة الباب توجد مصطبة حجرية يجلس عليها سايس العربة أو الحارس وبكل منزل صحن دائري داخلي لإدخال النور والهواء للغرف البيت أو لتربية الدواجن وإيواء حيوانات النقل كالحمير.

والخيول، وبذلك الصحن غرفة للبواب والخدم وفرن ومطبخ، ويحرص في تصميم تلك البيوت أن تكون نوافذها عالية وبارزة إلى الخارج حتى لا يختلس أحد النظر في حالة إن كان سائرًا على قدميه أو ممتطيًا الدابة وتصنع النوافذ من الخشب المتداخل أو المعشق المشربية حتى لا تسمح لمن في الخارج برؤية من في الداخل، ولهذه المشربيات مكان مخصص لوضع دوارق الماء من الفخار «لتبريدها» ويختص الدور العلوي من البيت للنساء ويراعى عمل فتحة في السقف للتغلب على حرارة الطقس في الصيف وتزين جدران الغرف برسومات للكعبة أو بآيات قرآنية وأمثال عربية، وبيوت الأثرياء وتمتاز بيوت الطبقة الثرية بالحديقة الملحقة بها واتساع غرفها وبأناقة فرشها ويلحق بها حمام من القيشاني المزخرف وفي وسطها فسيفساء للماء عدا ذلك كانت تتشابه بيوت تلك الفترة الزمنية إلى أن جاء الخديوي إسماعيل وأدخل مظاهر العمران الأوربي للمدن والشوارع



▲ (reception by Lewi John Frederick 1864)

(الاستقبال ـ فريدريك لويس 1864)

المصرية، فالمنازل أصبحت تبنى من عدة طوابق وبالطراز الباروكي والنيو باروك الذي أزاح الطراز الإسلامي جانبًا ولم تعد هناك حاجة للمشربيات، إذ إن الشرفات بنوافذها الخشبية حلت محلها وتزين واجهة المباني الحديثة التماثيل والنقوش؛ والدرج أصبح رخاميًّا له ترابزين من الحديد المشغول، وتعتبر تلك النقلة بمثابة صحوة في عالم المباني الحديثة بكل ما تحمله من راحة ورفاهية، وبالرغم من ذلك لم تجذب تلك المباني الحديثة التي أنشأها الخديوي إسماعيل المستشرقين، فمع وجود عدد كبير منهم في حفل افتتاح قناة السويس عندما كانت أحياء القاهرة تبدل ثوبها الجديد فإنه لم تثر فرشاتهم إلا تلك البيوت القديمة التي بنيت على الطراز المملوكي والفاطمي لسببين؛ زيارتهم للأسواق المقامة في الأحياء القديمة والتي تكثر بها تلك المباني الفاطمية والمملوكية.

التي كانت تجذبهم، أما عن تلك المباني الجديدة التي تعودت عليها أعينهم هناك من المكان الذي قدموا منه فلم تدهشهم؛ لأنهم يبحثون عن الغريب لكي يقدموه في أعمالهم، وانتشرت القصور على بركة الأزبكية وأشهرها قصر محمد بك الألفي الذي سكنه من بعده محمد علي وتحول لفندق شبرد القديم، وقصر عباس الأول وقصر الدفتردار محمد بك زوج ابنة محمد علي وكان قصر شبرا الذي صمم لسكن محمد علي باشا هو الأكثر شهرة وجمالًا الذي أنشأ فيه السواقي وزرع حدائقه بأجود أنواع الخضراوات والفاكهة والزهور المستوردة من الخارج كما كان لإبراهيم باشا قصره بالجيزة وقصر آخر مكان فندق النيل هيلتون ثم يأتي الخديوي إسماعيل عاشق القصور ليبني ويصمم أكثر من أربعمائة قصر أشهرهم قصر الجزيرة الذي تحدثنا عنه بالتفصيل مسبقًا وتعتبر لوحة فناء منزل البطريق القبطي لفردريك لويس هي الأكثر إظهارًا لتلك التفاصيل من الطراز الإسلامي للبيوت المصرية ولوحة استقبال لنفس الفنان المولع بالعمارة الإسلامية.

أهم مصادر هذا الفصل:

1 - لمحة عامة على مصر، كلوت بك.

2 - الحياة الاجتماعية في القاهرة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر.

الفصل السابع عشر

الآثار

«لسنا في أوربا سوى أقزام لا يوجد شعب حديث أو قديم يصور الفن المعماري مثلما تصوره المصريون القدماء».

شامبليون

مصر، إنها بالنسبة للأوربيين الأرض التي لجأت إليها العائلة المقدسة خوفًا من بطش هيرودوس، في حين يراها البعض بشكل مختلف عندما هرب منها العبرانيون بقيادة موسى عليه السلام من وادي النيل. إذن أرض مصر في أذهان هؤلاء القوم تندرج تحت مفهوم أرض الهروب سواء منها أو إليها، ومصر كانت الأرض التي يجب المرور عليها بعد زيارة بيت لحم لزيارة دير سانت كاترين، أو شجرة العذراء مريم، أو مقر القديس مرقص بالإسكندرية، وفي 1665 صدر كتاب لرحالة فرنسي بعنوان «رحلات مسيو دي تيفينو في المشرق» وقد وصف فيها مصر بمدنها الرئيسية والآثار الموجودة فيها وفي رحلته هذه كان قد فتح بنفسه مقبرة في سقارة، وأخذ معه إلى فرنسا مسحوق المومياء الشهير آنذاك وتابوتًا، ومن أهم الأماكن الدينية والأثرية التي كانت تجذب الأجانب لزيارة مصر دير سانت كاترين الإسكندرنية التي لجأت لذلك الجبل خوفًا من تهديدات الإمبراطور الروماني ماكسيميان وبعد موتها وضعت الملائكة جسدها فوق قمة الجبل، ويحكى أنه بعد مئات السنين وجد جثمانها سليمًا ونقل للدير ويقال إنه تم تقطيعه إلى

أجزاء كانوا يوزعونها على السائحين ذوي المنزلة الرفيعة وكانت الرحلة في الصحراء شاقة جدًّا ومقتصرة فقط على الرجال وبعد صعودهم الجبل يشاهدون الحجر الذي أخرج موسى منه الماء.

ومن تلك الرحلات الدينية التي بدأت تنتشر في أوربا تردد كثيرًا اسم مصر تارة بشكل حقيقي وكثيرًا بشكل خرافي، فتارة وصفوا أبو الهول مسخًا على هيئة تمثال فهو من الأمام عذراء ومن الخلف أسد، والأهرام مدببة بقمم من ماس، ومن هنا بدأ الشغف الأوروبي بالآثار المصرية القديمة وانتشرت تماثيل أبو الهول تزين قصور الأغنياء وحدائقهم كما تزين مقر السلطة في إيطاليا، وكان في عدم اكتشاف فك اللغة الفرعونية تغذية لأساطير وأوهام الكثيرين منهم ومثارًا للأحاديث، فتلك البلاد القديمة قدم الإنسانية والتي تم ذكرها في التوراة 680 هي بلاد عجيبة بكل المقاييس لذلك تحولت الرحلات من دينية إلى استكشافية لتلك الآثار التي قيل حولها الكثير، وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر نشر الكثير من الكتب كان من أشهرها الذي كتبه قنصل فرنسا في مصر أول مؤلف شامل عن بلاد الفراعنة «وصف مصر» قبل تأليف كتاب مجلد وصف مصر بما يقارب ثلاثة أرباع القرن تقريبًا وسرعان ما نفدت الطبعة الأولى من كتابه وانتقل ذلك الولع بالآثار الفرعونية لملكة فرنسا ماري أنطوانيت؛ فكانت تماثيل لأبو الهول تنتشر في غرف نومها ومكتبها وقصر الفرساي، وهذا الولع انتقل بدوره للشعب الفرنسي ولم تقض عليه الثورة الفرنسية بل دعمته، وخلال حملة نابليون على مصر في 19 يوليو 1798 اكتشف كابتن فرانسو أكزافييه بوشار الضابط المهندس حجرًا بين أنقاض حصن بالقرب من مدينة رشيد يحمل نقوشًا يونانية وديموطيقية وهيروغليفية كان من الجرانيت الأسود شديد النعومة والصلابة يبلغ ارتفاعه 36 بوصة، وكتبت جريدة لوكربيه إيجيبت «أخبار مصر» إنه «أخيرًا توصلنا لمفتاح هذه اللغة» ظنًّا منهم أن اللغة الديمواطية هي نفسها ما تقوله الحروف الهيروغليفية وكأنه نص مترجم بعدة لغات، وبرهن شامبليون الراهب القبطي الذي تلقى علوم اللغات العربية في مدرسة الشرقيات ثم ذهب إلى كوليج دي فرانس لاستكمال تعليمه، وقد استحوذت تلك اللغة على خياله خصوصًا أنه لم يستطع

أحد فك طلاسمها، فقد ذهب سرها مع آخر كهنة في العصور القديمة ولكن هذا الشاب الذي تعمق في دراسة اللغة القبطية حتى إنه كان يترجم كل ما يقرؤه أو يسمعه إلى اللغة القبطية، ولم تكن سوى المفتاح الذي قاده لفك اللغة الهيروغليفية وفي 14 سبتمبر 1822 أخذ يصيح «وجدتها وجدتها» وكانت تلك الصيحة بمثابة فك رموز تلك اللغة وفتح صناديق أسرار تلك الحضارة التي ظلت مخفية بقدر صمتها لعدة قرون وأصدر كتابه «مصر في عهد الفراعنة»، ويذكر أنه عند وصول السفينة بشمبليون لأرض مصر بعث إلى أخيه قائلًا: «أنا أشعر أني خلقت في هذا البلد حتى إن ملامحي قريبة الشبه بهم» واستقبله محمد علي وحصل منه على حراسة وتسهيلات كبيرة في زيارة المواقع، واستمرت رحلته ما يقارب العامين استكشف خلالها خمسين موقعًا ودونت تلك الرحلات في كتاب عنوانه «صروح مصر والنوبة» وأمام معبد الكرنك انحنى قائلًا: « لسنا في أوربا سوى أقزام لا يوجد شعب حديث أو قديم تصور الفن المعماري مثلما تصوره المصريون القدماء».

ووصف رحلته الاستكشافية في مقبرة رمسيس الثاني «كانت تلك المقبرة بمثابة فندق نقضي به ليلتنا؛ لأنه في الخارج كان قد أكلت الضباع الحمار الخاص بنا» وفي زيارته

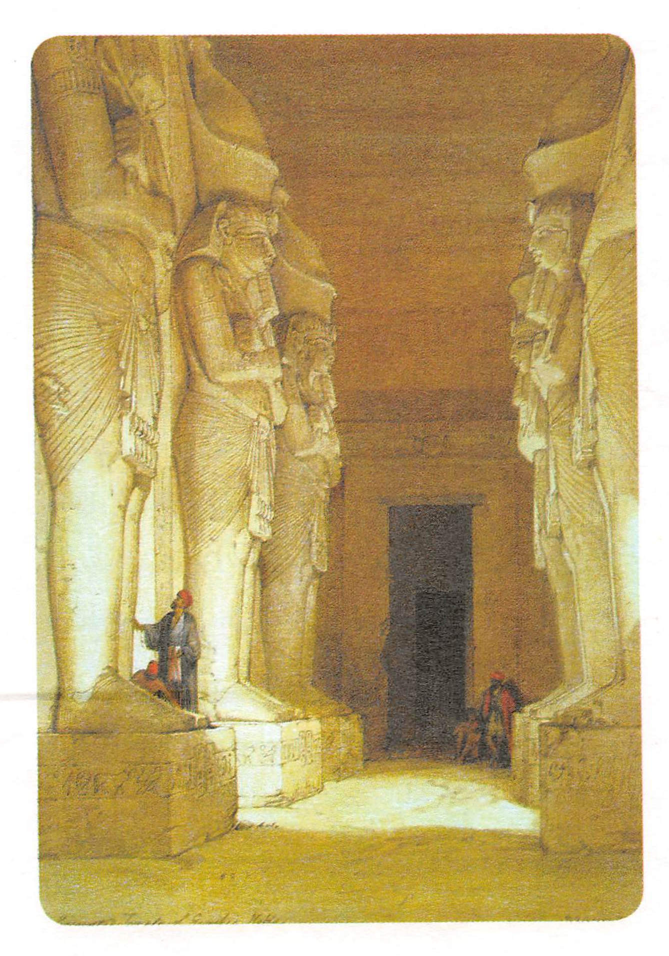


▲ (The Desert of Giza by David Roberts)

(صحراء الجيزة ـ دافيد روبرتس)

لمعبد أبي سمبل ذلك المعبد الذي قد يختفي هو وأعضاء بعثته أسفل أتربته المتحركة كتب يقول: «لقد خلعت ملابسي باستثناء قميص عربي وبنطلون من الكتان وفي درجة حرارة تزيد على 51 درجة كان علي الدخول في فوهة الفرن المشتعل» واستمر العمل في ذلك المعبد ساعتين صباحًا ومساءً على ضوء الشموع، وأخيرًا كتب يخبر مسيو داسيه قائلًا: «يسعدني إن أبشرك بأنه ليس هناك ما يمكن تغييره فالحروف الهيروغليفية هي تمامًا مثلما توصلنا إليها». وفي نهاية جولته التقى مرة أخرى محمد علي باشا فطلب منه أن يكتب كتابًا عن الآثار المصرية، ووقتها ترجاه شامبليون القضاء على طرق السلب والنهب الوحشية التي تنتهك بها الآثار المصرية، فلكي يحصل محمد علي باشا على الأحجار اللازمة لبناء معامل السكر ولتموين معامل البارود فرض على الفلاحين تقديم قنطار من الأحجار على كل فدان مزروع ولم يكن أمام هؤلاء الفلاحين والصعايدة سوى هدم تلك المعابد لاقتطاع أحجار منها وتقديمها للباشا، ولم ينظم ذلك الموضوع إلا عندما عين ماربيت بك مديرًا للآثار المصرية.

وأمام عبقرية شامبليون في فك رموز حجر رشيد، منحه الملك لويس الثامن عشر صندوقًا من الذهب، واستقبله بابا الفاتيكان وعرض عليه أن يكون كاردينيالًا، ولكن شامبليون رفض المنصب بأدب، واكتفى بحصوله على وسام الشرف، وعُين في منصب أمين المعرض المصري بمتحف اللوفر، وقد رسمت اللوحات التي تمثل آثارًا مصرية منذ أمد طويل، ولكن الحملة الفرنسية كانت بمثابة انتشار واسع لتلك الآثار الفرعونية بعد رسمها في كتاب «وصف مصر» عام 1809، وكانت لوحات الفنانين فيما قبل الحملة مقتصرة على الأهرامات وأبو الهول لأنهما الأكثر شهرة وغرابة، وبعد ذلك رسمت معابد أسوان والأقصر بكل ما فيها من تماثيل ومسلات في لوحات الآثار. يضيف الفنان أشخاصًا يتسكعون بكسل بين أروقة المعابد أو يصعدون أعلى حجر ضخم للهرم، كذلك في كتاب «وصف مصر» كانت اللوحات الأثرية لا تخلو من ضباط الحملة الفرنسية وهم يتجولون في ساحة المعابد أو يقومون بعرض عسكري، ويظهرون من بين ضخامة التماثيل والمسلات.



(Excavated Temple of Gyrshe Nubia by David Roberts)

(معبد النوبة - دافيد روبرتس)

وفي لوحة جيروم الشهيرة، يقف نابليون بونابرت بزيه العسكري على فرسه بمواجهة أبي الهول .. وقد أظهر الفنان كم هو ضئيل مقارنة بأبي الهول الذي ضخمه بشكل كبير ليظهر في النهاية وكأنه قزم في حضرة تلك الحضارة، كما يذكر أن بونابرت كان معترفًا بذلك؛ إذ قال لجنوده عند حملته على مصر: «اذهبوا وفكروا في أن من فوق تلك الصروح أربعين قرنًا تراقبنا».. فهذا القائد العظيم لم يخش جبابرة الدول الكبرى في ذلك الوقت بالقدر الذي خشي فيه الحضارة الفرعونية، ورغم العيوب البسيطة التي لا يخلو منها كتاب «وصف مصر» كاعتبار معبد دندرة قصرًا لأنهم لم يكونوا قد توصلوا لمعرفة اللغة الهيروغليفية بعد فإن ذلك العمل الضخم لا يزال مرجعًا أساسيًا للباحثين ليستفيدوا

منه؛ حيث كانت معظم الآثار المصرية مطموسة تحت الأتربة والرمال الكثيفة أو مقابر لم تكتشف أماكنها بعد، ومن كتاب «وصف مصر» لاكتشاف اللغة الهيروغليفية؛ لافتتاح قناة السويس واكتشاف كنوز توت عنخ آمون - تفشى الهوس بمصر الفرعونية، وانتشرت التحف والأثاث الذي يحمل رأس أبي الهول أو نقوشًا فرعونية على الخشب في جميع مصانع أوربا وبخاصة فرنسا في ذلك الوقت، وأصبح فيفيان دينون فنان الحملة الفرنسية وأحد مؤلفي كتاب «وصف مصر» - مديرًا للفنون الجميلة الفرنسية، ودفع الطلبة من فنانين ونحاتين ونقاشين لرسم الآثار المصرية لتجميل فرنسا بكل ما هو فرعوني؛ فلم يكن للإمبراطورية الفرنسية على مكانتها ماضٍ أو حضارة! وهي المولعة بالفنون، فكان يجب عليها أن تبحث لنفسها عن طراز فني خاص بها فلجأت للاقتباس من الفن الفرعوني الأكثر ثراء؛ حيث يمكن تشكيله بأساليب كثيرة وأشكال عديدة، وكانت الشرارة الأولى في ذلك تلك الكنوز العظيمة التي فرط فيها محمد علي باشا وأهداها للدول الكبرى فرنسا وإنجلترا، وثار كثير من الجدل في المكان الأنسب كي تنصب فيه المسلة في باريس، فكان شامبليون يرى أن نصبها في الجانب الأيمن من متحف اللوفر هو الأنسب، بينما يرى نابليون أن ميدان الكونكورد هو الأنسب، وكان لنقل تلك المسلة من نهر السين لميدان الكونكورد اختراع خاص عبارة عن جهاز نقل غاية في التعقيدات .. وفي 22 أكتوبر 1836 تجمع الجمهور الكبير وعلى إيقاع عازفي أوركسترا تتكون من مائة عازف يعزفون مقطوعة «أسرار إيزيس الخفية» لموزار، ووسط جو ملبد بالغيوم وفي الظهيرة ظهر الملك لوي فيليب وحيَّا الجمهور وأخذت المسلة بقيادة المهندس لوبا المشرف على نصبها بواسطة الآلات الحديثة في الارتكاز على قاعدة صُنعت خصيصًا لها وحفر عليها: «في حضور الملك لوي فيليب الأول تم نقل المسلة من الأقصر إلى فرنسا ونصبت فوق تلك القاعدة بواسطة المهندس لوبا وسط تصفيق جمهور غفير»، وعلى الرغم من تفريط محمد علي في هاتين المسلتين العظيمتين فإن الخديوي سعيد باشا كان من أكثر من حكموا مصر إهدارًا للثروة الفرعونية، سواء في تلك الآثار التي أهداها لملوك وأمراء أوربا أو في عدم اهتمامه بها؛ فكانت تُسرق وتنهب من اللصوص وتجار الآثار، ولم تكن حياة قدماء المصريين بكل

ما تحمله من أسرار مصدر إلهام في الفن التشكيلي فقط، ولكن في الأدب أيضًا تصدرته رواية الأديب الفرنسي جيرار «ليلة كليوباترة» 1838، وبعدها بعامين نشر جيرار أيضا روايته «قدم مومياء» وهي قصة مستوحاة من لوحات فنان الحملة الفرنسية فيفيان دينون الذي عند عبوره وادي الملوك اكتشف قدم مومياء صغيرة فأحضرها معه لفرنسا، وكتب جوتييه يصف تلك القدم: « لم تمس الأرض مطلقًا ولم تلامس سوى أرقى أنواع الحصير المصنوع من بوص النيل وأكثر أنواع السجاد نعومة المصنوعة من جلد النمر»، وفي عام 1858 أصدر روايته الأكثر شهرة «المومياء» وتحكي عن وقوع رجل معاصر في عشق سيدة من العصور القديمة .. ويتضح من التعمق في المعلومات الواردة في الرواية أن المؤلف لجأ إلى مصادر أخرى، كان من أهمها كتاب «تاريخ عادات الحزن والجنازات لدى الشعوب القديمة» وقد تحولت رواية «المومياء» إلى فيلم سينمائي يحمل الاسم نفسه، كما ألفت العديد من المسرحيات والعروض للأوبرا مستوحاة من الحياة الفرعونية كانت أشهرها أوبرا عايدة التي ألفها ماريت بك عالم الآثار ووضع موسيقاها الملحن الأشهر فيردي، وكان للمقطوعات الموسيقية نصيب أيضًا كالمقطوعة الأشهر لموزارت «أسرار إيزيس»، على رسم الكثير من المستشرقين مشهد الأهرامات وأبو الهول، ولكن قلة منهم هم الذين تعمقوا أكثر في رسم الآثار الفرعونية بتفاصيلها والتي كان أشهرها المجموعة التي رسمها الفنان دافيد روبرتس.

أهم مصادر هذا الفصل:

1 - رحلة إلى الشرق، جيرار نرفال .

2 - مصر ولع فرنسي، روبير سوليه

3 - voleny voyage en egypte en syrie pendant les anee

الفصل الثامن عشر

النيل

«ليس ثمة منظر في العالم كله يفوق هذا المنظر سحرًا وجمالًا وتنوعًا وتأثيرًا.. إنه يسمو بالروح ويحضّها بقوة على التأمل».

سافاري



▲ (Nile fishing boat in Cairo by Varely Berkogs)

(مركب شراعي في النيل لصيد الأسماك - فارلي بيركوجز)

ذلك الساحر الأسمر الذي يتهادى بغرور من يعلم قدر نفسه، كم من الشعراء أجزلوا فيه الوصف، وكم من فنانين لم ترسم فرشاتهم عداه.. «من شرب من ماء النيل فلا بد له الرجوع مرة أخرى»، أكد هذه المقولة فارمان قنصل أمريكا في مصر في أواخر

القرن الماضي الأرض السوداء نسبة إلى لون الطمي الذي يهبه النيل للبلاد، وقد كانت منذ العصور الأولى هي حقل القمح الخصب الذي لا يبخل على أحد من قريب أو من بعيد، وقال سيدنا يعقوب منذ أمد الأزل لأولاده إنه سمع عن مصر بكثرة غلتها ونماء محاصيلها، وطلب منهم أن يذهبوا إلى تلك الأرض المباركة ليعيشوا بها، وفي عام 1880 كانت مصر تحتوي على خمسة ملايين فدان زراعية، وكان نهر النيل يفيض من شهر يونية إلى سبتمبر من كل عام، وقد نسب المصريون القدماء تلك الظاهرة إلى الآلهة؛ لاعتقادهم أنه ينبع من أقاليم بلا مطر، وفي أولى ليالي شهر يونية تسكب إيزيس دمعتها فيفيض النهر، والنيل مصدر رئيسي وبشكل مباشر للشرب في مصر؛ حيث يقوم السقا بملء قربته من مائه ويذهب لتوزيعها على البيوت، إلى أن دخلت شركة المياه وقامت بتوزيعها في عهد الخديوي إسماعيل، كان اعتماد المصريين على مياه النيل يشكل استمرارية الحياة؛ فمن مياه للشرب، للحصول على محاصيل زراعية، للتريض، والتنزه، والسباحة في بعض الأوقات، وكان ذلك الاعتماد الكلي للمعيشة في مصر على نهر النيل واضحًا للمستشرق، حتى إنه كان لا يتخيل حياة هذا الشعب من دونه؛ فكانت اللوحات المتنوعة العديدة عن نهر النيل توضح تلك الجزئية، فهو غالبًا مرادف لكلمة مصر في خلفية اللوحات أو في بؤرة اللوحة وتحوم تلك الحياة حوله؛ فمثلًا نجد مجموعة من السيدات والفتيات يقفن على ضفافه يملأن القلل الفخارية ويغسلن الصحون والأواني أو مجموعة من الفلاحين يعبرون من ضفة لأخرى هم وحيواناتهم، وكان فيضان النيل بغزير مائه مناسبة سعيدة لا بد من الاحتفال بها بشكل يليق - كما وصفنا سابقًا.

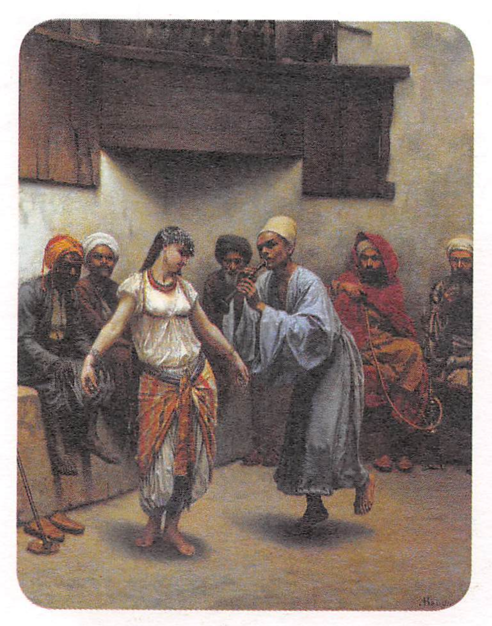
الفصل التاسع عشر

الرقص والغناء

«تعلمت من كتابة التاريخ، أن المؤرخ يجب أن يبحث عن كيف يلهو الشعب.. إن اللهو يكشف عن شخصية الشعب».

عبد الرحمن الرافعي

منذ قديم الأزل والشعب المصري هو أبو الفنون الأكثر حبًّا للموسيقى والغناء والرقص، وظهرت تلك الصور على المعابد المصرية القديمة، وفي القرن التاسع عشر انتشرت الراقصات في المدينة وكان يطلق عليهن الغوازي، ووصل الحد من انتشارهن إلى أنهن كن يقمن بعرض رقصاتهن في الشوارع وأمام المقاهي والمنازل في الاحتفالات العامة كشق الخليج والموالد والاحتفالات الخاصة كالزفاف والختان وسبوع المولود، وتلبس الغوازي ملابس الرقص

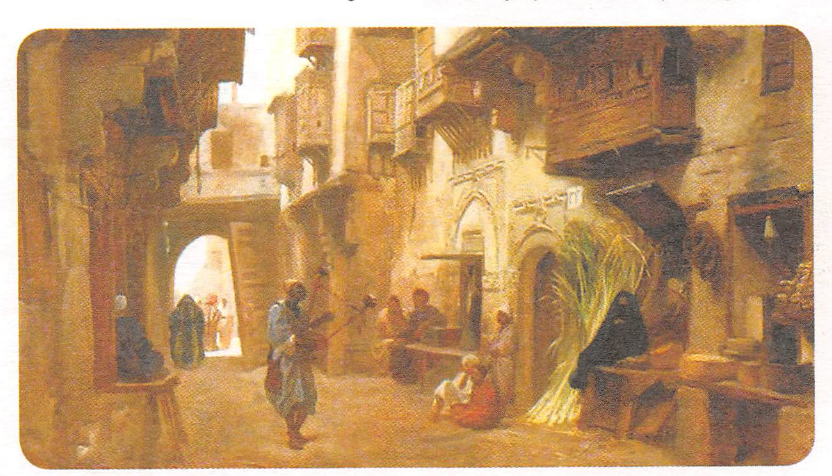


▲ (Dancing-In-Cafe-In- Cairo by Jacques Baugnies

(رقص في أحد مقاهي القاهرة - جاك بيجنس)

ويكثرن من الزينة والحلي وأحيانًا يقمن بعرض رقصاتهن مع فرقة موسيقية أو على أنغام الطبول، ومن أشهر الرقصات انتشارًا تلك التي تسمى النحلة، وقد وصفها الكثير من الرحالة والمؤرخين، وفيها تدعي الراقصة أن نحلة قد قامت بقرصها وتندرج الراقصات تحت طائفة العوالم. وبسبب انتشار العوالم والفساد المترتب على ذلك طلب الأهالي من محمد علي باشا طردهن من القاهرة، ولم يلبِّ محمد علي طلبهم إلا عندما تعهد جماعة من الأهالي بدفع الضريبة نيابة عنهن، وعند طرد الغوازي من القاهرة حلت مكانهن فئة أكثر انحلالًا وهي الرجال المخنثون الذين يرتدون ملابس النساء ويقومون بالرقص بدلًا منهن.

وقد اهتم المستشرقون بالرقص الشرقي اهتمامًا كبيرًا؛ لأنه غريب عن رقصهم الذي هو كنشاط اجتماعي وتعبير عن حالة مزاجية خاصة، فالكل مشارك به، في حين أنه في الرقص الشرقي تتفنن الراقصة في إرضاء الزبائن بدون مشاركة منهم تدفعهم للتجاوب معها بتحريك جسمها على أنغام موسيقية لتثير انتباههم وتصنع نوعًا من البهجة - رسم الكثير من الفنانين الرقص الشرقي، منهم من أظهره كفن جميل، أجاد إخراج مشهد الراقصة وهي تقوم بهز وتحريك جسدها مع الموسيقى، والبعض أخرجه بشكل مبتذل وكأن هذا الفن لا يثير سوى الغرائز الحسية لا أكثر.



▲ (An-Arabic- Street by Frederick-Goodall)

(مغنٍ في الشارع - فريدريك جودال)

أما عن المطربين والموسيقيين، ويطلق عليهم اسم الآلاتية، فيقومون بالعزف بمصاحبة مطرب أو بدونه ويطوفون الشوارع والطرقات للعزف، ويلتف حولهم الزبائن في المقاهي، وأحب الأهالي هذا النوع من الطرب حتى إنه لم يكن يخلو احتفال بسيط من الغناء والموسيقى ويغدق الأهالي على المطرب الهدايا والأموال إذا كان يتمتع بصوت جميل، ويذكر أن حفل زفاف الأنجال، الحفل الكبير الذي احتفل به الخديوي إسماعيل بزفاف أربعة من أبنائه، أحياه المغني عبده الحامولي الذي كان له الفضل بالارتقاء بالغناء الشرقي فلم يكن قبله أي أصول للغناء، بل كان مزيجًا من الفارسية والتركية المشوهة والمنقولة عن جوارٍ ومماليك، وهو الذي قرب التواشيح التركية والفارسية إلى الأذواق المصرية، وعندما سمع به السلطان العثماني طلب استدعاءه ولم يكن يمل سماعه لشهور طويلة قضاها الحامولي في إستانبول وعندما مسه الحنين للقاهرة أفاض بسره للحاشية متعللًا أن المصريين ربما يكرهون السلطان العثماني لاستحواذه على مطربهم المفضل وحرمانهم سماع صوته، فوافق السلطان على عودة الحامولي لجمهوره الذي يعشق صوته في مصر بعدما أجزل له العطايا والهدايا، وكان الحامولي يغني من ألحانه أحيانًا ومن موسيقى زميله محمد عثمان أحيانًا أخرى أجمل الأدوار والقصائد والموشحات، وفي مقدمتها دوره الشهير الذي يجمع فيه بين مخاطبة المحبوب والتوجه إلى أفندينا ولي النعم.. إسماعيل باشا.. ويقول مطلع الدور: الله يصون دولة حسنك:

الله يصون دولة حسنك

على الدوام من غير زوال

ويصون فؤادي من جفنك

ماضي الحسام.. من غير قتال

ووصل حد ولع المصريين بالأغاني إلى أن نظمت كل طائفة الأناشيد والأغاني الخاصة بها كالمراكبية وعمال البناء والسقائين وهكذا، وقد استعان محمد علي بفرقة موسيقية فرنسية مخصصة لعزف الألحان العسكرية، أقامت معهدًا موسيقيًّا بالخانكة مقر تدريبات الجيش، وكانت تلك الفرقة التي انضم إليها ما يزيد على مائتي طالب تقوم بتعليم عزف

المقطوعات العسكرية، وكان من أشهرها تلك المسماة البونابرتية التي كانت تعزف أثناء الحملة الفرنسية في مصر، إلا أن تلك المقطوعات العسكرية لم تجذب الشعب المصري تمامًا، وقد وصف الرحالة والمستشرقون الأجانب موسيقانا بالمملة والصاخبة، وصفها «وليم لين» بأنها تتألف من مقامات صغيرة وبسيطة الأنغام والألحان، وأول من غنى المنولوج بالقاهرة كانتا فتاتين يهوديتين «ليلى وقمر» تقدمان عروضهما في حانات خاصة تقدم فنون الموسيقى والرقص حول خليج أمير المؤمنين والخليج الناصري وبركة الأزبكية وتعود القاهريون الذهاب إلى هناك للفرجة والاستمتاع.

أهم مصادر هذا الفصل:

1 - لمحة عامة على مصر، كلوت بك.
2 - المصريون المحدثون، وليم لين.
3 - الحياة الاجتماعية في مصر، سمير عمر.

الفصل العشــــرون

الحالــة الثقـافيــة



▲ (Court of El Azhar University. by Ludwig Deutsch Cairo 1890)

(ساحة في جامعة الأزهر - لودفيغ دويتش - القاهرة 1890)

كان المستوى التعليمي خلال الحكم العثماني متدنيًا ومعتمدًا اعتمادًا كليًّا على الكتاتيب التي تقوم بتحفيظ القرآن ومبادئ الحساب الأولية كالجمع والطرح أو الأزهر الذي يقوم بالدراسة الدينية، ومع بداية القرن بدأ محمد علي خطواته الإصلاحية في التعليم بإرسال البعثات المتتالية لأوربا وإنشاء المدارس، ولكن تلك الطفرة لم تؤتِ ثمارها إلا خلال الخمس عشرة سنة الأولى من حكم محمد علي، لذلك استمر الدور الذي كان

يقوم به الرواة والمحدثون مميزًا، والرواة هم من يلقون القصص والروايات، والمحدثون يلقون الشعر والسير بلغة عامية جذابة وغالبًا ما يجلس الراوي على مقعد حجري في مقهى ويجتمع حوله مجموعة من الناس ويقوم بقص أحاديثه الشيقة عن ألف ليلة وليلة وعنترة بن شداد وأبو زيد الهلالي، وبالرغم من تفشي الأمية فقد كان هناك سوق للكتاب به مجموعة من باعة الكتب يعرضون مخطوطات عن الجغرافيا والتاريخ والحساب والفلك وقصص ألف ليلة وليلة وكانت بعض هذه المخطوطات غالية الثمن لأنها أصلية وقد كتبت بخط اليد وعند دخول الحملة الفرنسية أخفاها تجار الكتب لاهتمام الفرنسيين بالاستيلاء عليها، ومما يذكر أن المماليك كانوا من أكثر سكان البلاد حبًّا للقراءة.

أهم مصادر هذا الفصل:

- الحياة الاجتماعية في مصر، سمير عمر.

الفصل الحادي والعشرون

الأحزان والجنازات

لم يقل اهتمام المصريين بأحزانهم عن اهتمامهم بأفراحهم. ويحترم المسلمون حدث الموت وموتاهم وكانت شعائر الجنائز الدينية تتم كما هو متبع في الشريعة الإسلامية بالرغم من أن هناك عدة أمور قد انتقلت من الفراعنة، فعند موت شخص عزيز كان النسوة يدهن وجوههن «بالطين» وقد اتشحن بالسواد، وتنضم لهن «الندابات والمعددات» ويتبعهن النسوة في الصراخ والبكاء، وقد قلت تلك المظاهر في نهاية القرن عنها في بدئه، إلا أنه مازال هناك من يتبع تلك العادات لوقتنا هذا، فهناك من يرى أن كبت الحزن وعدم إظهاره يعتبر إقلالاً من شأن المتوفى في نفوس المحيطين به.



▲ (Procession past the Tombs of the Khalifs by David Roberts)

(موكب جنائزي في مقابر الخليفة - دافيد روبرتس)

وتأتي المراسم المتبعة في وفاة الرجل أو المرأة كلٌّ بشكل مماثل للآخر، تشيع الجنازة ويتقدمها ستة من الشيوخ المصابين بالعمى، يطلق عليهم « باليمنية» ويليهم أقارب وأصدقاء المتوفى وفي كثير من الأوقات يأتي الكثيرون من الدراويش وغيرهم من رجال الدين، كل منهم يحمل العلامة المميزة للطريقة التي يتبعها ثم يأتي بعد ذلك ثلاثة أو أربعة من طلبة المدارس يحمل كل منهم مصحفًا ويضع صندوقًا غطي بمنديل مطرز وتقرأ سورة الحشر وتختلف نعوش الرجال عن السيدات؛ فنعوش السيدات تكون مزينة من عند الرأس بتلك التي تزين بها النساء رءوسهن، أما الأولاد الصغار فنعشهم يوضع به عمامة أعلى الشاهد ثم يذهبون إلى المسجد لإقامة صلاة الجنازة ويواصل النعش طريقه ليدفن الجثمان بالمقابر، وكان أشهرها مقابر الخليفة والقرافة، وسميت بذلك الاسم نسبة إلى طائفة من قبيلة المعافر بني قرافة، فسميت باسمهم وكانت أول مقابر للمسلمين في الفسطاط، وكثيرًا ما شغل موكب الجنازة المستشرقين فوصفه وصفًا دقيقًا جيرار دي نرفال في كتابه «رحلة إلى الشرق» كما كتب برايس دافين قائلًا: « كثيرًا ما تجد زفة لعرس تتصادم مع موكب جنائزي ووقتها تكف الفرقة الموسيقية عن العزف احترامًا للموكب الجنائزي إلى أن يمر ويبتعد ثم تعاود العزف مرة أخرى» وقد رسمت لوحة بعنوان «موكب يمر أمام مقابر الخلفاء» وتظهر فيه المقابر بكل ما تحمله معها من أسى وحزن.

أهم مصادر هذا الفصل:

1 - رحلة إلى الشرق، جيرار نرفال.
2 - لمحة عامة على مصر، كلوت بك.

الفصل الثاني والعشرون

ملامح الشخصية المصرية

«لا شيء يسمع الحماقات الأكثر في العالم
مثل لوحة معلقة في متحف».

كونكور

وصف دليل لوجيد جان السياحي المصريين في عام 1894 بقوله: «جوهر الطبع المصري هو الطيبة المتهاونة والميل نحو قبول كل شيء بلا تذمر والرضا بالأمر الواقع مهما كان» وأكد فرومنتان كاتب فرنسي ذلك القول: «هذا الشعب وديع مرح إلى أقصى درجة بالرغم من بؤسه ومن خضوعه. إنه يضحك من كل شيء ولا يفور غضبًا، صوته مرتفع ويصرخ مما نعتقد أنه غاضب في حين أنه يضحك» وكتب برايس دافين في وصف الشعب المصري قائلًا: «إن جميع ما نبأتنا به كتب المصريين القدماء عن طبع المصريين الهادئ نجده في أهل مصر الحديثة كأن المناخ الثابت في هذا البلد يضفي عليه شيئًا من طبيعته، إنه شعب موهوب بصفة المرح التي لم يستطع البؤس أن يقضي عليها، المرح الذي يقضي على صفة التفكير في المستقبل، أهو الاستخفاف أم الخمول؟ ويتضح أنه وبالرغم من كل تلك التغيرات الكثيرة التي حدثت على تلك المظاهر الخارجية للشخصية المصرية فإن هناك الكثير من العادات والتقاليد لا تزال راسخة في الأذهان وتعمل على بلورتها في شكل متجدد، مع الاحتفاظ بالجذور، وأمام ذلك الكم الكبير من المعلومات يتضح لنا أن الشخصية المصرية بالرغم من تغيرات العصر فإنها تظل كما هي

بكل ما تحمله من إيجابيات وسلبيات وإلا لما كانت عبارة فرمان قنصل أمريكا في مصر عندما ذكر في كتابه يقول: «بكرة .. إنها كلمة المصريين الشهيرة» منذ ما يقارب المائتي عام إلى الآن، ترددها ألسنتنا نلجأ إليها كلما اضطررنا إلى ذلك، كذلك عندما رست به السفينة في ميناء الإسكندرية لعله وصف مشهدًا نراه إلى يومنا هذا في التنافس على لقمة العيش «كان المكان أشبه بمستشفى المجاذيب، فقد كانت مئات من الأصوات الجهورية التي يشيع فيها الغضب تتصايح برطانة غير معروفة، ولقد انقض هؤلاء الأعراب «المصريون» على حقائب اليد التي يحملها أول راكب ينزل من السفينة ثم أعقب ذلك مشادة وحشية لم تحسمها سوى أيدي البوليس، وربما كان من أكثر المشاهد السلبية التي لم تختف على مر السنوات ظاهرة طلب البقشيش المستمرة، ذكرها فرمان قائلًا بعد حفل تنصيبه قنصل أمريكا للبلاد: «وفي الصباح التالي توافد الخدم والسائقون والسياس للحصول على البقشيش» ووصفها فرومنتنـــان قائـلًا: «كلمة بقشيش توجز مفردات اللغة المعتادة، إنهـم يطلبون إحسانًا ويلحـــون في الطلب ويتبعونك في الطرقات سائلين بقشيش، بقشـيش كثير». في أكثر من كتــاب نقد صاحبه تلك الظاهـــرة المتفشـية في المناطق السياحية التي يزورها الأجانـب والـتي مـا زالـت موجودة إلى وقتنا هذا وهي طلب مبلغ مالي نظير أي عمل يقدمه للسائح أو الأجنبي وفي أحيان أخـرى يمدون أيديهم للتسول، كما ذكر أحدهـــم



▲ Helping Hand by Frederick Goodall
(طلب الإحسان ـ فريدريك جودال)

قائلًا: «إن تطفلهم بلا حدود ولا حياء» ووصف مونبار الذي حضر للبلاد على متن الباخرة سعيد 1890 « قامت جماعة بغزو سطح السفينة وسط ضجيج مفزع وبحركات سريعة كالقطط يصعدون فوق حبالها ويقفزون بعضهم فوق بعض كالقرود ثم يسطون على كل ما تقع أيديهم عليه».

ومع التطور الملاحي الذي أدى إلى تنظيم رحلات سياحية من قبل الشركات السياحية لمصر مثل شركة كوك وجازيه، خصص دليل «بايديكر» صفحات للاحتياطات الصحية التي يجب أن يحتاط منها السائح في مصر، فهو يدعو السائحين للتزود بصيدلية تشمل أدوية ضد الدوستاريا والحمى وضربة الشمس والتهاب العيون، وإن قارنا بذلك الدليل الإرشادي الذي صدر في أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر فسنجد أن تلك الاحتياطات لم تختف أو تتغير، بل قد زادت فشركات السياحة إلى الآن تحذر عملاءها من التلوث الذي يسود البلاد سواء من الجو أو البيئة، فالسلبيات وإن كانت لم تختف من الشخصية فهي أيضًا مازالت موجودة في البيئة المحيطة بنا، وأهم إيجابيات الشخصية المصرية في عيون هؤلاء المستشرقين فيض من الكرم والسخاء وقالوا فيه: « الكرم العربي. إنه ظاهرة واجبة يفرضها الدين، فهو يهتم بك، يفتح لك أبواب داره بدون النظر إلى هويتك أو نزعتك الدينية ولا من أين أقبلت أو إلى أين تذهب، قوة الشخصية والاعتزاز بالنفس، الترابط الأسري والحرص على العادات والتقاليد، التمسك الديني والبعد عن كل ما ينهانا عنه ديننا الحنيف» ووصف دافين تلك الحقيقة قائلًا: «إنه دين صارم يؤثر في الشعب تأثيرًا كبيرًا ويمنعه من الانحراف المنفر الذي تصادفه لدينا».

فى حين أن العربي في نظر الأوربي ليس بالزاهد في الحياة، فهو مولع بها ولكنه يقتنص من ملذاتها ذلك الذي أحله الله له، وهنالك علاقة قوية تربط العربي بجواده، هذا الجواد الذي يعتلي سلم الرتب في حياة العربي، فهو على رأس اللائحة دومًا، وهناك من المستشرقين من لم يلفت نظره سوى تلك العلاقة فرسمها في الكثير من اللوحات، كذلك أزاح المستشرق ذلك القناع الجامد الذي يحاول العربي أن يخفي به ميله للرومانسية وكأن تلك المشاعر تنقص من رجولته، ووجدناه وقد ظهر في الكثير من اللوحات في مشاهد

غرامية، تفنن الفنان أن يخرجه بصورة العاشق الولهان كما في لوحة «ملكتي» لبريدجمان ولوحة «غرام» لدينين.

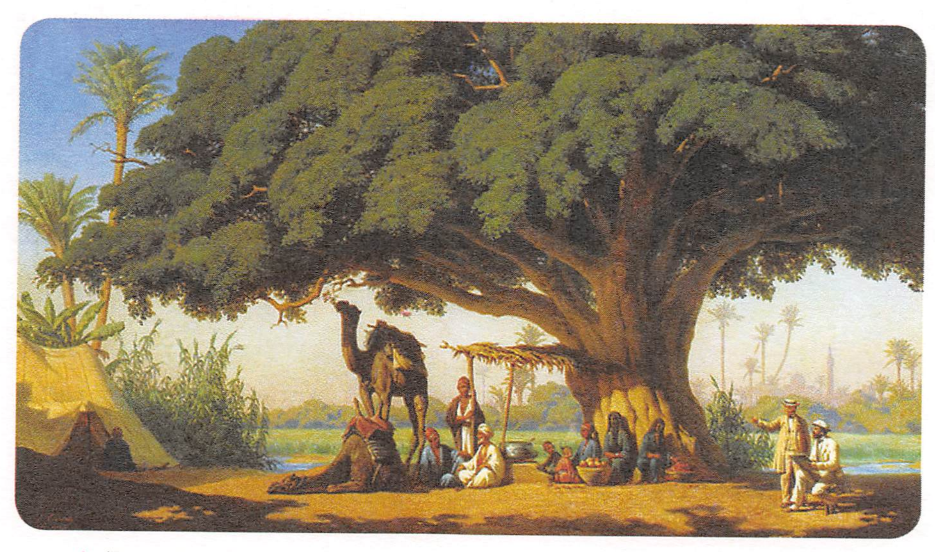


▲ (Queen of the brigands by Frederick Bridgman)

(لوحة «ملِكتي» - فريدريك بريدجمان)

إن تلك الأوجه في سمات الشخصية العربية التي أظهرتها كلمات ولوحات المستشرقين لم تكن من فراغ، بل من واقع ملموس واحتكاك ما بين عالمين مختلفين، ويدل عدد الرحلات التي قام بها المستشرقون في تلك الفترة وتكرار تلك الرحلات لبعضهم - وقد وصلت لعشر رحلات للمستشرق النمساوي ميلر مؤسس مدرسة الاستشراق النمساوية- على أن العلاقة القوية التي ربطت ما بين المستشرق والمصري كان سببًا رئيسيًّا فيها القبول وحسن الضيافة الذي لاقاه المستشرقون سواء من المواطن العادي أو الحكام حتى إن كثيرين منهم كانوا قد قرروا اللاعودة إلى موطنهم، ومنهم من تزوج وأعلن إسلامه فكان ذلك الاستقبال المرحب به وقبول الآخر بكل ما يحمل عنه من اختلافات وتناقض أمرًا اعتاده المصريون منذ أقدم العصور، فلم تكن مصر يومًا من الشعوب المنغلقة على نفسها، وذكر جوتيه في رسالة إلى صديقه نرفال يخبره فيها أنه «يشعر أنه من تلك البلاد، ينتمي إليها، إنه تركي ولكن تركي مصري» وكتب شامبليون عالم الآثار ومكتشف رموز حجر رشيد: «أول ما لامست

قدماي تلك البلاد شعرت أنني منها حتى ملامحي كثيرًا ما تشبه ملامح أهلها الطيبين وذلك الشارب إنه لعربي» وأقام فيكتور هوجو علاقة صداقة مع عرب إسنا حتى إنهم كانوا يلقبونه بأبو شنب، وبرايس دافين المهندس والفنان والكاتب الذي قضى عمره كله متجولًا في مدن مصر، فمنذ أن خطت قدماه البلاد في أوائل القرن التاسع عشر ولم يتركها إلا في أواخره، وقد أقام علاقات قوية مع المصريين الذين كانوا يطلقون عليه إدريس أفندي، وكانت أعداد الأجانب خلال القرن التاسع عشر في ازدياد مستمر منذ تولي محمد علي باشا حكم البلاد 1838 ووصل عددهم إلى 5000 وصولًا لذروته في عهد الخديوي إسماعيل 1865 وصل عددهم إلى 15000 واستمر التزايد، ولكن قبل نهاية القرن بعشرين عام تقريبًا أدت حادثة الإسكندرية والتي قمنا بالحديث عنها مسبقًا إلى رجوع الكثير من الأجانب إلى موطنهم الأصلي، وخاصة بعد الاحتلال البريطاني لمصر.



▲ (Traveling Artists sketching an Arab Encampment, Cairo)

(رسامون رحالون يصورون مخيمًا عربيًا في القاهرة)

ولكن كيف رأى المصري البسيط ذلك الشغف الذي أصاب الفنانين تجاه كل ما هو مصري وخاصة تلك المهن التي يمتهنونها والعادات والتقاليد التي يمارسونها يوميًّا، هم الذين على بساطتهم لم يكن في حسبانهم أن تلك العادات قد تلفت نظر أحد؟ ولنا أن

نتخيل عندما وقف الفنان يومًا ليفرد أوراقه للبدء في رسم مشهد السقا أو بائع العرقسوس ما الذي كان يحدث وقتها من أجدادنا البسطاء، فربما كانوا يتحلقون حول الفنان ليروا ما تصنعه فرشاته ويسخروا منه، فما الجدوى من رسم بائع العرقسوس أو بائعة البرتقال بالنسبة لهم؟ فلم يخطر بخيال أحدهم يومًا مهما جنح به أن تلك اللوحات ستظل باقية بعد رحيلهم بمئات السنوات، تعلق على جدران المتاحف العالمية وتقام المزادات خصيصًا لها، لتمتلئ القاعات بالمشاهدين من شتى أنحاء الأرض يتأملون بعضها ويتوقفون عند بعضها ويبتاعون بعضها، هم الذين كانوا هنا يومًا وظلوا هنا ببشرتهم الذهبية ووجوههم المبتسمة، ها هو بائع السحلب، وتاجر السجاد، وتلك الجارية الجميلة وقد وقفوا أمام فنان ذات خريف أو شتاء في شارع بائس وفي وطن يملك القدرة دومًا على الاحتواء. إنهم تمامًا هؤلاء الأشخاص، كما وقفوا يومها منذ الماضي البعيد لم يتبدلوا ولم تزحف الشيخوخة على ملامحهم، ما زالوا كما هم معلقين على جدران تلك القاعة بمعرض فني تحت الأضواء الساطعة بشموخ الماضي وبساطته معًا، وذلك الإحساس الذي يخالجنا عندما نراها وكأنها بتلقائية آلة الزمن تقوم بنقلنا لزمن آخر وفي عالم آخر، وبقدرة الفنان البارعة نجد أنفسنا وقد تساوت أعمارنا وكما قال كونكور «لا شيء يسمع الحماقات الأكثر في العالم مثل لوحة معلقة في متحف» فترى ما وقع تلك الكلمات التي يتفوه بها المشاهدون عليهم؟

الفصل الثالث والعشرون

صحوة اللوحات الاستشراقية

عندما ولى عصر الاستشراق وخفت ذلك الوميض الخفي الذي يجذب المستشرقين للنزوح من أوطانهم لزيارة تلك البلدان تمامًا كالضوء الذي يجذب الفراشات، حتى الفنان ليون جيروم الذي أثرى ذاكرة الفن بزياراته المتكررة إلى مصر شعر بتلك الحالة من الذبول التي أصابت لوحاته وتكرار تلك الحكايا أدى إلى ملل المشاهدين، ولكن الوميض الذي خفت بنهاية القرن التاسع عشر أضاءت شمعته مجددًا بحلول العقد السابع من نهاية القرن العشرين، فبعد النجاح الساحق الذي حققته تلك اللوحات سواء حشد جمهوري ونسبة عالية في المبيعات في المتاحف والمزادات العالمية ــ ومن الغريب حقًا ــ أن تلك اللوحات بعدما استحوذت على الأوربيين لعقود كثيرة من الزمان قد أثارت الآن اهتمام الكثير من جمهور الدول العربية من مصر ودول المغرب العربي والخليج، فبعد أن أصبحت تلك اللوحات تعبر عن ماضي هذه الأجيال التي حتى لم تتخيل أنه في يوم من الأيام كان أجدادهم كما هم عليه، أصبحت تبحث عن



▲ A bashi-Bazouk by Jean Leon Gerome 1869
(باشبازوق - جيروم)

ماضيها من خلال تلك اللوحات والأعمال الأدبية. إنه نوع من النوستولوجيا والحنين للماضي الذي يجرفنا للبحث عما تبقى منا حتى وإن كان في مجرد لوحات.

وتعتبر تلك الوثائق الوحيدة التي يمكننا الرجوع إليها خاصة أن معظم تلك البلدان العربية لا تملك ذلك الكم التراثي لها. هناك قطاع كبير من الناس يعتمد على اللوحات الاستشراقية بمثابة سجل بصري وحيد للرجوع إليه، بعدما زالت تلك العقدة من رؤية ماضينا من خلال عيون غربية معتقدين أنها إهانة أو إساءة لا يرجى منها سوى إظهار الجهل والتخلف، ولكن مع انتشار الثقافات المختلفة والقراءات في كتب الرحالة والمؤرخين لا يمكننا إلا أن نعترف أن كل ما جاء بها أقرب للحقيقة منه للخيال. وفي عام 2008 يذكر أن تلك اللوحات الاستشراقية حققت أعلى نسبة مبيعات، تصل إلى 70 مليون دولار في مزادات عديدة حول العالم، وتعتبر لوحة باشبازوق الجندي المسلح هي الأغلى بين المجموعات؛ حيث بيعت بمليون دولار وهي للفنان ليون جيروم وفي 2010 كذلك لوحته «شركسية ترتدي الخمار» بيعت بأكثر من مليوني جنيه ولوحة «الراقصة» للرسام النمساوي الشهير ليوبولد كارل مولر، بيعت بصالة مزادات سوثيبز الشهيرة بنيويورك بتاريخ 23 أكتوبر 2008 بمبلغ مليون وستمائة وخمسين ألف دولار، وكان مولر قد رسمها في عام 1882.

تم بحمد الله

المراجـــع والدراســـات

المراجع العربية:

1 - تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل، تأليف إلياس الأيوبي.
2 - الرحلة إلى الشرق.. رحلة الأدباء الفرنسيين للشرق، تأليف بيير جوردا.
3 - مصر وكيف غُدر بها، تأليف ألبرت فارمان قنصل أمريكا في مصر.
5 - مصر ولع فرنسي، تأليف روبير سوليه.
6 - بعض وثائق تاريخية من حكم ساكني الجنان، إسماعيل باشا وتوفيق باشا.
7 - رحلة شاتوبريان للشرق.
8 - الرحلة إلى الشرق لجيرار نرفال.
9 - مذكرات الأميرة جويدان هانم.
10 - مذكرات نوبار باشا.
11 - مذكرات علي مبارك باشا.
12 - مذكرات شفيق باشا، الجزء الثاني.
13 - الحياة الاجتماعية في مصر في عهد إسماعيل، تأليف دكتور صالح رمضان.
14 - كل رجال الباشا، تأليف دكتور خالد فهمي.
15 - الحياة الاجتماعية في القاهرة خلال النصف الأول من القرن التاسعَ عشرَ، دكتور سمير عمر إبراهيم.
16 - الخديوي إسماعيل، تأليف سانتي.
17 - حياة البلاط في مصر، بتلر.
18 - مذكرات الفنان والمستشرق الفرنسي برايس دافين.
19 - الجبرتي، العجائب والآثار في التراجم والأخبار.
20 - المصريون المحدثون، إدوارد وليم لين.

21 – لمحة عامة على مصر، كلوت بك.

22 – مجموعة كتب عبد الرحمن الرافعي.

23 – مدينة القاهرة من محمد علي للخديوي إسماعيل، تأليف دكتور سمير عمر إبراهيم.

24 – أمل الجيارة، يوميات الإسكندرية 1882.

25 – مصر الخديوي، تأليف لادون دي ليون.

26 – باريسي في القاهرة، كارل دي بريير.

27 – البلاط الملكي ودوره في الحياة السياسية المصرية من إسماعيل إلى فاروق، للدكتور عبد الوهاب بكر.

المراجع الأجنبية:

28-Voleny voyage en egypte en syrie pendant les anee

29-Edouard schure,sanctuaries d,orient,paris

30-Leon polier «la France en Egypte» art cit

عن المؤلفة

رشا عدلي محمد

(روائية - باحثة في تاريخ الفن التشكيلي)

- دراسات حرة في تاريخ الفن التشكيلي معهد ليوناردو دافنشي للفنون.
- دبلومة عليا في تاريخ الفن التشكيلي للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أكاديمية لايم للفنون الجميلة.
- إعداد دراسة تداخل فن الركوكو في العمارة الخديوية، الأكاديمية الفرنسية للفنون لها الكثير من المقالات والأبحاث عن اللوحات الفنية ذات الإشكالية التاريخية .
- عضو في الرابطة العالمية لمؤرخي الفن التشكيلي.

للتواصل مع المؤلفة:

- rasha-adly@hotmail.com

- مواقع تخص المؤلفة عن تاريخ الفن
- Gallery about art and history http://riry-shasha.blogspot.com/
- Gallery. Art & History http://www.facebook.com/gallery.art.n.history

فهرس



أحـــدث إصـــدارات

الأستاذة

رشـا عـدلي

- القـاهـرة المدينـة.. الذكريـات

